

ألبير ألنبر في سيرة سيرة المرسلين محمد ﷺ

المؤلفون

الدكتورة: جميلة عبد القادر الرفاعي
أستاذ مشارك كلية الشريعة- الجامعة الأردنية

الدكتور: "محمد رامز" عبد الفتاح العريزي
عضو مناهج - رنس قسم الإشراف التربوي ورئيس قسم
المتابعة والتطوير التربوي في وزارة التربية والتعليم
في المملكة الأردنية الهاشمية سابقاً

الدكتور: إبراهيم محمد السرخي
عضو مناهج - ومشرف تربوي في وزارة التربية والتعليم
الأردنية - ودولة الإمارات - سابقاً

الدكتور: حمزه حسن إيداح
مدير شؤون المساجد - وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات
الإسلامية - المملكة الأردنية الهاشمية

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

سورة الأحزاب، الآية ٤٥-٤٦.

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

سورة الجمعة، الآية ٢.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

سورة الأحزاب، الآية ٣١.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

سورة القلم، الآية ٤.

الفهرست

الفهرس	٥
المقدمة	١١
الفصل الأول: سيرة محمد ﷺ قبل البعثة	١٦
أسرة محمد ﷺ	١٦
ولادة محمد ﷺ	٢٤
رضاعة محمد ﷺ	٢٥
كفالة جده عبد المطلب	٢٦
وفاة أمه آمنة	٢٦
كفالة عمه أبو طالب	٢٧
سفر محمد ﷺ إلى الشام	٢٧
حضوره حلف الفضول	٢٨
رحلته إلى الشام بتجارة خديجة	٢٨
تحكيمه في وضع الحجر الأسود	٢٩
حياته بعد زواجه	٣٠
الفصل الثاني: سيرته عليه الصلاة والسلام في مكة بعد البعثة	٣٣
بداية نزول الوحي	٣٣
نشارة التوراة والإنجيل محمد ﷺ	٣٩
بدء الدعوه	٤٢
الهجرة الأولى إلى الحبشة	٤٦

٤٦	إسلام حمزة وعمر بن الخطاب
٥٠	الجهر بالدعوة
٥٥	إيذاء قريش لرسول الله ولمن أمن به
٦٣	رجوع مهاجري الحبشة في الهجرة الأولى
٦٤	قصة الغرانيق
٧٠	مقاطعة قريش لبني هاشم
٧٢	هجرة الحبشة الثانية
٧٥	وفود نجران إلى مكة
٧٦	وفاة زوجه خديجة رضي الله عنها وعمه أبو طالب
٧٨	الذهاب إلى الطائف
٧٩	زواج النبي من عائشة رضي الله عنها
٨٢	زواج النبي ﷺ بسودة بنت زمعه
٨٣	الإسراء والمعراج
٩٠	وقت فرضية الصلاة
١١٨	عرض الدعوة
١١٨	إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي
١٢٠	لقاء رسول الله ﷺ ببني شيبان
١٢٢	بدء إتصال الرسول بأهل يثرب (بدء إسلام الأنصار)
١٢٣	إسلام الأنصار
١٢٤	بيعة العقبة الأولى
١٢٧	بيعة العقبة الثانية
١٣٠	هجرة الصحابة من مكة إلى المدينة

١٣١	أولى المهاجرين إلى المدينة
١٣٥	هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة
١٤٦	من عبر وعظات الهجرة
١٤٧	وضع المدينة المنورة عند الهجرة النبوية
١٤٧	بناء الدولة الإسلامية في المدينة زمن رسول الله ﷺ
١٥٧	مشروعية الجهاد في الإسلام
١٦١	بدء القتال
١٦٢	غزوة ودان
١٦٢	غزوة بواط
١٦٣	غزوة العشرة
١٦٣	غزوة بدر الأولى
١٦٣	سرية عبد الله بن جحش
١٦٥	غزوة بدر الكبرى
١٧٢	ما بعد معركة بدر
١٧٨	فداء أسرى بدر
١٨١	دروس وعبر من غزوة بدر
١٨٣	غزوة السويق
١٨٤	غزوة بني قينقاع
١٨٦	مصرع كعب بن الأشرف اليهودي
١٨٧	غزوة عطفان
١٨٧	تحويل القبلة
١٨٩	فرض صوم رمضان

١٩١	بيان مقادير الزكاة
١٩٢	غزوة أحد
٢٠٥	ما بعد غزوة أحد
٢٠٥	يوم الرجيع
٢٠٦	بئر معونه
٢٠٩	إجلاء بني النضير
٢١٤	غزوة بني المصطلق
٢٢٣	المنافقون
٢٢٦	غزوة الأحزاب (الخندق)
٢٣٦	غزوة بني قريظة
٢٤٧	غزوة الحديبية
٢٥٠	بيعة الرضوان
٢٥٧	غزوة خيبر
٢٦٠	فتح وادي القرى
٢٦٠	صلح تباء
٢٦٠	النهي عن نكاح المتعة وأكل لحوم الحمير الأهلية
٢٦٢	تحريم ربا الفضل
٢٦٢	عودة مهاجري الحبشة الثانية
٢٦٢	تأديب الأعراب
٢٦٤	إسلام خالد بن الوليد
٢٦٥	مكاتبة الملوك والأمراء
٢٦٧	كتاب كسرى

٢٦٨	كتاب المقوقس
٢٦٩	كتاب النجاشي
٢٧٠	كتاب إلى الحارث بن شمير لأمير دمشق
٢٧١	كتاب أمير بصرى
٢٧٢	عمرة القضاء
٢٧٤	زوجات الرسول
٢٩٣	غزوة مؤتة
٢٩٧	فتح مكة
٣٠٦	غزوة حنين
٣٠٩	غزوة الطائف
٣١٢	تقسيم الغنائم
٣١٧	جمع الزكاة من القبائل
٣٢٢	مسجد ضرار
٣٢٢	عقاب اللذين تخلفوا عن غزوة تبوك
٣٢٤	حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الناس
٣٢٩	تجهيز جيش أسامة
٣٣٣	وفاة رسول الله ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله محمداً خاتم النبيين والمرسلين بالهدى ودين الحق للناس كافة رحمة للعالمين، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

والصلاة والسلام على من جعل الله تعالى سيرته في أقواله وأفعاله، وأخلاقه قدوة للعالمين، حيث قال الله سبحانه وتعالى، مخاطباً عباده المتقين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).
وقال في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢).

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه فقالت: «كان خلقه القرآن» (٣).

وبعد:

كان العرب قبل مجيء الإسلام أمة أمية يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة، قال تعالى في وصفهم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤).

وكانوا لا يعرفون من مادة التاريخ إلا ما كانوا يتوارثونه مما كان شائعاً بينهم من أخبار الجاهلية، كحديثهم عن آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وما في حياة الآباء والأجداد من قصص فيها البطولة وفيها الكرم، وفيها الوفاء ثم حديثهم عن البيت الحرام وزمزم وقبيلة جرهم وما كان من أمرها ومن

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢) سورة القلم الآية ٤.

(٣) أحمد، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة طبعه أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، رقم الحديث (١،٢٤٦) وقال عنه المحقق حديث صحيح.

(٤) سورة الجمعة الآية ٢.

خبر البيوتات التي تناوبت الإمرة والزعامة في قبيلة قريش وما جرى في اليمن بعد انهدام سد مأرب من تفرق العرب الذين كانوا يعيشون حوله وأمثال هذا مما قامت به الذاكرة مقام الكتاب، واللسان مكان القلم، مما يعي الناس ويحفظون في ذاكرتهم، ثم يؤدونه برواياتهم.

وبعد بعثة النبي ﷺ أهتم الصحابة والتابعون برواية سيرة المصطفى ﷺ حيث ظهرت روايات لهم بما حصل لرسول الله ﷺ بعد ولادته ثم بعثته، وما لاقى هو وصحابته من اضطهاد من مشركي مكة، مما اضطرهم للهجرة إلى الحبشة ثم هجرتهم مع رسول ﷺ إلى يثرب وإقامة رسول الله ﷺ للدولة الإسلامية في المدينة المنورة والإهتمام بالركائز التي قامت عليها، وغزواته وسراياه إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

فهذا وذاك كان مادة للتاريخ أولاً ثم للسيرة النبوية ثانياً.

ولم يدون من تاريخ العرب والسيرة النبوية شيء في حياة رسول الله ﷺ، ولا في عصر الخلفاء الراشدين وإنما اختصر في هذه الفترة على تدوين القرآن الكريم ثم قيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه وكتابته في مصحف واحد. ثم قيام عثمان بن عفان رضي الله عنه بنسخ القرآن الكريم عدة نسخ وتم توزيعها على الأمصار الإسلامية كالبصرة والكوفة وبلاد الشام، وكان رسول الله ﷺ قد نهاهم عن كتابة حديثه في بداية الدعوة.

وقد روى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ إنه قال: «لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمححه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

وإنما نهى رسول الله ﷺ عن كتابة الحديث خوفاً من أن يختلط بالقرآن.

بل إن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، كرهما للناس كثرة الرواية خشية الكذب على رسول الله ﷺ، وخشية أن يصددهم ذلك عن القرآن الكريم، بل قد أخافهم عمر في ذلك ورهبهم منه^(٢).

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، الثبت في الحديث رقم ٣٠٠٤..

(٢) تاريخ الفقه الإسلامي، لمجموعة من أساتذة الشريعة بالأزهر، مراجعة وتهذيب الشيخ محمد السائس، ط ١٩٥٣، مطبعة واد الملوك، القاهرة.

ولم تدون أحاديث رسول الله ﷺ إلا في بداية القرن الثاني الهجري وذلك بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة من سنة ٩٩-١٠١هـ. حيث خاف على السنة من الضياع وكثرة الوضع للحديث وخاصة بعد أنقسام المسلمين بعد معركة صفين إلى سنة وشيعة وخوارج فخاف أن يختلط الحديث الصحيح بالحديث الموضوع.

وأقدم كتاب وصل إلينا جمعت فيه أحاديث رسول الله ﷺ كتاب «الموطأ» الذي وضعه الإمام مالك بن أنس المتوفى عام ١٧٩هـ.

وأما بالنسبة للسيرة فقد قام ابن إسحق بجمع سيرة رسول الله ﷺ بطلب من الخليفة المنصور لابنه المهدي. وقد جمع فيه تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام ثم اختصره بطلب من الخليفة المنصور، وكانت وفاته ما بين (١٥٠ - ١٥٣ هـ). وقد جمع فيه الغث والسمين وكثيراً من الأشعار الموضوعية وقد وثقه بعض العلماء وطعن فيه بعضهم كالإمام مالك وهشام بن عروة.

وقد قيض الله لهذا الكتاب عبد الملك بن هشام المتوفى سنة (٢١٨ هـ)، فجمع كتابه ودونه وتعقبه في كثير مما رواه ونقده واختصره وأضاف إليه واستبعد منه تاريخ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم عليهما السلام وغير هذا من ولد إسماعيل ممن ليسوا من آباء وأجداد رسول الله ﷺ، فجاءت سيرة ابن إسحق منسوبة لابن هشام، وغلب اسمه عليها فعرفت به. وإن فضله فيها لا يقل عن فضل ابن إسحق وهو أقدم كتاب وصل إلينا في السيرة النبوية.

وهناك كتب أخرى ألفت بعد ابن إسحق في السيرة ككتاب المغازي للواقدي المتوفى (سنة ٢٠٧ هـ)، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات المتوفى (سنة ٢٣٠ هـ).

وكان المشتغلون في السيرة أولاً محدثين ناقلين ثم جاء بعدهم جامعون محبوبون ولما استوى للمتأخرين ما جمع المتقدمون جاءت فكرة النقد والتعليق شأن ابن هشام في سيرة ابن إسحق^(١).

(١) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا ورفيقاه، المقدمة.

والواقع أن كتب السيرة والحديث أيضاً لا تخلو من الوضع فقد كثر الوضع بسبب الفتن التي وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه. ثم الفتنة الكبرى التي حصلت بين علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان، وظهور الفرق الدينية بعد ذلك فألف أعداء الإسلام ممن تظاهروا بالإسلام الجمعيات الدينية لوضع الحديث وكثر ذلك في كتب الحديث، وفي كتب التفسير الخاصة بالتفسير بالمأثور ككتاب ابن جرير الطبري وكتب السيرة واستهدف هؤلاء أصول الدين وفروعه.

ويدلنا على مبلغ الوضع في أواخر عصر الصحابة رضوان الله عليهم أن ابن عباس رضي الله عنه وهو الذي يُعرف عنه الرغبة في جميع الحديث والجد في طلبه يقول فيما يرويه عنه الإمام مسلم في مقدمة صحيحة: (إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يُكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه)^(١). نقول: إذا كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي عرف عنه الجد في طلب الحديث وجمعه وروايته عن رسول الله ﷺ ترك رواية الحديث وجمعه بسبب كثرة الوضع فما بالك ما حصل بعده من كثرة الوضع للحديث في عصر التابعين واتباع التابعين؟!.

وقد انبرى كثير من العلماء لبيان الحديث الصحيح من الموضوع، وظهر علم يعرف بعلم الحديث دراية وهو علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد. وقد بين علماء الحديث أن هناك أحاديث رويت لنا في السيرة غير صحيحة وبينوا عدم صحتها.

كما ألف الأستاذ الدكتور محمد الصادق عرجون كتابه في السيرة بعنوان «محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة بحث وتحقيق» وهو عبارة عن أربعة أجزاء كل جزء ينوف على ستائة صفحة جمع فيه ما روي عن رسول الله ﷺ، الصحيح والسقيم وبين بطلان كثير من الروايات التي وضعها أعداء الإسلام من الزنادقة

(١) مسلم، الصحيح، رقم الحديث (١٩).

المجوس واليهود والروم والتي تعرف عند العلماء بالإسرائيليات لكثرة ما وضع بنو إسرائيل في السيرة والحديث والتفسير من الأحاديث الموضوعة وقد اعتمدنا عليه في كتابنا وعلى غيره من كتب السيرة المعتمدة كسيرة ابن هشام، ونور اليقين وحياة محمد ﷺ لمحمد حسين هيكل، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي وغيرها من كتب السيرة المعتمدة. ولكثرة الروايات المختلفة والمتناقضة في كتب السيرة اعتمدنا على أصحها سنداً ومتناً بشرط ألا تتناقض مع العقيدة الإسلامية ولا تخالف ما ورد في القرآن الكريم.

كما اعتمدنا على ما ورد من سيرة رسول الله ﷺ في كتب الحديث كصحيح البخاري ومسلم والسنن الأربعة وغيرها كما صحح سنداً ومتناً.

وقد قسمنا الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: سيرة محمد ﷺ قبل البعثة.

الفصل الثاني: سيرته عليه الصلاة والسلام في مكة بعد البعثة.

الفصل الثالث: سيرته عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة المنورة.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأول

سيرة محمد ﷺ قبل البعثة

أسرة محمد ﷺ وخصائصها ومكانتها عند العرب.

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هاشم، بن عبد مناف بن قصي، من قبيلة قريش ويتسلسل نسبه عليه الصلاة والسلام إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ويرجع نسب عدنان في نهاية الأمر بإجماع المؤرخين إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإسماعيل هو أبو العرب المستعربة^(١).

وكان إبراهيم عليه السلام قد انتقل بزوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة بأمر من الله، حيث كانت مكة قد بنى فيها آدم عليه السلام أول بيت وضع لعبادة الله وهو الكعبة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَلَدًا مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢)، وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع على الأرض، فقال: المسجد الحرام. قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى فقلت: وكم بينهما قال: أربعون عاماً^(٣).

فالمسجد الحرام بناه آدم عليه السلام في مكة المكرمة كما ذكر القرطبي وغيره. ثم بُني بعد ذلك المسجد الأقصى في القدس بفلسطين.

(١) ينقسم العرب إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

الأول: العرب العاربة وهم أبناء يعرب بن قحطان.

الثاني: العرب البائدة وهم قوم عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها من الأقاليم العربية المنقرضة.

الثالث: العرب المستعربة وهم نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ومنهم سيدنا محمد ﷺ

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٦.

(٣) مسلم، الصحيح، ج ١، ص ٣٧٠، رقم الحديث (٥٢٠) طبعة دار إحياء التراث العربي، المحقق محمد

فؤاد عبد الباقي والبخاري الصحيح، المحقق محمد زهير دار طوق النجاة ١٤٢٢ هـ ج ٤ ص ١٤٥ رقم

الحديث (٣٣٦٦) بلغوا (كم كان بينهما).

والمسجد الأقصى الذي بناه آدم أول مرة قد هدم ودمر مراراً، كما حصل للكعبة وقد جدد بناءه أنبياء الله من بعده، وممن جدد بناءه سليمان عليه السلام وقد هدم في زمن حكم سلالة سليمان للقدس عدة مرات أيضاً، وجدد بناءه أنبياء الله من بعده، وكان قائماً في زمن عمران والد مريم أم عيسى في زمن زكريا ويحيى عليهما السلام. ولما فتح المسلمون القدس كان قد هدم وجعله الروم مكان مزبلتهم لأنه قبلة اليهود.

حتى أتى عمر بن الخطاب فقام بنفسه وبعض جند الإسلام بإزالة هذه الزبالة، وأعاد بناء المسجد الأقصى وأعاد له مكانته.

وكما تذكر الروايات ان ابراهيم عليه السلام وضع زوجته هاجر في وادٍ أجرد غير ذي زرع، هي وطفلها إسماعيل. فسألته: آله أمرك بهذا؟ قال ابراهيم عليه السلام. «نعم» ولم يزد. ثم ولى مسرعاً فقالت أذن لا يضيعنا^(١). فكان أن رزقها الله الماء في هذا الوادي المقفر فظهر بئر زمزم. حيث كان الناس يمرون في هذا الوادي فلا يجدون فيه أثراً للحياة. فلما ظهر ماء زمزم جاءت قبيلة جرهم فعاشت قرب هذا البئر، وشب إسماعيل وترعرع بين أطفال جرهم وشبابها عربياً خالصاً، إلى أن استوت رجولته. وجاء أبوه ابراهيم عليه السلام زائراً ولده. وبأمر من الله قام ابراهيم وولده إسماعيل بتجديد بناء الكعبة المشرفة على القواعد التي سبق أن بناها آدم عليه السلام بعد أن بين الله لهم ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾^(٢) فكانت بعثة سيدنا محمد هي استجابة لدعوة جده ابراهيم عليه السلام.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول عن نفسه: (أنا دعوة أبي ابراهيم وبشرى

(١) البخاري، الصحيح، رقم الحديث ٣٣٦٤ .

(٢) سورة البقرة ١٢٧ - ١٢٩ .

عيسى) ^(١) كما دعى ابراهيم عليه السلام ربه بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿٢﴾ فأمره الله سبحانه وتعالى أن ينادي في الناس بالحج وأن الله سيستجيب دعاءه ويسمعهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٣٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٣٧﴾ ﴿٣﴾.

واستجاب ابراهيم وإسماعيل لأمر الله وطهرا بيت ربهما الذي جعله مثابة للناس وأمناً، من رجس الوثنية، ونادى ابراهيم في الناس وأتوا من كل فج عميق ملين دعوة ربهم على لسان خليله ابراهيم. معظمين بيت الله يتداولون ذلك عصرًا بعد عصر وجيلاً وراء جيل، تحقيقاً لوعده الله بقبول دعاء ابراهيم وإسماعيل.

وتكاثر نسل إسماعيل حتى كانوا غمرة العرب وجهرتهم، وسادوا وتسيدوا وتشعبوا وتفرعوا. فملاؤا السهل والجبل ونزلوا الوديان والجبال.

بيد أنهم إذ كثر عددهم نسوا دعوة أبيهم ابراهيم وجهلوا منها الحقيقة الكبرى، حقيقة التوحيد، وأوغلوا في الوثنية وجعلوا من بنية ابراهيم وإسماعيل المطهرة متحفاً لوثنيتهم.

ومن نسل إسماعيل عليه السلام قصي أحد أجداد رسول الله ﷺ وكان قصي زعيم قبيلة قريش التي كانت تسكن مكة التي فيها المسجد الحرام. وكان لقصي في الجاهلية حجابة البيت ^(٤) وسقاية الحجيج وأطعمهم (وهي المسماة بالرفادة). والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة والرأي وكان لواء الحرب في يده.

وكان ولده عبد الدار أكبر أولاده ولكنه ضعيف الشخصية. وكان عبد مناف قد ساد في حياة أبيه

(١) الحاكم، المستدرک، رقم الحديث (٣٥٦٦).

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٣) سورة الحج الآية ٢٦ - ٢٧.

(٤) أي بيده مفاتيح الكعبة فلا يدخلها أحد إلا بإذنه.

وكذلك أخوته، فقال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم، فأوصى له بما كان له من مناصب السيادة والشرف. ولكن بني عبد مناف أجمعوا رأيهم على أن لا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين، فأعطوا لهاشم الرفادة والسقاية، وكان كبير قومه، ثم آلت إلى أخيه المطلب ثم إلى ابنه عبد المطلب جد رسول الله ﷺ. أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار وقد أفرها لهم الشرع الإسلامي فهي فيهم إلى الآن وهم بنو شيبه. وأما اللواء فدام فيهم إلى أن أبطله الإسلام، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين، يضعه فيمن أراد. وأما السقاية فانتقلت بعد وفاة عبد المطلب إلى ابنه العباس ثم إلى ذريته من بعده. وكان هاشم جد الرسول ﷺ، قد تزوج بسلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية، وكان هاشم قد ذهب بتجارة إلى بلاد الشام، فمات في غزة التي أصبحت تسمى غزة هاشم. فنشأ عبد المطلب عند أخواله بني النجار وكان اسمه شيبه لشيبه في رأسه، ولما كبر ذهب عمه المطلب فأحضره. وكان راكباً خلفه ولونه يميل إلى السمرة. فقالوا: هذا عبد المطلب. فقال ويحكم هذا ابن أخي هاشم، وقد غلب عليه اسم عبد المطلب.

وهاشم بن عبد مناف هو الذي خلف أباه في زعامة قريش، وهو أول من سن الرحلتين لتجارة قريش، وكان يرحل على رأس غيرها في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام وقد أمتن الله على قريش بهاتين الرحلتين فقال سبحانه: ﴿لَا يَلْفُ قَرْيَشٍ ۝١ إِيَّاهُمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ (١). كما أمتن عليهم في هذه السورة بنعمة الأمان التي كانوا ينعمون بها بقوله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا بَطِيلٌ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٢٧﴾ (٢).

أو لم ير كفار مكة أننا جعلنا بلدهم آمناً مصنوعاً لا ينهب ولا يقتل أحد في داخله، ويُسلَبُ

(١) سورة قريش.

(٢) العنكبوت ٦٧.

الناس وَيَسْبُونَ من حولهم؟.

كما أمتن عليهم في سورة القصص بنعمة هذا الأمان في داخل حرم مكة، وبأنه تحمل لهم الثمرات والخيرات المتنوعة الكثيرة، رزقاً يسوقه الله إليهم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾^(١).

وقد جاء جيش لغزو مكة وهدم بيتها المحرم، وقريش سادة البيت وصاحبة مجده، وعبد المطلب جدُّ رسول الله شريف قريش وسيدها. فما كان من قريش ولا لزعيمها عبد المطلب، القدرة على الوقوف في وجه هذا الجيش المهاجم، ليصدوه عن بلدهم وبيتهم.

وقد وقفت في وجهه قبائل من العرب التي مر بها في طريقه فعرفت وجهته وحاربتة وهزمتها، وتابع السير إلى هدفه، حتى دنا من مكة، وسمعت قريش وعبد المطلب بأخباره وعدده وعدته، فقالوا لا طاقة لنا بحربه، وأشار عبد المطلب على قومه بالخروج من مكة وإخلائها، حماية لهم من عبث جيش أبرهة الحبشي، وبعث أبرهة عندما قرب من مكة إلى أهلها يقول لهم: إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا إلي بحرب فلا حاجة لي بدمائكم.

وطلب سيد قريش وشريفها عبد المطلب بن هاشم فجاءه عبد المطلب، وكان أبرهة قد أخذ له مائتي بعير، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم فأجله أبرهة وأعظمه ونزل عن سريره، فجلس معه على بساط وقال له: حاجتك. فقال عبد المطلب حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال له أبرهة: لقد كنت أعجبتي حين رأيتك. ثم زهدت منك حين كلمتني. أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه. لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: أي أنا ربُّ الأبلِّ وإن للبيت رباً سيمنعه. قال أبرهة ما كان يمتنع مني. قال عبد المطلب: أنت وذاك، فردَّ عليه إبله. وانصرف عبد المطلب

(١) القصص ٥٧.

إلى قريش وأمرهم بالخروج إلى الشعاب والجبال تخوفاً عليهم، ثم قام عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة فقال:

لا هُمَّ (١) إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يَغْلِبَنَّ صَـلِيْبُهُمْ ومِحَاهِمُ غَدَواً (٢) محالك
أن يدخلو البلد الحرا م فأمر ما بدالك
وأنصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

ثم انطلق مع قومه ينتظرون أبرهة ما هو فاعل بمكة إن دخلها، فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة، وهياً جيشه، يقدمه أضخم أفياله، ثم وجهه إلى الحرم فسقط كالبارك، فضربوه ضرباً شديداً فلم ينهض، ووجهوه نحو اليمين وإلى كل جهة غير مكة فنهض يهرول، وأرسل الله عليهم طيراً يجيئهم جماعة أثر جماعة، ترميهم بحجارة من طين صلب، فأصابت مقاتلتهم، وخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة، فجعل جسمه يتناثر ويتساقط حتى أنصدع صدره، فمات بصنعاء.

وقد جاء الله بنصره وأنزل نعمته على أعداء حرمه وبيته، فعرف العرب لقريش هذه المكانة فقالوا: إنهم أهل الله وجيران بيته يحامي عنهم، وازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه، لأنه أنقذهم وصان حرمتهم، وتداول الناس الأحاديث عن عبد المطلب، وقد اتصل ذلك بحديث ميلاد حفيد عبد المطلب محمد ﷺ، ابن ولده الحبيب عبد الله، وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرة وتاريخ رسول الله ﷺ على صورة تجلت في الإمتنان عليه وعلى قومه وأمته، لما صنع الله له وليته العتيق، فصانه وصان أهل جواره من عبث الغزاة وفجورهم، ورد عليهم كيدهم في نحورهم، وأهلكهم هلاك استئصال، بما لم تجر به عادة الناس. فكان

(١) لا هُمَّ: أصلها اللهم.

(٢) غدواً: غداً وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك.

أرهاصاً لمولد رسول الله ﷺ في أوجز عبارته، وقد سجل القرآن الكريم هذه القصة بأروع تسجيل في سورة الفيل وأوضح أسلوب، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾^(١).

وفي خطاب رسول الله ﷺ في مفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريري التعجبي، وانصباب الاستفهام على الرؤيا وهو ﷺ لم يكن من شهود الحادث عند وقوعه، دليل على أن هذا الحادث، كان معروفاً ومشهوراً بشهود آثاره لدى الخاصة والعامة.

وفي أنصباب الاستفهام على رؤية كيفية فعل هؤلاء الطغاة دون أنصبابه على ذات الفعل أو أثره فقيل (ألم تر كيف فعل ربك) ولم يقل: (ألم تر ما فعل أو آثار ما فعل ربك) إشارة إلى تهويل الحادث، وإيداناً بوقوعه على كيفية وحالة هي فوق مستوى ما عهده الناس وجرت به عادة فيما بينهم من طرائق وقوع الأحداث.

وإضافة الفعل المعجب عن طريق وقوعه إلى الله بعنوان الربوبية المختصة بمحمد ﷺ، على ما تقتضيه الإضافة إلى ضمير الخطاب له خاصة دون ضمير غيره أو دون مشاركة معه، رمز إلى مزيد اختصاص هذا الحادث به، وأنه كان من أجله ومن أجل رسالته، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الله قدم هذا الحادث تشريفاً لخاتم أنبيائه وتعظيماً لشأنه، فهو مقدمة لنبوته عليها، وإرهاصاً لها وتأسيساً بوقوعها، أعلم الله بها نبيه ممتناً بها عليه عند تشريفه بدواعيها.

وفي حياة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ، مكرمة أخرى سوى قصة أصحاب الفيل، تعتبر من أعظم المكارم له، هي حفر بئر زمزم، فقد يسر الله على يديه حفر بئر زمزم فالماء هو أعز شيء، فقد كان عبد المطلب وقريش قاطبة على يقين أن بالحرم إلى جوار بيت جدهم ابراهيم بئر أبيهم إسماعيل، وهو عين لا تنزف أبداً!! وكان عبد المطلب أكثرهم تفكيراً في

(١) سورة الفيل.

ذلك، لأنه صاحب السقاية، مكرمه ومكرمة أبيه من قبله، وأبار مكة التي يستقي منها الماء للناس في الموسم متناثرة متباعدة.

فرأى في المنام مكانها، وقيل له في المنام، أحفر ذلك المكان. فلما كان الغد قام بمعوله ومسحاته ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذ ولدٌ غيره، فجعل عبد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمسحاة^(١) في المكتل^(٢). فيحمله الحارث ويلقيه خارجاً. فحفر ثلاثة أيام إلى أن بدا له الطوي^(٣)، فكبر وقال هذا طوي اسماعيل.

فبعد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر اسماعيل بن ابراهيم، واستخرج ما كان فيها مدفوناً، وهو غزالان من ذهب، وسبعة أسياف وخمسة أدرع^(٤).

فأستخرجها عبد المطلب فضرب الغزالين صفائح على باب الكعبة وعلق الأسياف على البابين. وجعل المفتاح والقفل من ذهب. وقد تزوج عبد الله بن عبد المطلب من أمنة بنت وهب، وحملت برسول الله ﷺ، وخرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام، مع عير قريش التي تحمل تجارتهم. ففرغوا من تجارتهم في بلاد الشام ثم أنصرفوا، فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار فهم أحوال أبيه، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله.

فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده «الحارث» فوجده قد توفي ودفن في يثرب، فرجع إلى أبيه فأخبره فحزن عليه عبد المطلب وأخوانه وأخواته حزناً شديداً. ورسول الله ﷺ حمل في بطن أمه. وهذا أبلغ اليتيم وأعلى مراتبه.

(١) المسحاة: المجرفة.

(٢) المكتل: القفة وهو ما يكال فيه..

(٣) طوي: البئر.

(٤) أدرع: جمع درع وهو ما يلبسه المقاتل أثناء الحرب.

ولادة محمد رسول الله ﷺ:

وُلد رسول الله ﷺ ببسر وبهجةٍ وضياءٍ نظيفاً حلوا الملامح، جميل المحيا. وقد ولدته أمه آمنة بنت وهب كما تلد الأمهات أبناءهن، وتلقته الشفاء أم عبد الرحمن الزهرية. كما تتلقى القابلات سائر الولدان. وقد بُشِّر به جده عبد المطلب، وفرح فرحاً شديداً، لأنه رأى فيه خلفاً عن أبيه عبد الله الحبيب، يرى في مطالعة محياه ذكريات الأبوة الحانية. فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة وقام عندها يدعو الله ويشكره على ما أعطاه. وقد شارك عمومة محمد عليه السلام أباهم الشيخ فرحته، بولادة ابن أخيهم عبد الله، الذي ذهب فلم يعد، وقد عمهم الفرح وشملهم البشر، فتصدقوا وأهدوا وأعتق عمه أبو لهب الجارية التي أخبرته بمولده.

تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثوية بولادة النبي ﷺ أعتقها^(١). وكانت بعد عتقها أول من أرضع رسول الله ﷺ مع عمه حمزة بن عبد المطلب^(٢)، قبل أن يسترضع في بني سعد، وشاركه في لبنها أبو سلمة. وكان النبي عليه السلام يبرها ويسأل عنها وعن أقاربها وفاء لها.

وقد صح من طرق كثيرة أن محمداً عليه السلام ولد يوم الاثنين لاثنتي عشر مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل^(٣) ويوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر آب - أغسطس سنة ٥٧٠ - ٢٠ / ٨ / ٥٧٠ م - من ميلاد المسيح عليه السلام.

ومكان ولادته معروف بمكة ومشهور، تقلبت عليه الأحداث حتى انتهى به الأمر إلى أن صار في العصر الحاضر داراً للحديث، حيث قامت التبرعات له سنة ١٣٧٠ هـ، ولا شك أن هذا المكان كان جزءاً من دار جده عبد المطلب.

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١ ص ٢٢٤.

(٢) الأصبهاني: دلائل النبوة، ص ١١٣، وابن كثير، السيرة النبوية ج ٣، ص ١٢٠.

(٣) الحاكم، المستدرک، رقم الحديث (٤١٨٢).

حيث انتقلت إليها آمنة وهي حامل به ﷺ، وقد عَقَّ عنه جده عبد المطلب في يوم سابعه فرحاً بمولده، فذبح عنه ودعا قريشاً. فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب، أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال: سميته محمداً. قالوا: فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يُحمدهُ الله في السماء وخلقه في الأرض^(١).

تنفس محمد عليه السلام نسيم الحياة يتياً، فقد مات عبد الله بن عبد المطلب ورسول الله ﷺ جنيناً في بطن أمه، وترك له خمساً من الإبل، وقطعة من الغنم، وجارية هي حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وقد أعتقها ﷺ وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة.

رضاعة محمد ﷺ:

كان من عادة أشرف مكة أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وإنتجاعاً لجو البادية صحة، وانطلاقاً بمظاهر الطبيعة في الأرض والسماء، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر من قبيلة هوازن، يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود محمد من نصيب حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب واسم زوجها الحارث بن عبد العزى من هوازن ويلقب بأبي كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ، حينما يريدون الاستهزاء به، فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء.

ودرت البركات على أهل ذلك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم، وبقي في بني سعد إلى أن صار عمره أربع سنوات في أصح الأقوال. وفي حياة محمد ﷺ الخاصة في بني سعد، ما يشغله عن صخب مكة وهوها العابث حول أحجارها وأوثانها.

وكان محمد أثناء ذلك يزور أمه مع مرضعته، فتضمه أمه إلى صدرها فتسكن نفسه، وتحدثه عن أبيه وأسرته وقومه وبلده بأسلوب مختصر، وبما يناسب سنه.

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢١٠.

كفالة جده عبد المطلب له:

لما عاد رسول الله ﷺ من بني سعد كفله جده عبد المطلب، وأغدق عليه كل حبه وأسبغ عليه جَمَّ رعايته. وكان يوضع لهذا الشيخ سيد قريش وسيد مكة كلها فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالاً لأبيهم، فإذا جاء محمد عليه الصلاة والسلام، أدناه عبد المطلب منه وأجلسه على الفراش معه، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمامه من تأخيره إلى حيث يجلسون.

وفاة أمه آمنة:

وزاد في اعتزاز الجد لحفيده ومحبته له، أن أمه آمنة خرجت بابنها وحاضنته إلى يثرب، لترى الغلام فيها أحوال جده من بني النجار، والمكان الذي مات فيه أبوه ودفن، فكان ذلك أول معنى لليتم أنطبع في نفسه، ولعل أمه حدثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة، ليجيئه أجله بين أخواله. فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام بعد هجرته إلى المدينة - فيما ترويه كتب السيرة - يقص على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه حديث محب للمدينة محزون لما تحوي القبور من أهله.

ولما تم مكثهم بالمدينة شهراً، أعتزمت أمه آمنة العودة، فركبت وأم أيمن ورسول الله ﷺ بعيريهما اللذين حملاهم من مكة، ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من المدينة، وقد بلغوا قرية الابواء مرضت آمنة مرضاً توفيت بسببه ودفنت بها، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحياً وحيداً، يشعر بيتهم ضاعفه عليه القدر، فازداد وحشة وألماً، وكان عمره ست سنين.

لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو ما يزال جنيناً، وها هو ذا قد رأى بعينه، أمه تذهب كما ذهب أبوه، وتدع جسمه الصغير يحمل همَّ اليتيم كاملاً.

وقد زاد ذلك في عطف عبد المطلب عليه، لشدة ألم اليتيم العميقة في نفسه، حتى وردت في القرآن، إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ﴾. ولعل جوى هذه الذكرى يخفف بعض الشيء لو أن جده عبد المطلب عمَّر أكثر مما عمر، لكنه مات ومحمد ما زال في الثامنة من عمره.

كفالة عمه أبو طالب له بعد وفاة جده:

حزن محمد عليه الصلاة والسلام لموت جده حزنه لموت أمه، حتى أنه كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه إلى مقره الأخير، وكان دائم الذكر له من بعده مع ما لقي من بعده في كفالة عمه أبي طالب من عناية ورعاية، ومن حماية أمتدت إلى ما بعد بعثته ورسالته.

والحق أن موت عبد المطلب كان على بني هاشم جميعاً ضربة قاسية فإنه لم يكن من ابنائه من كان في مثل مكانته عزماً وقوة أيد وأصالة رأي، وكرماً وأثراً في العرب جميعاً، ألم يكن يطعم الحجاج ويسقيهم، ويبر أهل مكة جميعاً إذا أصابهم شرٌّ أو أذى؟ وهاهم أولاء ابناؤه لم يصل أحد منهم إلى مكانته، إذ كان فقيرهم عاجزاً عن مثل عمله، وغنيهم حريصاً على ماله. لذلك ما لبث بنو أمية أن تهبأوا ليأخذوا المكانة التي طمعوا فيها من قبل دون أن يخشوا من بني هاشم مزاحمة تخيفهم.

وقد آلت كفالة محمد إلى أبي طالب وان لم يكن أكبر أخوته سناً، فقد كان الحارث أسنهم، وإن لم يكن أكثرهم يساراً. وكان العباس أكثرهم مالاً لكنه كان على ماله حريصاً، لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرفادة.

فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانه وإحتراماً، ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده. فكفله أبو طالب شقيق والده، وكان به رحيماً وعليه غيوراً، وأحبه حباً شديداً لا يجبه والد لولده.

سفر محمد ﷺ أول مرة إلى الشام:

وكان أبو طالب على غرار أسلافه من بني عبد مناف يشتغل بالتجارة، ورحل في غير قريش وقوافلها في رحلاتها إلى الشام واليمن، ويظهر أنه كان قليل الحظ في الربح، ولما بلغ محمد ﷺ اثنتي عشر سنة كان عمه يتهبأ للرحيل في تجارته إلى الشام، فتعلق به ليأخذه معه، ورَقَّ له أبو طالب وأصطحبه معه، وهذه هي الرحلة الأولى إلى بلاد الشام.

وتروي كتب السيرة^(١) بأنه لما بلغ بصرى الشام جنوب سوريا في محافظة درعا التقى بالراهب بحيرى، وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوة على ما عرفه من كتب النصرانية. وتذهب بعض الروايات، على أن الراهب نصح أهله أن لا يوغلوا به في بلاد الشام، خوفاً عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الأمارات فينالوه بالأذى. ولما أصبح عليه الصلاة والسلام شاباً، أخذ يعتمد على نفسه، فعمل في أوائل شبابه راعياً للغنم لبعض أهل مكة، وذلك بقراريط يأخذها أجراً على ذلك، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (ما من نبي إلا قد رعى الغنم) قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال «وأنا»^(٢). وفي رواية أخرى أنه قال: « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فأجاب: وأنا رعيته لأهل مكة على قراريط^(٣).

حضوره حلف الفضول:

ولما كان في العشرين من عمره دعا عمه الزبير بن عبد المطلب إلى عقد حلف لنصرة المظلوم، فاجتمعت له بنو هاشم، وزهرة، وتيم، في دار عبد الله بن جدعان تحالفوا وتعاهدوا إلا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى ترد إليه مظلمته. وقد حضر هذا الحلف رسول الله مع أعمامه وقال بعد أن شرفه الله برسالته: (لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به من حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت)^(٤) وذلك لأن فيه دعوة لإنصاف المظلومين وقد قال عليه السلام: (إنها بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٥).

رحلته إلى الشام بتجارة خديجة ثم زواجه منها:

ولما بلغ من عمره خمسة وعشرين عاماً عمل لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها في التجارة بها على أجر تؤديه إليه.

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢١٠.

(٢) مالك، الموطأ رقم الحديث (١٧٤٦)

(٣) البخاري الأدب المفرد، رقم الحديث (٥٦٧).

(٤) البخاري الأدب المفرد، رقم الحديث (٥٦٧).

(٥) الحاكم المستدرک، رقم الحديث (٤٢٢١).

فقد عرف عليه الصلاة والسلام في شبابه بين قومه بالصادق الأمين، وأشتهر بينهم بحسن المعاملة والوفاء بالوعد واستقامة السيرة، وحسن السمع، مما رغب خديجة في أن تعرض عليه الاتجار بها في القافلة التي تذهب إلى بلاد الشام كل عام، على أن تعطيه ضعف ما تعطي الرجل من قومها، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها تضاربهم إياه بشئ يجعله لهم.

وبعثت معه غلاماً لها يقال له ميسرة فخرج في مالها حتى قدما الشام^(١)، فلما عاد إلى مكة، أخبرها غلامها ميسرة بأمانته وإخلاصه، ورأت الربح الكثير في تلك الرحلة، فأضعفت له من الأجر ضعف ما كانت اسمت له.

كما حملها ذلك على أن ترغب في الزواج منه، فقبل أن يتزوجها وهو أصغر منها بخمسة عشر عاماً، حيث كان عمرها أربعون سنة.

وأفضل شهادة له بحسن الخلق قبل النبوة قول خديجة له بعد أن جاءه الوحي في غار حراء وعاد مرتعداً: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل - أي الضعيف - وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(٢).

تحكيمه في وضع الحجر الأسود في مكانه:

عرف عنه عليه الصلاة والسلام منذ إدراكه رجحان العقل وأصالة الرأي. فلما بلغ عمره خمسة وثلاثين عاماً، جاء سيل جارف فصدّع جدران الكعبة، فقامت قريش بهدمها وبنائها على القواعد التي بنى عليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على اعتاقهم، وكان رسول الله ﷺ، يحمل الحجارة مع أعمامه، ولما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود فيها اختلف أشرافهم فيمن يضعه في مكانه، واشتدّ النزاع حتى كاد أن يقع بينهم قتال، ثم اتفقوا على أن يحكم بينهم أول داخل من باب بني شيبه، فكان هو رسول الله ﷺ فلما رأوه

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٩.

(٢) البخاري، الصحيح، ج ١، ص ٧، رقم الحديث (٧) تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعه أولى (١٤٢٢هـ).

قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه، فلما أُخبر بذلك، حل المشكلة بين جميع المتنازعين، فبسط رداءه، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم أمرهم أن يأخذ كل بطن من بطون قريش بطرف الرداء، فلما رفعوه وبلغ الحجر موضعه أخذه، فوضعه بيده مكانه فرضوا جميعاً^(١)، وصان الله بوفور عقله وحكمته دماء قبيلة قريش من أن تسفك دماؤهم إلى مدى لا يعلمه إلا الله.

وكان محمد عليه الصلاة والسلام في حياته قبل البعثة أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقاً وأكثرهم أمانة، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال، لم يشارك أقرانه من شباب مكة في لهوهم، ولم يشارك قومه في عبادة الأوثان، ولا أكل شيئاً مما ذبح لها، ولم يشرب خمرًا ولا لعب قماراً ولا عرف عنه فحشٌ في القول، فقد عصمه الله من ذلك قبل البعثة، وبهذا كانت شخصيته هي النموذج الأعلى للكمال الإنساني.

حياته بعد زواجه:

وكان محمد عليه الصلاة والسلام في الفترة التي تقع بين زواجه وبعثته، يتسبب لمعاشه بالتجارة على نهج قومه فيها، يباشر بنفسه في الأسواق الداخلية، ويؤاجر عليها أهل المعرفة في الرحلات الخارجية إلى اليمن والشام، وقد دفع مالاً لأبي سفيان في سفره إلى اليمن، ولما قدم إلى مكة بعد سفره إلى اليمن، فيقول أبو سفيان: فبينما أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون علي ويسألوني عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبد الله - وهند عندي تلاعب صبياتها - فسلم علي ورحب بي وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام فقلت لهند والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألتني عنها وما سألتني هذا عن بضاعته، قال أبو سفيان: فبينما أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا، وكان فيها خير، فأرسل من يأخذها، ولست آخذ منك فيها ما أخذه من قومي، فأبى علي، وقال: إذن لا آخذها، فقلت فأرسل إلي من يأخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلي من

(١) الإمام أحمد، المسند، رقم الحديث (١٥٥٠٤)، قال عنه المحقق شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح ورجاله ثقات، مؤسسة الرسالة ط (٢٠٠١م).

أخذها، وأخذت منه ما أخذ من غيره^(١).

وكان عليه الصلاة والسلام، كلما تقدمت به الحياة في هذه الفترة أزداد أنطواءً عن حياة الناس، وحبب إليه الاعتزال والتنسك، فكان يتنسك في غار حراء في شهر رمضان، يفكر في جلال الوجود وعظمة الكون، ويتأمل فيما حوله من حال قومه، وإغراقهم في وثنياتهم، فكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، حتى إذا قضى تحته نزل، فطاف بالبيت، ثم ألم بأهله، وتزود لمثلها، وعاد إلى معتكفه، يتعبد بالتفكير في آيات الله الكونية، والتأمل في مناظر الطبيعة، ودلائل الإبداع الإلهي في نظام الوجود وسيره على سنن متناسقة مقدره، تدل على حكمة التدبير. وبقية كذلك حتى جاءه الحق، وبعثه الله رسولاً إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، على رأس الأربعين سنة من عمره الشريف المبارك.

وكان قد ولد من أبوين في أعز أرومة قرشية، ومنحه الله تعالى قبل البعثة من فضائل الإنسانية في خلائقه وخلقه، فكان بها أكمل البشر إنسانية، وأرفعهم في فضائلها فضيلة، وأشرفهم في أمجادها مجداً وشرفاً، وأزكاهم نفساً، وأطهرهم قلباً، وأصفاهم روحاً وأعلاهم مكانة.

(١) محمد رسول الله منهج ورسالة - بحث تحقيق محمد الصادق ابراهيم عجون ج ١ صفحة ٢١٤ طبعة دار القلم، دمشق.

الفصل الثاني

سيرته عليه الصلاة والسلام في مكة بعد البعثة

بدء نزول الوحي:

لما كمل له ﷺ أربعون سنة، أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته وبعثه إلى خلقه، وأختصه بكرامته، وجعله رحمة لعباده ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وذلك في (٦ آب - أغسطس ٦/٨/٦١٠م) في رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة.

وكان أول ما بدء به الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح^(١)، وذلك لما جرت به سنة الله في خلقه في التدرج في الأمور كلها، حتى تصل إلى درجة الكمال. ومن الصعب جداً على البشر تلقي الوحي من الملك لأول مرة. فقد كان عليه الصلاة والسلام يقضي الليالي بغار حراء ويأخذ لذلك زاده، فإذا رجع إلى خديجة رضي الله عنها، يتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له ملك وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة، ثم قال: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، فإنه عليه السلام أُمي لم يتعلم القراءة، فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام فيه، حتى بلغ منه الجهد^(٢) ثم أرسله فقال: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، فأخذه فغطه الثالثة^(٣)، ثم أرسله فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة، وأول وحي من القرآن. وفزع منه رسول الله ﷺ، فإنه لم يعهده ولم يسمع به من قبل.

(١) فلق الصبح أي ضياؤه.

(٢) الجهد: بفتح الجيم يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة وبضم الجيم على الوسع والطاقة لا غير.

(٣) البخاري، الصحيح، ج ١، ص ٧، رقم الحديث (٣)، تحقيق محمد زهير طبعة أولى ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

فقوله عليه الصلاة والسلام في المرة الأولى ما أنا بقارئ، فما هنا نافية فالمعنى يكون، ما انا بعارفٍ للقراءة ولا مارستها قط، لأنني أمي. وذلك كما جاء صريحاً في بعض الروايات (ما أحسنُ أن أقرأ) ^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام في المرة الثانية ما أنا بقارئ، فما هنا استفهامية أي أخبرني أي شيء أقرأ، فقد جاء في بعض الروايات (ماذا أقرأ) ولفظ (ما) في إجابة النبي ﷺ في المرة الثالثة بقوله (ما أنا بقارئ استفهامية، بمعنى كيف، فهي استخبارية عن الحالة التي يكون بها النبي ﷺ قارئاً، لأن تحقيق القراءة منه بعيدٌ جداً عن حالته التي ولد عليها ونشأ بها. فهو أمي لم يباشر القراءة في حياته قط ولا يعرفها، فكيف يحققها استجابة لطلب طالبها. وقد جاءت العبارة بالاستفهام الصريح بكيف، في حديث أبي بكر بن حزم الذي أخرجه أبو بشر الدؤلي، فقد جاء فيه أن جبريل استعلن له وبشره بإصطفاء الله له رسولاً إلى العالمين حتى اطمأن، ثم قال له: أقرأ. فقال: كيف أقرأ ^(٢) ولهذا جاء الملكُ عليه بعد هذه المرة مبيناً له الحال التي يكون بها قارئاً مع بقاء أميته. فقال له: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم. وهذا رد مناسب للاستفهام عن الحالة التي يصير بها النبي ﷺ قارئاً بعد بيان أنه لا يعرف القراءة ولم يباشرها قط في حياته. ومعنى الرد بهذه الآيات وليس فيها ما يقرأه النبي ﷺ استجابة لطلب القراءة المطلق، كن قارئاً إعجازاً، وحقق القراءة وأنت على أميتك، مستعيناً باسم ربك الذي ربّك وأعدّك لرسالته الخالدة، وليس قراءتك المطلوبة منك أن تقرأ كما يقرأ غيرك متعلماً وإنّما أن تقرأ كما يعلمك الله بعلمه، الذي ربّك في أحضان كرمه وهو جلّ جلاله كما علم الإنسان بقلم البيان تعلماً، سيعلمك بقلم الفضل والإحسان، لتكون معلم الدنيا برسالتك الخاتمة لرسالات السماء ^(٣).

(١) الغيثي، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث ج ١، ص ٥٤.
(٢) أحمد، المسند، تحقيق أحمد شاكر، دار الحديث القاهرة، طبعة أولى (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، قال عنه المحقق بإسناده صحيح، ج ٤، ص ١٤٩، رقم الحديث (٤١١٨).
(٣) محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة، بحث وتحقيق محمد صادق عرجون ج ١ ص ٢٥٧-٢٥٨ دار القلم.

فهذه الآيات الخمس من سورة العلق تأمر النبي ﷺ أن يقرأ ما يوحى إليه من القرآن مستعيناً باسم ربه الذي له وحده القدرة على الخلق، فقد أوجد الإنسان الكامل الجسم وركب فيه سمعه وبصره وإحساسه من قطعة متجمدة تعلق بجدار الرحم. وهو الذي علم الإنسان الكتابة بالقلم ولم يكن يعلمها، علم الإنسان أشياء لم تكن تخطر على باله.

وكانت قد طالت فترة عهد العرب بالنبوة والأنبياء وذلك من زمن ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبعد نزول الوحي عليه خاف على نفسه ورجع إلى بيته عند خديجة رضي الله عنها ترتعد فرائصه فقال: (زملوني زملوني)^(١) فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة رضي الله عنها: أيّ خديجة مالي؟ لقد خشيت على نفسي، وسألت خديجة رضي الله عنها عن السبب فقصّ عليها القصة وكانت عاقلة فاضلة سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة، وكانت تزور ابن عمها ورقة ابن نوفل - وكان قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل - وكانت تنكر على أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة.

وكانت أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ لمكانها منه، وإطلاعها على سرّه وعلايته، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ وشماله ما يؤكد أنه المؤيد من الله، المصطفى من خلقه المرضي في سيرته لا يخاف عليه من الشيطان، أو أن يكون به مس من الجن فقالت في ثقة وإيمان وفي قوة وتأکید:

«كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام، ولا مرأ أن الله اختارك لهداية قومك^(٢)».

وقد قالت ذلك خديجة اعتماداً على العقل السليم والفطرة الصحيحة، ومعرفتها للناس، ولتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تثبت ممن له خبرة بالديانات، والنبوات وسننها، ومعرفة بأهل

(١) مسلم، الصحيح، ج ١، ص ١٣٩، رقم الحديث (١٦٠)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث.

(٢) البخاري، الصحيح، طبعة أولى (١٤٢٢ هـ).

الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء وعلمهم. فانطلقت به حتى أتت ورقة ابن نوفل ابن عم لها، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن العم أسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره عليه السلام خبر ما رأى. فقال ورقة: (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي نزل الله على موسى - لأنه معروف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل - ثم قال يا ليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) إذ يخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها لمعادتهم إياك، وكراحتهم لك، حينما تطلبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها أباؤهم، فاستغرب عليه الصلاة والسلام ما نسب لقومه مع ما يعلم من حبهم له، لاتصافه بمكارم الأخلاق، وصدق القول، حتى سموه بالأمين وقال: أو مخرجي هم؟ قال لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي^(١)).

قال الله تعالى في ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾^(٢) ولتنام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه السلام قال: وإن يدركني يومك (أنصرك نصراً مؤزراً) (معضداً) فورقة بن نوفل قال ذلك لرسول الله ﷺ لأنه يعلم علم اليقين بأنه سوف يبعث رسولاً من بعد موسى وعيسى عليهما السلام، وذلك كما ورد في التوراة والإنجيل حيث بين الله تعالى في القرآن الكريم في سورة الأعراف ما يدل على ذلك بقوله: ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٣) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٤) .

(١) البخاري، الصحيح، ج ٩، ص ٢٩، رقم الحديث (٦٩٨٢)، تحقيق محمد زهير، دار طوق النجاة، ط ١ (١٤٤٢هـ).

(٢) سورة إبراهيم آية ١٣.

(٣) سورة الأعراف الآيات (١٥٦ - ١٥٧).

وقد ذكر في التوراة والإنجيل صفات النبي محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام
 ودليل ذلك قول الله تعالى في سورة الفتح: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
 بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ
 فِي التَّورَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ
 لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ (١).

فلذلك كان اليهود في المدينة يترقبون ظهور رسول الله وكانوا يتوعدون الأوس والخزرج به
 ويقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان ممكن نقاتلكم معه قتل عاد وشمود وإرم وفي ذلك قول الله
 تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
 كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ (٢).

فقد كان كلام اليهود للأوس والخزرج بظهور هذا النبي من أسباب سرعة استجابتهم
 لدعوة رسول الله عليه الصلاة والسلام حين دعاهم إلى الإيمان برسالته، حيث أن بعضهم قال
 لبعض إنه للنبي المنتظر الذي كانت تتوعدكم به اليهود فلا يستبقونكم إليه، فأمنوا به وصدقوه.

وقد أخبر القرآن الكريم بأن علماء أهل الكتاب يعرفون النبي محمد ﷺ من صفته التي
 وردت في كتبهم كمعرفتهم ابناءهم، ولكن أكثرهم يخفون هذا الحق اتباعاً للهوى وبغضاً
 وتعصباً باطلاً لملتهم وحفاظاً على سلطانهم ومراكزهم وحسداً منهم، لأنه لم يكن من قومهم.
 وقد آمن برسول الله ﷺ عدد قليل من اليهود بلغ عددهم (٢٩) تسعة وعشرون رجلاً (٣)،
 وكان على رأس هؤلاء بعض أحبارهم وعلمائهم منهم عبد الله بن سلام.

كما آمن برسول الله عليه الصلاة والسلام وفد من نصارى نجران، قدم إليه وهو في مكة بعد
 خروجه من شعب أبي طالب بعد انتهاء مقاطعة قريش لهم حين بلغهم خبر بعثته وذلك ليتحققوا

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٨٩).

(٣) السيرة النبوية للسيد أبي الحسن الندوي ص ٢٣١.

من صفاته ومطابقتها ما جاء عنه في كتبهم وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك، فقابلوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وبين لهم ما يدعو إليه، وقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل ما رأيت ركباً أحق منكم! أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصباتم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، وقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَتَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ يُثَلِّى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴿١﴾.

وعلى الرغم مما دخل على التوراة والإنجيل من تغيير وتحريف وحذف، إلا أنها لم تخلوا

من إشارات وبشارات نبوة محمد ﷺ.

(١) سورة القصص الآيات ٥٢ - ٥٥.

بشارة التوراة والإنجيل بمحمد ﷺ:

فبالنسبة للتوراة:

١- جاء في سفر التكوين في الإصحاح (١٧) الفقرة (٢٠): وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه فهذا أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، اثنا عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة. وفي بعض النسخ: «وأكثره باذمار» وإسماعيل هو الجد الأعلى للنبي عليه الصلاة والسلام وابن ابراهيم عليه السلام والمعنى العربي (ذمار) العبرية هو (محمد).

٢- وجاء في سفر التثنية من التوراة الإصحاح (١٨) الفقرات (١٨ - ٢٠) مخاطباً الرب موسى: «أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يستمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه (أحاسبه)، وأما النبي الذي يُطغي، فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصيه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي»^(١).

وجاء في نسخة أخرى مترجمة: «سأقيم لهم من بين شعبهم نبياً مثلك أضع كلامي في فمه فيبلغهم كل ما أقوله له، ومن لم يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أحاسبه، وأما الذي يدعي أنه نبي ويقول كلاماً باسمي وأنا لم أمره أن يتكلم أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيجب أن يقتل».

فالمقصود من كون النبي من وسط أخوتهم أنه ليس من بني إسرائيل بل من بني إسماعيل فهم أخوتهم لأن أولاد إسماعيل وأولاد إسرائيل (يعقوب) هم جميعاً ذرية ابراهيم، فهم إخوة لأب واحد، ويدل على أن هذا المعنى هو المراد ما جاء في السفر المذكور وهو سفر التثنية، الإصحاح (٣٤) فقرة (١٠): «ولم يبق بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه» والتشبيه

(١) ما نقلناه من سفر التكوين والتثنية هو من الكتاب المقدس - العهد القديم، ترجمة وتصدير دار الكتاب المقدس، الشرق الأوسط، وأما عبارة أنا أحاسبه فقد جاءت في كتاب بعنوان (الكتاب الشريف التوراة والمزامير وصحف الأنبياء والإنجيل الشريف) طباعة دار الكتاب الشريف - بيروت - لبنان، ٢٠٠٥.

لهذا النبي الموعود بموسى يفيد أن هذا النبي آتٍ بشريعة جديدة كما أتى موسى بشريعة جديدة، فجميعهم على شريعة التوراة وكان السيد المسيح عليه السلام يعمل بها وأتباعه من بعده ينهجون نهجه، فتعين أن يكون هذا النبي من وسط إخوتهم ويكون مثل موسى في الإتيان بشرع جديد هو محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤكد ذلك أيضاً ما نقلناه عن الترجمة للكتاب المقدس المعنون (بالكتاب الشريف) (سأقيم لهم من بين شعبهم نبياً مثلك)، فهذه العبارة تدل دلالة قاطعة على أنه من غير إسرائيل، وأن المراد بإخوتهم أولاد إسماعيل والذي من ذريته محمد عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك رد على اليهود الذين يزعمون أن هذه البشارة ليوشع بن نون كما أن في الفقرة (١٨) المذكورة سابقاً بصيغة «سوف أقيم» وذلك يدل على الاستقبال، ويوشع بن نون كان حاضراً عند موسى عليه السلام وهو فتاه (أي فتى موسى) ولما مات هارون عليه السلام أصبح يوشع وصي موسى والقائم بالأمر من بعده وهو من أنبياء نبي إسرائيل في ذلك الوقت، كما أنه لم يأت بشريعة جديدة.

كما يزعم النصارى أن هذه البشارة للسيد المسيح عليه السلام، وهذه البشارة لا تنطبق عليه لأنهم يزعمون بأنه إله أو ابن إله وهو مؤلف في زعمهم من ناسوت ولاهوت فلا يتحقق فيه البشارة، وهو من بني إسرائيل نسبة لأمه وليس من إخوة نبي إسرائيل.

كما أن في قول الرب لموسى «مثلك» فعيسى عليه السلام لم يكن مثل موسى عليه السلام لأنه ليس صاحب شريعة كاملة مستقلة كما تشهد بذلك أناجيلهم الأربعة؛ ففي إنجيل متى على سبيل المثال الإصحاح الخامس عشر الفقرة (١٧): «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل».

فلذلك يأخذ النصارى معظم أحكامهم من العهد القديم الذي يعتبرونه كتاباً مقدساً. وبهذا يظهر لكل باحث منصف أن البشارة تصدق على محمد بن عبد الله ﷺ^(١).

(١) وهناك أدلة أخرى وإشارات ما زالت باقية في العهد القديم من الكتاب المقدس، والعهد الجديد ذكرها المحققون تدل على بعثة النبي عليه السلام يطول ذكرها وقد وردت في كتاب إظهار الحق تأليف رحمه

وبعد أن بشره ورقة بن نوفل بإن الذي نزل هو الناموس أي الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام فتر الوحي ولم ينزل مرة ثم تتابع نزول القرآن عليه.

ثم لم يلبث ورقة أن توفي. وفتّر الوحي عن الرسول الكريم ﷺ، ثم تتابع، وبدأ القرآن ينزل، أو جاءه الوحي ونزل عليه سورة الضحى وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ١
وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَرَضَىٰ ٥ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَغَاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا نَقَهَرَ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَنْهَرُ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ۝

والمدة التي فتر فيها نزول الوحي أياماً، ليستد شوق الرسول عليه الصلاة والسلام له وقد اختلفت الروايات في مقدار المدة، قال الأستاذ محمد الصادق عرجون: فالتحقيق أن مدة فتور الوحي التي كانت بين نزول ﴿ أَقْرَأُ ﴾ ونزول ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَدِينَةُ ﴾ كانت «أياماً»، كما مال ابن حجر إلى هذا القول، بل جزم في تفسيره سورة الضحى أنها ثلاثة أيام فقط، حيث نزلت الآيات الخمس من سورة العلق، وبعد أيام قليلة نزلت خمس من آيات سورة المدثر أيضاً حيث نزل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَدِينَةُ ١ قُرْ فَأَنْذِرْ ٢ يَا أَيُّهَا الْمَتْلَفُ بِثِيَابِهِ قَمٍ مِنْ مَضْجَعِكَ فَحَدَّرَ النَّاسَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَتْرَكُوا عِبَادَةَ التَّمَاثِيلِ وَالْأَصْنَامِ ٣ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ٤ وَخَصَّ رَبُّكَ بِالْعَظِيمِ وَلَا تَشْرِكْ مَعَهُ أَحَدٌ ٥ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٦ وَطَهَّرْ ثِيَابَكَ بِالْمَاءِ مِنَ النَّجَاسَةِ ٧ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٨ أَيَّ اهْجُرْ أَسْبَابَ الرَّجْزِ وَهُوَ الْعَذَابُ بِأَنْ تَطِيعَ اللَّهَ وَتَنْفِذَ أَمْرَهُ ٩ وَلَا تَمَنَّ نَسْتَكْبِرُ ١٠ وَلَا تَعْطُ أَحَدًا مَسْتَكْبِرًا لَمَّا تَعْطِيهِ آيَاهُ ١١ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ١٢ أَيَّ اصْبِرْ عَلَى مَا سَيَلْحَقُكَ مِنْ أَدَى قَوْمِكَ حِينَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ.

الله بن خليل الرحمن الهندي، وكتاب عيسى يبشر بالإسلام تأليف البروفيسور عطا الله ترجمة وتعريف فهجي شما.

بدء الدعوة:

قام عليه الصلاة والسلام بالأمر ودعا لعبادة الله وترك عبادة الأصنام والأوثان التي كان يعبدها أبائهم فأستجاب له ذووا العقول السليمة وبادروا إلى تصديقه. وكانت دعوته في أول الأمر سراً.

لقد رأى رسول الله ﷺ أن الحكمة تقتضيه في أول خطوات سير دعوته أن لا يسرع إلى مخالفة مجتمع قومه المتعزز في وثنيته، وأن لا يجهر لهم بتبليغ رسالته إليهم. فآثر أن تكون الخطوة الأولى في سير رسالته هي الأستسار بالدعوه والإستخفاء في التبليغ في مطلع سير دعوته وأن يدعو من يأتي إليه ويرى في قلبه نور الفطرة الأصيلة، ليتخذ لها أرضاً صلبة يقف عليها في كفاحه ونضاله، وهي مرحلة تأسيس وإعداد وتربية.

وقد كان أول من آمن به: زوجته خديجة - رضي الله عنها - وكانت بجواره تؤازره وتثبته وتهون عليه أمر الناس، وثاني من أسلم ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان مقيماً عنده، ويقوم بأمره، لأن قريشاً أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مقلاً كثير الأولاد، فقال عليه السلام لعمه العباس بن عبد المطلب: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه لنخفف عليه من عياله تأخذ واحداً وأنا آخذ واحداً، فأخذ العباس جعفر، وأخذ عليه السلام علياً. فكان في كفالتة كأحد أولاده، وقد كرم الله وجهه فلم يسجد لصنم قط، ولم يتدنس بدنس الجاهلية، وكان قد ناهز الاحتلام. وكان ثالث من أسلم زيد ابن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام، وهو عربي يرجع نسبه إلى يعرب بن قحطان، وكان قد أختطف كعادة أهل الجاهلية. وبيع في سوق عكاظ، فأشتراه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ.

وعلم أبوه بوجوده في مكة، عند رسول الله ﷺ، فقدم أبوه وعمه إلى مكة وذهبا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: يا ابن عبد المطلب يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني وتطعمون الأسير، جئناك في ابنتنا عندك، فامنن علينا وأحسن إلينا في

فدائه، قال النبي ﷺ مَنْ هو قالا زيد بن حارثة، فقال ﷺ لهما: أو غير ذلك قالا: ما هو؟ قال ﷺ: «أدعوه فأخبره فإن أختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن أختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني أحداً» قالا: أحسنت وزدتنا على النصف، فدعاه النبي ﷺ فقال له: أتعرف هؤلاء قال زيد: نعم هذا أبي، وهذا عمي، فقال النبي ﷺ: فأنا من عَلِمْتَ ورأيتَ صحبتي لك، فأخترني أو اخترهما» قال زيد ما أنا الذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم، فقال أبوه وعمه كعب: ويحك يا زيد، أختار العبودية على الحرية، وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك!! قال زيد: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجته إلى الحجر فقال: «يا من حضر، اشهدوا أن زيدا ابني، يرثني وأرثه» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما فأنصرفا، ودعي زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فنزلت ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) هو أقرب للتقوى فدعي يومئذ زيد بن حارثة.

فكان إسلام هؤلاء شهادة أقرب الناس إليه، وأعرفهم به وبصدقه وإخلاصه وحسن سيرته، وأهل البيت أدرى بها فيه.

وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة - رضي الله عنه - كان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق، ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا، أخبره برسالة الله فأسرع بالتصديق وقال: بأبي أنت وأمي، أهل صدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. كان رضي الله عنه صدرًا معظماً في قريش، على سعة من المال محبباً في قومه، حسن المجالسة، قال رسول الله ﷺ في حقه: (ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئته الله به يوم القيامة)^(٢)، وكانت الدعوة إلى الإسلام سراً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا،

(١) سورة الأحزاب ٥.

(٢) الترمذي، السنن، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد ابراهيم عطوه، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي طبعة ثانية (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م) ج ٥، ص ٦٠٩، ص ٣٦٦، وقال عنه: ((حديث حسن غريب من حسن الوجه)).

فيصعب استسلامهم، وذلك بترك ما كان يعبد إباؤهم، فكان عليه السلام لا يدعو إلا من يثق به. ودعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام وكان شاباً لا يتجاوز الإحتلام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الذي عندما علمت أمه حمنة بنت أبي سفيان بإسلامه قالت له: يا سعد بلغني أنك قد صبأت، فو الله لا يظلني سقف عن الحر والبرد، وإن الطعام والشراب علي حرام، حتى تكفر بمحمد، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه أمر أمه فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) فوصاه جل ذكره بوالديه وأمره بالإحسان إليهما وطاعتها مؤمنين كانا أو كافرين، أما إذا دعواه للإشراك بالله فلا يطعها، وإلى الله مرجع الخلق كافة فينبئهم بما عملوا في الدنيا ويجزيهم به، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومنهم طلحة بن عبيد الله وهؤلاء من عائلات أشرف أهل مكة.

ومن السابقين للإسلام عبد الله بن مسعود، وكان يرعى الغنم لبعض مشركي قريش، فلما رأى ما يدعو إليه رسول الله من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله ﷺ. ومنهم عمار بن ياسر، وكذلك أسلم أبوه وأمه سمية، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، ومنهم أبو ذر الغفاري وكان من أعراب البادية، فقال له النبي: إرجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرائهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقام القوم فضربوه حتى أوجعوه، وأتى العباس فأكب عليه وقال: ويلكم، أستم تعلمون أنه من عفار؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه! فأنقذه منهم، ثم عاد إلى الغد لمثلها، فضربوه وثاروا عليه، فأكب العباس عليه^(٢). وكان - رضي الله عنه - من أصدق الناس قولاً، وأزهدهم في الدنيا.

(١) سورة العنكبوت آية ٨.

(٢) الغيتابي، عمده القارئ شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٧، ص ٤، رقم الحديث (٣٨٦١).

ومنهم خباب بن الأرت، وسعيد بن زيد العدوي القرشي، وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وأم الفضل لبابة بنت الحارث، زوج العباس بن عبد المطلب، وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سلمة بن عبد الله المخزومي وزوجه أم سلمة، وعثمان بن مظعون، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية. وكان أبوه سيد قريش، وكان خالد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية فأدركه رسول الله ﷺ وخلصه منها، فجاء وقال إلامَ تدعو يا محمد؟ قال أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا ينفع، فأسلم -رضي الله عنه- وحينئذ غضب عليه أبوه وآذاه، حتى منعه القوت، فانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويعيش معه، ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد.

وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في دين الإسلام، ولم يكن مع رسول الله ﷺ سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم، وذوي الثروة منهم، ويتبعون الرسول ليأكلوا من فضل الله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه الصلاة والسلام.

والذين أتبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقات، مع أتباع الرسول الكريم ﷺ، بحيث لو اتبعوا ساداتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالاً وأنعم عيشة، اللهم ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوع أنوار الدين في قلوبهم، حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة، وما عليه رسول الله ﷺ من الهدى والدين الحق.

وقد أسلم هؤلاء حيث كانت الدعوة سرّاً لا يظهر رسول الله ﷺ الدعوة في مجامع قريش، ولم يكن المسلمون يتمكنون من اظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش وإلحاق الأذى بهم، فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة مستخفياً.

ولما دخل في دين الله ما يربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول ﷺ بهم ليرشدهم ويعلمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم، وقد كان ممن ذكرناه من السابقين إلى الإسلام.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

ولما رأى رسول الله ﷺ كثرة إيذاء المشركين لمن آمن من قريش وعدم تمكنهم من عبادة الله وحده بين قومهم، إلا متخفين في دار الأرقم بن أبي الأرقم أو في شعاب مكة، ورأى ما يصيبهم من البلاء ولا يقدر أن يمنعهم ويحميهم قال لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن لها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه).

فعند ذلك تجهز الناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم، كما أشار عليه السلام، وهذه هي أول هجرة من مكة وهي الهجرة الأولى إلى الحبشة وكانت قبل إسلام حمزة وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما، وعدد أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة وهم: عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو سلمة وزوجه أم سلمة، وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبي رهم، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليل، وأبو حذيفة بن عتبة وزوجه سهلة بنت سهل، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهل بن البيضاء، والزبير بن العوام وجلهم من السابقين في الإسلام ومن أهل بطون قريش رفعة ومكانة.

إسلام حمزه وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

كان من السابقين إلى الإسلام أثناء الدعوة سرّاً حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، وإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان إسلامهما عزاً للإسلام والمسلمين. وذلك كانا أشجع رجلين في قريش، بهما أعز الله دينه وأعلى كلمته، وأيد نبيه ﷺ وكان ذلك في السنة الثانية من بدء الوحي، كما قطع بذلك ابن حجر في كتاب (الإصابة) وصّدر به أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وتبعهما القسطلاني في (المواهب).

وكان سبب إسلام حمزه أن أخته صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام أخبرته وهو عائد من صيده أن أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمداً ﷺ، وبالغ في تنقيصه وهو جالس عند الصفا، فلم يكلمه محمد ﷺ ولم يرد عليه سفاهته، فاحتمل الغضب والحمية حمزة رضي الله عنه، لما أراد الله به من الكرامة، ولنبهه من الاعتزاز، فخرج يشتد معداً لأبي

جهل الإيقاع به، فلما دخل المسجد لم يكلم أحداً على غير دأبه وعادته، ونظر إلى أبي جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام ضربه على رأسه بقوسه، فشجه شجة بليغة منكراً، وقال له: أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول ما يقول، فَرَدَّ عَلَيَّ ان استطعت، فحمى لأبي جهل رجال من قومه بني مخزوم، لينصروه، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة فاني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. ثم أعلن حمزة إسلامه وعاهد محمداً على نصرته والتضحية في سبيل الله حتى النهاية.

أما بالنسبة لإسلام عمر، فقد كان بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام وكان رسول الله ﷺ يعرف شجاعة عمر، وشهامته ورجولته، ويعرف عبقريته في تفكيره، واستقامة طبعه، وجرأته على الجهر بما يعتقد. فكان يجب أن يهديه الله إلى الإسلام ليكون له ناصراً، فكان يدعو الله تعالى أن يهديه إلى الإيمان فيقول فيما أخرجه ابن ماجه ورواه الحاكم وابن حبان عن عائشة وابن عباس: (اللهم أعز الإسلام - أو أيد الإسلام - بعمر بن الخطاب) وقد استجاب الله دعاءه، هذا وقد كان عمر من أشد الناس عداوة للمسلمين، وتصف أم عبد الله بنت حثمة فيما يحكيه عنها ابن إسحاق قالت: والله إنا لتنرحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه - قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا! - قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: فقلت نعم والله، لنخرجن في أرض الله، أذيتمونا وقهرتمونا حتى جعل الله لنا فرجاً، فقال: صحبكم الله!! قالت أم عبد الله: ورأيت له رقة لم أكن أراها!! ثم انصرف وقد أحزنه خروجه، فلما جاء عامر بن ربيعة - زوجها - قالت له: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمراً أنفأ ورقته وحزنه علينا؟ قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت نعم، قال عامر: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ياساً منه لما يرى من غلظته وقسوته وخشونته على الإسلام^(١).

وقد تعددت الروايات في طريقة إسلامه وقد ذكر ابن سيد الناس في (العيون) بسنده عن

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٧.

أسلم مولى عمر قال: قال لنا عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا نعم قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينما أنا في يوم حار شديد الحر بالهجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من بعض قريش، فقال لي: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ قلت: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، فأقتله فقال له: أترى أن بني عبد مناف تاركوك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمداً! أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قلت: وما ذلك، قال أختك قد صبأت. فرجعت مغضباً، فجئت حتى قرعت الباب، فقيل من هنا؟ قلت عمر بن الخطاب، وكان القوم جلوساً يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي، تبادروا واختفوا، وتركوا أو نسوا الصحيفة في أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي، فقلت لها يا عدوة نفسها، قد بلغني أنك صبأت، فضربها فشجها قال عمر: فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، ثم قالت: يا ابن الخطاب، ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت، فدخلت وأنا مغضب، فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه، فقالت لا أعطيكه، لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون، فلم أزل بها حتى أعطتنيها فإذا به بسم الله الرحمن الرحيم، فذعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعت إليها نفسها فإذا بها ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع إلي نفسي حتى بلغت ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير إستبشاراً بما سمعوا مني، وحمدوا الله عز وجل. فلما أن عرفوا مني الصدق، قلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ قالوا: هو في بيت في أسفل الصفا، وصفوه- دار الأرقم- فخرجت حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب،

(١) سورة الحديد آية ٨، ١.

وعرفوا شدتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا إسلامي، فما اجترأ أحد أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ «افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يهديه» ففتحوالي، وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ، فقال: «أرسلوه» فأرسلوني، فجلست بين يديه، فأخذ بجمع قميصي فجذبني إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده «قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سُمِعَتْ بطرق مكة»^(١).

ويقول عمر لرسول الله بعد أن أسلم: يا رسول الله ألسنا على حق إن متنا وإن حيننا؟ فيقول النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده إنكم على حق إن متم وإن حينتم) فيقول عمر: ففيم الخفاء يا رسول الله ونحن على الحق وهم على باطل؟ ويقول النبي ﷺ، إشفافاً على أصحابه وتهيباً لعزائم أولي القوة منهم: «يا عمر إنا قليل قد رأيت ما لقينا) ويقول عمر: والذي بعثك بالحق نبياً، لا يبقى مجلس.

وهكذا أنخرط عمر - رضي الله عنه - في سلك المؤمنين فكان أيمانه قوة للإسلام وعزة للمسلمين.

وقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب، وكان ابن مسعود يقول ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، وكان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً. وكان رسول الله ﷺ يجب أن يهديه الله إلى الإسلام، ليكون له ناصرًا، وتكون شجاعته قوة لهذا الدين الحق.

وقد روى ابن ماجه والحاكم وابن حبان عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال: (اللهم أعز الإسلام - أو أيد الإسلام - بعمر بن الخطاب خاصة) ولم يصح ما رواه الترمذي والأمام أحمد من أن دعاء النبي كان بلفظ اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك

(١) شمس الدين الشافعي، المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ﷺ، ط ١، ج ١، ص ٩٦.

بأبي جهل أو عمر بن الخطاب، كما ذكر المحققون وقد ذكر الأستاذ محمد صادق عرجون عدة أدلة تثبت عدم صحة ذلك^(١).

وكانت الآيات الأولى التي نزلت من القرآن تتجه بالخطاب إلى النبي ﷺ تبشيره بالرسالة وتحمله أثقالها، وتؤكد له نبوته وسلامة عقله، وحسن خلقه، وترد على قريش في ما تطعن به عليه. ثم تلتها آيات وسور تعرض باقتضاب أسس العقيدة الإسلامية وخصوصاً التأكيد على وحدانية الله لا شريك له، خالق السموات والأرض، وتؤكد على الأخلاق الإسلامية من جهة، والإعلان من جهة أخرى على أن بعد هذه الحياة الدنيا (حياة أخرى) ويجازى الناس فيها على أعمالهم في الحياة الأولى: فريق في الجنة وفريق في النار. وقد ركز القرآن على هذه القضايا: الوحي والتوحيد والايان بالآخرة، والأخلاق الحميدة.

الجهر بالدعوة:

كان إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، والدعوة المستمرة في دار الأرقم، إرهاباً بدخول دعوة الإسلام الناشئة المتخفية دوراً جديداً وهو دور العلانية والجهارة، مع ما يصحبه من كفاح ونضال مرير اصطدم به رسول الله ﷺ، وأصحابه من القلة السابقة الذين آمنوا بالله ورسوله من تضييق قريش عليهم عندما كانوا يتسللون تحت جناح الظلام إلى أول معهد للدعوة وهي دار الأرقم تحت سفح جبل الصفا قرب الكعبة المشرفة. وكان هذا المعهد مصدر إشعاع الدعوة ومسرى نورها ومطلع هدايتها، فكان يجلس فيه رسول الله ﷺ يُعَلِّم أصحابه ما ينزل عليه من القرآن، ويشرح لهم ما خفي من معانيه ويؤدبهم بآدابه ويدعوهم إلى الصبر على ما يلقون من أذى قريش، وكان إقبال الصنفوة من القرشيين يزداد يوماً بعد يوم، وفشا الحديث عن هذه الدعوة، فكان الطريق الحكيم المحكم هو الاتجاه بالدعوة للعلانية فأنزل الله تعالى على رسوله قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) أنظر كتاب محمد رسول الله / منهج ورساله - بحث وتحقيق الأستاذ محمد الصادق عرجون ج١ ص ٦١١-٦٢٧ الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ طبعة دار الأرقم - دمشق.

الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَلَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴿١﴾.

وقد قام رسول الله ﷺ بأمر من الله تعالى: فأنذر أدنى الناس قرابة منه.

روى البخاري ومسلم، لما أنزلت هذه الآيات صعد النبي ﷺ الصفا ثم نادى: «يا صحاباه»^(٢) فأجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب، يا بني قريش، يا بني لؤي، رأيتمكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وفي رواية في بعض كتب السيرة أن أبا لهب قال له تبا لك ألهذا جمعتنا!! فأنزل الله في شأنه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾^(٣).

أي هلكت يدا أبي لهب، عدو الله وعدو رسوله، لن يدفع عنه عذاب الله ماله ولا جاهه الذي كسبه، سيدخل ناراً ذات اشتعال يحرق بها، وستدخل معه امرأته التي كانت تحمل شجر الشوك وتضعه في طريق رسول الله ولم يُغنه من ذلك مالٌ ولا جاهٌ ولا نسب فقد كان أبو لهب دون سائر بني عبد المطلب أعدى أعداء الدعوة الإسلامية توعدده الله بنار موقدة يصلها ويشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك وأختصها بلون من العذاب، هو ما يكون حول عنقها من حبل تجذب به إلى النار، زيادة في التنكيل بها لما كانت عليه من إيذاء الرسول والإزدراء به وهي زوجة أبي لهب العوراء وتكنى بأم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب الذي ظل قائد الجيوش المناهضة للدعوة الإسلامية طوال فترة الكفاح والنضال، حتى أرغمته هو

(١) سورة الشعراء الآيات: ٢١٤-٢١٧.

(٢) يا صحاباه: هذه صيغة كانت معروفة مألوفة عند العرب كلما أحس إنسان بخطر عدو يغير على البلد أو على القبيلة عقلة منها نادى «يا صاحبا».

(٣) سورة المسد

وزوجه انتصارات الإسلام على الدخول فيه عند فتح مكة، ومات أبو لهب مرغماً مقهوراً بعد غزوة بدر، بعد سماعه بانتصار المسلمين، ولم يسلم هو وزوجه ليتحقق ما وعدهما الله به من عذاب يوم القيامة.

ثم أمر رسول الله بالجهر العام بالدعوة وذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) فدعا رسول الله ﷺ سائر قومه وساكني بلده، ومن يرده في الأسواق والمواسم إلى توحيد الله، وخلع الأنداد وترك عبادة الأصنام، فسخروا منه في مجالسهم فكان إذا مر عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة - وهو اسم زوج مرضعته حليلة السعدية - يكلم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب ويكلم من السماء، ومنهم من كان يواجهه بسخرية وإستهزاء فقالوا إنه كاهن أو ساحر أو مجنون.

فجاء جبريل يحمل الرد على هؤلاء في صيغة قسم وشهادة بحسن خلقه بقوله تعالى: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ وَبُصِّرْهُ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴿٢﴾.

ويسترسل الوحي على هذا المنوال آيات قصيرة وقليلة تخاطب محمداً تؤكد نبوته وتشهد بسلامته مما يرمونه به، وترد على ما يتعرض له من شتم أو طعن.

وكانت الآيات الأولى التي نزلت من القرآن تتجه بالخطاب لتبشيريه بالرسالة وتحمله أثقالها وتؤكد له نبوته وسلامة عقله، وحسن خلقه، وترد على قريش فيما تطعن به عليه ثم تلتها آيات وسور تعرض بأقتضاب لأسس العقيدة الإسلامية وخصوصاً التأكيد على وحدانية الله لا شريك له خالق السموات والأرض، والإيمان بالبعث والحساب كما تحض على الأخلاق الحميدة.

(١) سورة الحجر آية ٩٤.

(٢) سورة القلم آية ٧-١.

فلما عاب عقائدهم وسفه عقولهم وقال لهم: والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم وهزأ بأهنتهم وخط من شأن آبائهم الذين ورثوهم عبادة الأصنام فاتخذوها الهة مع الله وتلا عليهم في ذلك من بيان القرآن ما لم يكن لهم به عهد، وما لم يكن لهم معه صبر، فأعظموا ذلك وأنكروه أشد الإنكار، وحاولوا معه أن يكف عن عيب آهنتهم والسخرية من عقيدتهم فلم يستجب لهم، ولا ألقى إلى إنكارهم بالاً ومضى رسول الله ﷺ يقرع آذانهم، ويدق أبواب قلوبهم وعقولهم بقوارع آيات الله تعالى وزواجه من السور المكية من القرآن العظيم مثل قوله تبارك وتعالى في سورة لقمان: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) وقوله في سورة الزخرف في بيان حجبتهم الداحضة: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢). وقال رداً عليهم ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣) فلما تمسكوا بحجة التقليد لآباءهم، جر ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل، وعدم الهداية، فهيج ذلك أضغانهم، فذهبوا إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب: ان ابن أخيك قد سب آهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فيما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ولم يبد منه لرسول الله ﷺ شيء يصدّه عن دعوته وتبليغ رسالته.

ومضى رسول الله ﷺ قدماً في طريقه بقوة لا تقهر وعزيمة لا تلين، فزاد ذلك بلاء قريش سوءاً على سوتهم، واشتد التأزم وملاً الحنق قلوبهم، وحصّ بعضهم بعضاً عليه، ورأوا أن عمه أبا طالب لم يمنع عن التعرض لآهنتهم، فمشوا إليه مرة ثانية فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً

(١) سورة لقمان آية ٢١.

(٢) سورة الزخرف آية ٢٢.

(٣) سورة الزخرف آية ٢٤.

فينا وانا قد استتهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، ولن نصبر على عيب آباءنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم تركوه وانصرفوا فأرسل إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي: إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، وأشار إلى تهديدهم وتوعدهم إياه، وإنذارهم له بالمنازلة والحرب التي لا تبقي عليه وعليهم، ثم أستعطفه فقال: إبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لأطيق، فظن رسول الله أن عمه خاذله ومسلمة، وأنه ضعف عن حمايته ونصرته، فقال له رسول الله ﷺ: (والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته)^(١). ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه ثم قال له: أذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً، فمضى رسول الله ﷺ قدماً معلناً عن دعوته بكل ما يملك من وسيلة.

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون، استأذن عتبة بن ربيعة قريشاً أن يأتي رسول الله ﷺ فيكلمه، ويعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها فيعطونها، ويكف عنهم، وأذنت له قريش واستخلفتها، وجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ، فجلس إليه وقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، سَفَّهت به أحلامهم وعبت به آهنتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد: اسمع.

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رثياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك أطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

(١) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة مكتبة المعارف الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ، ج ١، ص ١٩٥، رقم الحديث (٩٣)، والسقاف، تخريج الأحاديث وأثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب، ج ١، ص ٤٧٠، رقم الحديث (٨٨١).

فلما فرغ عتبة، قال رسول الله ﷺ: قد أفرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل.

فقرأ رسول الله ﷺ آيات من سورة «فصلت»^(١). قال تعالى: ﴿كَذَّبُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، قُرْءَانًا

عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ... ﴿٤﴾

فأنصت عتبة لما يقرأ فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فيها سجد ثم قال: قد سمعت يا

أبا الوليد ما سمعت فانت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير

الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟! قال: ورائي أني قد

سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا

معشر قريش! أطيعوني وخلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، وقالوا: سحرك والله

يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(٢).

إيذاء قريش لرسول الله ﷺ وللمسلمين:

اعتصم النبي ﷺ بعد الله بعمه أبي طالب من أذى قريش، كما اعتصم بزوجه خديجة في

ما يلحقه منهم في سبيل دعوته، فقد كانت له بصدق إيمانها، وعظيم حبها، وزير صدق تسري

عنه كل هم، وتقوي فيه كل عارض ضعف من أثر أذى خصومه، وإمعانهم في مناوآته،

وإيصال الأذى له، ولمن أتبعه وآمن به وصدق برسالته فكانوا يعذبونهم ويحاولون أن

يفتنوهم عن دينهم، وقد رأى من المشركين كثير الأذى خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند

البيت، وكان أعظم من أذى الرسول جماعة سمووا بالمستهزئين، وكان أولهم وأشدهم أذى أبو

جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي قال يوماً: يا معشر قريش إن محمداً قد أتى

(١) سورة فصلت الآيات من (٣-٤).

(٢) أبو عبد الله محمد القرطبي الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام،

ج ١، ص ٢٣١.

ما ترون من عيب دينكم وشتم أهنتكم، وتسفيه أحلامكم، وسب آبائكم، إني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر لا اطيع حمله، فإذا سجد للصلاة عند الكعبة رضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو أمنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو إلى صلاته، وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد عليه الصلاة والسلام، حمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه من الفرع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجال من قريش فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فدنوت منه فعرض لي فحل من الإبل، والله ما رأيت مثله، همَّ بي ليأكلني! فلما ذكر ذلك لرسول الله قال: ذاك جبريل ولو دنا لأخذه، وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسول عن صلاته في البيت، فقال له مرة بعد أن رآه يصلي ألم أنك عن هذا؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدده فقال أتهدني وأنا أكثر الوادي نادياً، فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة اقرأ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ. ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطْعَهُ وَأَسْجُدُّ وَقَتَّرِبُ ﴿١٩﴾﴾^(١)

ومنهم عقبة بن أبي معيط من بني أمية، فقد جاء إلى فرث جزور فألقاه على الرسول وهو ساجد، ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي لرسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال: بينما النبي يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق الرسول ﷺ فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى شده بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ، وقال كما جاء في سورة غافر ﴿أَنْقُضُوا رِجْلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٢)

ومن جماعة المستهزئين العاص بن وائل السهمي القرشي، والد عمرو بن العاص كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ وكان يقول: عَرَّ مُحَمَّدٌ أَصْحَابَهُ أَنْ يَجِئُوا بَعْدَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ لَا يَهْلِكُنَا

(١) سورة الفلق آية ١٥ - ١٩.

(٢) سورة غافر آية ٢.

إلا الدهر. فقال الله رداً عليه في دعواه ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢٤) (١). وكان عليه دين لخباب بن الارت، فتقاضاه إياه فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب، أو خدم؟ قال خباب بلى، قال فأنظرنى إلى هذا اليوم فسأوتى ما لا وولداً وأقضيك دينك (٢)، فأنزل الله في سورة مريم ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ (٧٧) ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (٧٨) ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ (٧٩) ﴿ وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَلَا يُنَبِّئُنَا فَردًا ﴾ (٨٠) (٣).

ومنهم الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد وعم أبي جهل وهو من أشرف قريش وعظماؤها وفي سعة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ فقال لقومه بني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلو، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فذهب إليه وقعد إليه حزيناً وكلمه بها أحماه فقام فأتى قريشاً فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس؟ وتقولون أنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب، فقالوا في كل ذلك اللهم لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وبين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه (٤)، فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً لرسوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (١١) ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ (١٢) ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ (١٣) ﴿ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا ﴾ (١٤) ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ (١٥) ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴾ (١٦) ﴿ سَاءَ رَهِقُهُ ﴾

(١) سورة الجاثية: آية ٢٤

(٢) اسماعيل بن محمد الأصفهاني، إعراب القرآن للأصفهاني، ط ١، ج ١، ص ٢٢٢.

(٣) سورة مريم: الآيات ٧٧-٨٠.

(٤) الخضري، نور اليقين، دار الفيحاء، دمشق، طبعة ١٤٢٥هـ، ج ١، ص ٤١.

صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ، فَكَّرَ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصَلِّيهُ سَقَرًا ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾.

وروي أن الوليد بن المغيرة وقف يوماً وقال: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً ويرد بعضكم بعضاً بعد أن نفوا عنه الكهانة، والجنون، فقال نقول بأنه ساحر يفرق به بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته (٢).

وممن آذاه في دعوته النضر بن الحارث بن بني عبد الدار، فكان كما روى ابن اسحاق من شياطين قريش، وممن كان يؤذي النبي ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قَدِمَ الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً ذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، جلس في مجلسه إذا قام، ثم قال: إنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلهم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم، ثم يقول: لماذا محمد أحسن حديثاً مني، فقد زعم أن في القرآن من قصص هي أساطير الأولين (٣) ففيه نزلت الآية: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾.

فقد أستحوذ هذا الشيطان اللعين، بهذه الخرافات والأباطيل المعسولة على عقول السذج من سفهاء قريش وظنوا به العلم والمعرفة.

وكانت قوى الشر تتابع رسول الله ﷺ، كما كانت تتابع أصحابه حيثما توجهوا وحيثما حلوا، ويذيقونهم شديد الأذى وهم صابرون محتسبون تأسياً برسول الله ﷺ في صبره وقوة عزمته،

(١) سورة المدثر: الآيات ١١-٢٦.

(٢) السقاف، تخريج أحاديث، ج ١، ص ١٧٩، رقم الحديث ٣٤٩.

(٣) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) تحقيق سهيل ركاز، دار الفكر، بيروت، طبعة أولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ج ١، ص ٢٠١.

(٤) الفرقان: آية ٥

وانتظاراً للفرج من الله في وعده سواء كان هؤلاء السابقون إلى الإسلام من ابناء أشراف قريش، كالزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ومصعب بن عمير وسعيد بن العاص وغيرهم، أم من الضعفاء الذين أودوا في الله ولم يكن لهم من يحميهم ويرد كيد عدوهم، مثل بلال بن رباح الذي كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحي، وكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول أحد أحد^(١)، لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله.

ويخرج فيه وقت الظهيرة في الرمضاء، لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت. ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعد اللات والعزى فيقول: أحد أحد. فمر أبو بكر رضي الله عنه يوماً فقال: يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين، إلى متى تعذبه^(٢). قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى فأشتراه منه فأعتقه.

فأنزل الله فيه قوله تعالى في سورة الليل: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾﴾. والمراد أمية بن خلف ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾^(٣).

وقد نبه الله تعالى أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه، لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصديق رضي الله عنه وأرضاه. وقد أعتق غير بلال: مثل عامر بن فهيرة، وحمامة أم سيدنا بلال. وأخرى أسمها زنيره عذبت في الله حتى عميت، ولم يزلها ذلك إلا أيماناً، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون من هؤلاء وأتباعهم، لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقونا إليه، أتسبقنا زنيره إلى رشد. فأنزل الله في سورة الأحقاف قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ

(١) الإمام أحمد، المسند، تحقيق أحمد شاكر، دار الحديث القاهرة، ط ١ (١٤١٦هـ) ج ٤، ص ٥٣، ٣٨٣٢، وقال المحقق عنه: إسناده صحيح.

(٢) أحمد فضائل الصحابة، المحقق د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة - بيروت، طبعة أولى ١٩٨٣م، ج ١، ص ١١٨، رقم الحديث (٨٩).

(٣) سورة الليل آية ١٤-٢١.

يَهْتَدُوا بِهِ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿١﴾ .

ومن عذب في الله، عمار بن ياسر، وأخوه وأبوه وأمه، كانوا يعذبون بالنار، ومر بهم رسول الله ﷺ فقال: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(٢) وأما أبو عمار وأمه فقد ماتا تحت التعذيب رحمهما الله تعالى فكانا أول شهداء الإسلام. وكذلك خباب بن الأرت الذي لقي ما لقي من التعذيب بالنار، ولكنه لم يتراجع عن دينه.

وقد أنزل الله تعالى في حق من أوذى في الله قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾^(٣).

ومن السابقين الأولين الذين تعرضوا لأذى قريش أبو ذر الغفاري. وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث، قدم أبو ذر مكة ورأى رسول الله ثم أسلم. فقال له النبي ﷺ إرجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري. قال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أن لا الله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه. وأتى العباس فأكب عليه وقال: ويلكم، أولستم تعلمون أنه غفاري؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام تمر من عندهم. فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا عليه فأكب العباس عليه^(٤) ولم يكتف المشركون من الأذى برسول الله ﷺ وبمن معه بل كانوا يجذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب من الأستماع إلى رسول الله ﷺ.

(١) سورة الأحقاف آية ١١ .

(٢) الأصفهاني، حلية العلماء، الناشر السعادة مصر، ١٩٧٤م، ج١، ص١٤٠، ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، المحقق دار الفلاح والناشر دار النوادر، طبعة ٢٠٠٨م، ج٢، ص٦٥٣، وقال عنه المحقق أن رجاله رجال الصحيح.

(٣) سورة العنكبوت الآيات ١-٣.

(٤) مسلم، الصحيح، ج٤، ص١٩٢٣، رقم الحديث ٢٤٧٢.

لقد تعرض رسول الله وجميع من آمن به وهم في مكة إلى كثير من الأذى والأضطهاد من مشركي مكة، ولم يسلم أحد منهم حتى أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. فقد روى البخاري أن أبا بكر الصديق لما أشد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة، فخرج حتى أتى برك الغمام فلقبه ابن الدغنة، وهو سيد قبيلة أسمة القاره. فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي فأريد أن أسبح في الأرض وأعبد ربي. فقال ابن الدغنة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل - أي الضعيف - وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع وأعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه، وطاف في أشرف قريش فقال لهم: أبو بكر لا يخرج مثله، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا له: مَرُّ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن^(١). فإننا نخشى أن يفتن به نساءنا وبنائنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر^(٢)، فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فأتى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيأتي عليه نساء المشركين وبنائهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشرف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة وقالوا له: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فأتى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا نخشى أن يفتن نساءنا وبنائنا، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داخل داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت الله عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت ذمتي في رجل عقدت له. فقال أبو بكر فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله.

(١) يرفع صوته في الصلاة.

(٢) البخاري، الصحيح، ج ٣، ص ٩٨، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده.

كما أن المشركين لما أسلم عمر بن الخطاب أصابتهم كآبه شديدة، وأرادوا قتله، حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه، فجاء العاص بن وائل السهمي، وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر، فقال لعمر: ما بالك؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال: لا سبيل إليك، فأنا لك جار. فأمن عمر، وخرج العاص ووجد الناس قد سال بهم الوادي، فقال أين تريدون؟ قالوا نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه، فرجع الناس من حيث أتوا^(١).

وهكذا يرى الناظر والدارس لكتب السيرة، أن أشرف العرب وضعفاءهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ، لم يكن دافعهم إلى الإسلام سيف مسلط على أعناقهم، حتى يطيعوا نبي الله صاغرين، وليس معه من المال ما يرغبهم بتركهم لأموالهم وثوراتهم. ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة، كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، فاختروا الأذى والجوع والمشقات، لاقتناعهم بهداية الله، وسطوع أنوار الدين الذي جاء به محمد ﷺ.

ثم عرضوا على محمد عليه الصلاة والسلام أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركونه في عبادته فأنزل الله في ذلك ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكٰفِرُونَ ۝١ لَا ۤأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا ۤأَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا ۤعٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا ۤأَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ ۝٦﴾^(٢). أي لا تتوهموا أي أجيبكم لطلبكم في الإشراف، بالله فأيسوا منه، وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فيأتي بقرآن غيره أو يبدله، فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي ۤأَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَايَ نَفْسِي ۚ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ﴾^(٣).

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تُقبل منهم أرادوا أن يدخلوا من باب آخر هو تعجيز الرسول بطلب الآيات فأجمعوا وقالوا: يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك. ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ

(١) البخاري، الصحيح، ج ٥، رقم الحديث (٣٨٦٤).

(٢) سورة الكافرون.

(٣) سورة يونس الآية ١٥.

مَنْ نَحِيلَ وَعِنَبٍ فَفُجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا
 أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ
 لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴿٩٣﴾. ولم يكلمهم إلا بقول الله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ
 كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ لأن الله عَلِمَ ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد. فلا يؤمنون مهما
 جاءهم من البينات.

كما قال جل ذكره في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).
 فكيف يرجى الخير ممن قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَامْطُرْ
 عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَتَا عَشْرَةَ لَيْلٍ﴾ (٣). ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من
 عندك فاهدنا إليه وهذه سنة الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً وأنهم يطلبون تعجيزاً لا
 يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كي لا يجل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم وهذا هو
 المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٣).

رجوع مهاجري الهجرة الأولى إلى الحبشة:

لقد عاش المهاجرون الأوائل إلى الحبشة في الهجرة الأولى - والتي هي أول هجرة في
 الإسلام - في خير جوار من النجاشي ملك الحبشة، إلا أنه لم يتيسر لهم الإقامة فيها، فرجعوا
 إلى مكة، وسبب ذلك على ما رواه ابن إسحق عن أم سلمة إحدى المهاجرات وأم المؤمنين
 رضي الله عنها: هو ما وقع في الحبشة من الفتن، وخلاف بين الشعب والملك، فخاف
 المسلمون المهاجرون أن ينالهم من وراء ذلك سوء، يذهب بأمنهم وأستقرارهم، خاصة أنهم
 كانوا قلة من أشرف قريش، معهم نساؤهم وأولادهم، فرحلوا عائدين إلى وطنهم، موطنين
 أنفسهم على تحمل ما يلقونه فيه، من أذى الأهل والعشيرة في سبيل عقيدتهم ودينهم. ولما

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠-٩٣.

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٩.

(٣) سورة الإسراء آية ٥٩.

رجع هؤلاء المهاجرون إلى مكة، لم يتمكنوا من الدخول إليها إلا من وجد له مجيراً، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وقد رد عليه جواره حينما رأى ما صنعه الكفار بالمسلمين فلم يرد أن يكون مرتاحاً وأخوته معذبون. ومن الجدير بالذكر، أن بعض أعداء الإسلام قد أختلقوا رواية باطلة عن رسول الله، هي ما تسمى بقصة الغرائق، وألصقوها بسبب رجوع المهاجرين الأوائل من الحبشة إلى مكة.

قصة الغرائق:

هذه القصة مختلقة الرواية، باطلة في أصلها ألّفها بعض الزنادقة من أعداء الإسلام، الذين تظاهروا بالإسلام، من اليهود والفرس وغيرهم، وأشتغلوا في رواية الحديث، ليثبوا سمومهم، بسبب حقدهم على الإسلام والمسلمين، وقد رووها بأسانيد ومتون مختلفة، وبلغ عدد رواياتها التي رواها السيوطي في كتابه الدر المنثور أربعة عشر رواية وقد ذكرها الأستاذ المحقق محمد الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة بحث وتحقيق^(١). وقد رواها بعض كتاب السيرة النبوية، وبعض المفسرين، وطوائف من المحدثين في كتبهم الجماعية للحديث والسيرة، ممن جمعوا في مؤلفاتهم الغث والسمين دون تمحيص لما يروون.

ومن هذه الروايات ما رواه السيوطي بقوله:

«أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بالسند - صحيح كما يقول السيوطي - عن أبي العالية قال: قال المشركون لرسول الله ﷺ. لو ذكرت ألهتنا في قولك قعدنا معك، فإنه ليس معك إلا أراذل الناس وضعفاؤهم، فكانوا إذا رأونا معك تحدث الناس بذلك فأتوك، فقام يصلي فقرأ والنجم حتى بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الْآخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾^(٢). تلك الغرائق العلى، شفاعتهن ترتجى ومثلهن لا ينسى، فلما فرغ من ختم السورة سجد وسجد المسلمون

(١) أنظر كتاب محمد الصادق عرجون محمد رسول الله ﷺ ج ٢ ص ٣٠-١٥٥.

(٢) سورة النجم آية ١٩-٢٠.

والمشركون، فبلغ الحبشة أن الناس قد أسلموا فشق ذلك على النبي ﷺ^(١). فأُنزل الله ﷻ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَخَّأَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴿٢﴾.

هذه الرواية صريحة في بطلان الأكذوبة البلهاء، أكذوبة الغرائق رغم دعوى صحة إسناد إرسالها إلى أبي العالية الذي ألصقت به. ليفتنوا بها ضعفاء العقول، ذوي الإيمان الهش عن دينهم، ويشككهم في عقيدتهم ورسالة نبيهم، ويجرفون كتابهم الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كما أن هذه القصة مناقضة للتوحيد، وتبطل عصمة الأنبياء عن الكبائر، وترفع الثقة بالنبوة والوحي. وكل ذلك لا يقبل في ثبوته حديث مرسل، ولا حديث موقوف، ولا حديث أحادي صحيح متصل، وإنما يقبل فيه النص القطعي المتواتر لفظاً ومعنى.

وهكذا فإن بقية الروايات مطعون فيها ولا يعقل أن يضيف الرسول ﷺ شيئاً من عنده، وينسبه إلى الوحي من ربه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴿٣﴾. وهذا تهديد مرعب ذروة الوعيد

(١) الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة ابن تيمية - القاهرة، طبعة ثانية، ج ٩، ص ٣٤، رقم الحديث (٨٣١٦)، الديوبندي، فيض الباري على صحيح البخاري، تحقيق محمد بدر عالم، دار الكتب العلمية بيروت، ط أولى، ٢٠٠٥م، ج ٢، ص ٥٢٠، رقم الحديث ١٦٠٧.
(٢) سورة الحج الآيات ٥٢-٥٥.
(٣) سورة الحاقة الآيات ٤٤-٤٧.

والزجر على وقوع تقول شئ على الله، وفي ذلك تنزيه رسول الله ﷺ عن وقوع مثله وقطعاً لأطماع الكافرين الذين كانوا يأملون من رسول الله أن يأتي بما يرضيهم.

وقد أحتج من ذهب إلى القول بصحة قصة الغرائق من كتاب السيرة والمفسرين بقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ لَـضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾^(١).

وقد زعموا أن كلمة تمنى التي وردت في الآيات السابقة بمعنى قرأ، مع أن استعمال القرآن الكريم للتمنى في آيات كثيرة جاء بمعنى الرغبة والمحبة، كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾^(٢). والعدول من هذا الاستعمال الشائع غير سائغ ولم يذكر له دليل.

وقد تعرض للرد على هذه الأكذوبة كثير من علماء التفسير كالبيضاوي والزنجشيري وأبي بكر بن العربي، فقد قال أبو بكر العربي في الرد على الطبري الذي نقل هذه الأكذوبة في تفسيره «وقد ذكر الطبري روايات كثيرة باطلة لا أصل لها»^(٣).

وكما تعرض كثير من العلماء والمحققين والمفسرين للرد على هؤلاء، وبيان بطلان هذه القصة، خاصة وأن المستشرقين والأعداء استغلوا في الطعن برسالة الإسلام. ونقل الألوسي في تفسيره عن القاضي عياض في الشفاء ما نصه: يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرج له أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل^(٤).

وممن تعرض للرد على هؤلاء في العصر الحاضر الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل في

(١) سورة الإسراء آية ٧٣-٧٥.

(٢) سورة النساء آية ١٢٣.

(٣) العربي، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣ (٢٠٠٣م) ج ٣، ص ٣٠٧.

(٤) الألوسي، روح المعاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (١٤٥١هـ)، ج ٩، ص ١٦٩.

كتابه « حياة محمد ﷺ ». بقوله: إن احتجاج المحتجين من كتاب السيرة والمفسرين، ممن سوغوا هذه القصة بالآيات: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢). فهو احتجاج متهافت، ويكفي أن نذكر من الآيات السابقة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾^(٣). لنرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى في أمنية الرسول، حتى لقد كاد يركن إليهم شيئاً قليلاً، فقد ثبته الله تعالى ولم يفعل. ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف العذاب في الحياة وضعف العذاب بعد الممات.

فالاحتجاج بهذه الآيات مقلوب وباطل ذلك أن قصة الغرانيق تبين أن محمداً ركن إلى قريش، وأنها فتنته بالفعل، فقال على الله ما لم يقل. ولكن الآيات هنا تفيد أن الله ثبتته ولم يفتن^(٤).

وأن مما يدل كذلك على تهافت هذه القصة علمياً تعدد رواياتها، وتعدد الروايات الضعيفة للحديث لا يزيده إلا ضعفاً. كما أن سياق سورة النجم بأباها، فهو صريح في أن اللات والعزى ما هي إلا أسماء سماها المشركون وأباؤهم ما نزل الله بها من سلطان.

فكيف يجتمل أن يجري السياق بتعظيم آلهتهم بعد أن بين الله تعالى أنها أسماء سموهم هم وآبائهم، ففي هذا من الفساد والإضطراب والتناقض الكثير، فإن مدح اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ودمها في أربع آيات متعاقبات، لا يعقل أن يصدر عن عاقل، فكيف يكون في كتاب الله المحكم. كما أن صدق سيدنا محمد ﷺ المعروف بالصادق الأمين منذ طفولته، بأبي صحة هذه القصة. فالرجل الذي عرف بالصدق منذ نعومة أظفاره إلى كهولته، كيف يصدق إنسان أن يقول على

(١) سورة الإسراء آية ٧٣.

(٢) سورة الحج آية ٥٢.

(٣) سورة الإسراء آية ٧٤.

(٤) محمد حسين هيكل، حياة محمد ﷺ، ج ١، ص ١١٣.

ربه ما لم يقل، والله تعالى يقول في حقه في أول سورة النجم - والتي يزعمون بأنها وردت في تلك المفتراة- ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ (٤) ﴾^(١). وقال سبحانه وتعالى في حقه أيضاً: ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾^(٢).

ومن العجيب أن هذه القصة تهدم مبدأ التوحيد أساس دعوة الإسلام الذي جاهد النبي ﷺ من أجله حق الجهاد، وثبت عليه رغم كل العقبات والمغريات التي تعرض لها. وأضاف في تفنيد هذه القصة فضيلة الشيخ محمد عبده بقوله: أن وصف العرب لأهنتهم أنها الغرائق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وأنها ورد لفظ الغرنوقي والغربي على أنه أسم لطائر مائي أسود أو أبيض، والشاب الأبيض الجميل، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب^(٣). ونختم هذه الردود برد العلامة محمد الألوسي في كتابه روح المعاني حيث أورد العديد من مفاسد هذه القصة منها^(٤):

١- المفسدة الأولى: أن الشيطان يتسلط على الرسول ﷺ وهو بالإجماع معصوم من الشيطان خاصة في أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد.

فقال الله تعالى في ذلك: ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٤) ﴾^(٥). وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (٦) ﴾^(٦).

(١) سورة النجم آية ٣-٤.

(٢) سورة الحاقة آية ٤٤-٤٧.

(٣) أنظر محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ١٦٠-١٦٧. ط ٥ / مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٢.

(٤) أنظر روح المعاني ج ٩، ص ١٦٧-١٧٢.

(٥) سورة الحجر آية ٤٢.

(٦) سورة النحل آية ٩٩-١٠٠.

٢- المفسدة الثانية: زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل منه. عليه الصلاة والسلام لمكان عصمته.

٣- المفسدة الثالثة: إعتقاد الرسول ﷺ ما ليس بقرآن أنه قرآن، مع كونه بعيد الالتئام متناقض، ممتزج المدح بالذم، وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته للنبي ﷺ.

٤- المفسدة الرابعة: كون النبي ﷺ، هو الناطق بما ألقى الشيطان من كلمات الكفر والشرك، فقد أشتبته عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه جبريل عليه السلام، وهذا يقتضي أنه على غير بصيرة في ما يوحى إليه وفيما يبلغه من ربه، ويقتضي أيضاً جواز تصور الشيطان بصورة الملك متلبساً على النبي ﷺ وهذا لا يصح.

٥- المفسدة الخامسة: التقول من رسول الله ﷺ على الله عمداً أو خطأ أو سهواً... وذلك محال في حقه ﷺ.

وقد تعرضنا لهذه الأكذوبة الباطلة وأطلقنا الحديث ببيان بطلان هذه الأقصوصة المفتراة لأن بعض العلماء ممن يشار إليهم بالبنان من ذوي الشهرة المدوية التي لا يُقبل عند أتباعهم ومقلديهم النقد والمناقشة لأقوالهم وآرائهم مالوا إلى تصديق هذه الأقصوصة الخبيثة الباطلة لكثرة روايتها مع ضعف سندها واختلاف متنها لذهابهم بأن كثرة رواية الضعيف تدل على صحته والصحيح أن كثرة رواية الضعيف لا تزيد الحديث الضعيف إلا ضعفاً، كالحافظ بن حجر العسقلاني^(١) والإمام ابن تيمية^(٢) رحمهما الله تعالى وغفر لهما وقد أورد كلامهما ورد عليهما الأستاذ محمد الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله^(٣).

ويدل على عدم صحته، وأنه من وضع الزنادقة من بني إسرائيل والمجوس والروم الذين غلبوا على أمرهم واشتغلوا بعلم الحديث والتفسير والسير النبوية وظهر بعضهم لبعض

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة، ج ٨، ص ٤٣٩.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى، دار الكتب العلمية، ط ١، ج ٥، ص ٢٥٧.

(٣) محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ج ٢ ص ٧٠-١٠٤.

المحققين كأمثال كعب الأخبار وابن منبه والكلبي وغيرهم، وانخدع بهم بعض رواة وعلماء الحديث. على أن كل واحد من الناس سوى رسول الله ﷺ يجوز عليه الوهم والخطأ والنسيان فلا يؤخذ بجميع أقواله، إلا رسول الله ﷺ فيما يتعلق بأمر الوحي والتبليغ فهذا إجماع مقطوع به عند جميع العلماء، والبحث العلمي لا يقف هياباً لهالات الأسماء وإنما يقف مع الحجة والبرهان.

مقاطعة قريش لبني هاشم وبني عبد المطلب:

لما ضاقت الحيل بكفار قريش في صد رسول الله ﷺ عن دعوته، عرضوا على بني هاشم دية مضاعفة، ويسلمون رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه، فأبوا عليهم ذلك.

ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيلاً من شبابهم يتبناه، ويسلم إليهم ابن أخيه. فقال عجبناً لكم تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونهُ؟.

ثم أجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية. فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ في شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فأجمعوا على ذلك مسلمة م وكافرهم، ما عدا عمه أبا لهب. ودخل معهم بنو المطلب، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً و يقيناً. وذلك في السنة السابعة من البعثة.

وانخذل عنهم بنو عمهم عبد شمس ونوفل ابنا عبد مناف، ثم أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى الحبشة، وهذه هي الهجرة الثانية للحبشة. ومن قوي على البقاء في مكة، دخل مع النبي ﷺ وقومه الحصار في الشعب.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش على أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم إلا أن يسلموا رسول الله ﷺ للقتل. وكتبوا بمكرهم صحيفة وعهداً ومواثيق، أن لا يقبلوا من بني هاشم وبني عبد المطلب ولدي عبد مناف صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة، حتى يسلموا محمداً ﷺ للقتل. وأشدت البلاء والجهد على بني هاشم وعبد المطلب، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يقدم مكة ولا يبيعاً إلا بادروهم إليه فأشتروه.

فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر. وكان هشام بن عمرو العامري شريفاً في قومه. ذا مروءة ونخوة، يأتي بالبعير ليلاً وقد أوفر طعاماً، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع حطامه من رأسه، ثم ضربه على جنبه فدخل الشعب عليهم. ومكثوا على هذه المقاطعة ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً ممن أراد صلتهم من قريش، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه سرّاً وجهاً وبنو هاشم صابرون وخاصة في الأشهر الحرم.

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة:

لما ضاق هشام بن عمرو العامري بهذه الصحيفة صدرأ مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، أخت أبي طالب وعمة رسول الله ﷺ، فقال له: يا زهير أقدر ضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك قد علمت، لا يُباعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، أما أني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً، فقال له زهير وقد استهواه منطقته: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم بنقضها وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم سرّاً، واتفق معها المطعم بن عدي وأبو البخخري بن هشام وزمعة بن الأسود الأسدي واتفق الخمسة على ذلك سرّاً ليلاً، وعندما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة، فطاف بالبيت سبعم ثم أقبل على الناس فنادى: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلأى لا يُباع لهم ولا يبتاع منهم والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعه الظالمه. فقال أبو جهل: كذبت والله لا تشق! فقال زمعة لأبي جهل أنت والله أكذب، ما رضينا بكتابتها حين كتبت فقال أبو البخخري: صدق زمعه، وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك وصدق على ما قال هشام بن عمرو فقام المطعم بن عدي فشقها وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله وبذلك أتيح للنبي وقومه أن يذهبوا إلى مساكنهم وأن يبيعوا قريشاً ويبتاعوهم^(١).

(١) العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة، ج٧، ص١٩٢.

هجرة الحبشة الثانية:

بعد دخول الرسول ﷺ الشعب أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، فخرج في الهجرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً تاركين ديارهم وأموالهم، حين قهروا وخافوا الفتنة وأكثرهم قرشيون من طلائع بيوتها وأشرف بطونها، وذلك ليجدوا لأنفسهم متنفساً في تحركاتهم وهم آمنون على أنفسهم، يعبدون ربهم وهم مطمئنون لا يهيجهم أمر ولا يفزعهم شيء.

ومن أهم ما روي عن قصة هذه الهجرة ما رواه محمد بن إسحق عن أم سلمة رضي الله عنها، وكانت إحدى المهاجرات مع زوجها أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، قال ابن إسحق: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشي، أمناً على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً أتممروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدَيْن، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم^(١): فحملوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمر وهما بأمرهم وقالوا لهما: إرفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلم النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما، قبل أن يكلمهم.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دارٍ، عند خير جارٍ، فلم يبق من بطارقتة بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلم النجاشي وقالوا لكل بطريق منهم: أنه قد ضوى^(٢) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا

(١) الأدم: الجلود، وهو أسم جمع.

(٢) ضوى: لجأ ولصق وأتى ليلاً.

بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم، أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم انهم قدموا هداياهم إلى النجاشي ثم كلماه فقالوا: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا فيهم أشرف قومهم، من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلم بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فيرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي ثم قال: لا ها الله إذا لا أسلمتم إليهما، ولا يُكاد قومٌ جاوروني، ونزلوا بلادي، وأختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنتم جوارهم ما جاوروني.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا حدثتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كأننا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا - وقد دعا النجاشي أسأفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه، من

الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلوة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فعدُّوا عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل الله لنا، فعدنا علينا قومنا فعذبونا وافتتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، وورغبتنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر نعم، فقال له النجاشي: فأقرأه علي، فقرأ عليه آيات من (كهيعص)^(١) فبكى والله النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة^(٢) واحدة.

ثم قال لرسولي قريش: إنطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون. قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم^(٣)!.
لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين: لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا، فإن لهم رحماً ولهم حقاً. فقال: والله لأفعلن! فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه، فبعث إليهم ولم

(١) آيات من سورة مريم.

(٢) المشكاة: الكوه غير النافذة يوضع فيها المصباح أو القنديل عادة، أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنها من مصدر واحد.

(٣) خضراءهم: شجرتهم التي فيها يفرعوا.

ينزل بنا مثلها قط، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله الذي قاله فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه ! فدخلوا عليه وعنده بطارقه فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟.

فقال له جعفر: نقول هو عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول ! فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً وخط به على الأرض وقال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود^(١)!.

فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال فقال: وإن تناخرتم والله ! إذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم الآمنون - ومن سبكم عُرم (ثلاثاً) ! ما أحب أن لي دُبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم - والدبر بلسانهم الجبل - ! فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه.

فخرج رسولاً قريش من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاء به ! وأقمنا عنده في خير دار مع خير جار^(٢).

وانتهى حديث أم سلمة رضي الله عنها عن هذه الهجرة الثانية وقد بقي هؤلاء في الحبشة حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فهاجروا مباشرة إليها وذلك بعد رجوع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر.

وفود نجران إلى مكة:

لم يكن عباد الأصنام وحدهم هم الذين يستجيبون لدعوة رسول الله ﷺ فقد ورد وفد من نصارى نجران مكون من عشرين رجلاً إلى مكة، وقد وصلهم خبر رسول الله وخبر دعوته، يريدون أن يتحققوا من صفاته التي وردت في كتبهم على لسان المسيح عليه السلام، وذلك بعد الخروج من الشعب، فجلسوا إليه واستمعوا لما يدعوا إليه، وقرأ عليهم القرآن

(١) بمعنى لم يتعدى علي عيسى بن مريم مقدار هذا العود.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٩-٣٦٢.

فأمنوا كلهم به وصدقوه، مما غاظ قريشاً حتى سبوهم وعلى رأس هؤلاء أبو جهل: وقالوا لهم: خبيكم الله من ركب أبعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه وصبأتم!.

فلم تكن مقالة مشركي مكة هذا الوفد عن مبايعة رسول الله ﷺ وقالوا لهم سلام عليكم، لكم ما أتم عليه ولنا ما اخترناه. فأنزل الله في ذلك قوله في سورة القصص: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذْ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَأَمَنَّا بِهِ ۖ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ۖ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذْ سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾.

وفاة زوجه خديجة وعمه «أبو طالب» رضي الله عنهما:

بعد أن عاد النبي ﷺ ومن معه من الشعب بعد تمزيق الصحيفة توفيت زوجته خديجة وتوفي عمه أبو طالب وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثة حيث إزداد أذى قريش على رسول الله ﷺ أثناء نشره لدعوته.

يقول ابن هشام: فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا ودخل رسول الله ﷺ، بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك^(١).

ولقد حرص رسول الله ﷺ حين وفاة أبي طالب أن يشهد أبو طالب شهادة الحق، إلا أنه لم ينطق بالشهادتين وهو على فراش الموت خشية أن يلحقه العار من قومه.

كما كانت قد توفيت زوجه خديجة رضي الله عنها في تلك السنة نفسها وقد كانت تخفف

(١) ابن هشام، السيرة.

عنه همومه وأحزانه، لما يلقاه من مشركي قريش وكانت مثال الزوجة الصالحة تدلل كثيراً من الصعوبات لزوجها، إذ شاركته في همومه وأحزانه وبذلك تخفف عنه من هذه الهموم، وتبث في نفسه الإستمرار والثبات فكان لها الأثر في نجاح الدعوة، وكان عليه السلام كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها لما كانت عليه من الرقة وحسن العشرة ومحاجة الكفار عنه لما لها من جاه في عشيرتها بني أسد.

وكان طيلة حياته يذكر فضل خديجة ويترحم عليها وير صديقاتها حتى كانت عائشة تغار منها - وهي متوفاة - لكثرة ما كانت تسمع من ثناء النبي ﷺ عليها، فقد روى البخاري عنها رضي الله عنها إنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ مثل ما غرت من خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها إلى صديقات خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكانت، وكان لي منها الولد، وهذا منتهى الوفاء.

وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا ابراهيم، فمنها زينب وهي أكبر بناته، تزوجها في الجاهلية أبو العاص ابن ربيعة، فأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ورقية وأم كلثوم اللتين كانتا قد تزوجتا في الجاهلية بعتبة وعتيبة أولاد أبي لهب، ثم تزوجها عثمان بن عفان بعد فراق أولاد أبي لهب لهما.

الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها إلى الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها، ومنها فاطمة، وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب ومنها القاسم، وكان به يكنى رسول الله ﷺ وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر وقد توفيا صغاراً، ولم يعيش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده بضعة أشهر.

وقد أطلق النبي ﷺ على هذا العام الذي توفيت فيه زوجته ثم عمه أبو طالب من بعدها عام الحزن لشدة ما لقي بعد موتها من اضطهاد كفار قريش له وانسداد أبواب الدعوة أمامه.

الذهاب إلى الطائف:

لما اشتد على رسول الله ﷺ كيد قريش وأذاهم ومحاوله منعه من نشر دعوته بعد وفاة زوجته خديجة وعمه أبي طالب توجه إلى ثقيف بالطائف، لعله يجد فيهم حسن الإصغاء لدعوته ويرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته، حتى يتم أمر ربه، لأنهم أقرب الناس إلى مكة، فلما توجه إليهم ومعه مولاة زيد بن حارثة، قابل رؤساءهم فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردوا عليه رداً قبيحاً، ولم ير منهم خيراً، وحينئذ طلب منهم ألا يشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم له، لأنه استعان عليهم بغيرهم، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه السلام، بل أرسلوا سفهاءهم وصبيانهم يقفون في وجهه في الطريق، يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه أذاهم، إلى أن انتهى إلى شجرة كرم استظل بها، وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من أعدائه من قريش، وكانا في البستان، فكره الرسول ﷺ مكانها، فدعا الله قائلاً «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١). فلما رآه ابنا ربيعة وما حلّ به رقاله، وأرسلا إليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصراني إسمه عداس، فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) قال عداس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له عليه السلام: من أي البلاد أنت وما دينك؟ فقال نصراني من نينوى^(٢). فقال له عليه السلام: من قرية الرجل الصالح يونس بن مئى. قال: وما علمك بيونس، فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس، فلما سمع ذلك عداس أسلم، وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره

(١) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦١-٦٢. وأنظر نور اليقين، ص ٦٦-٦٧.

(٢) بلد على شاطئ دجلة في العراق.

وقال: إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك، فقال عليه السلام (اللهم اهدِ قومي فأنهم لا يعلمون) فقال جبريل: (صدق من ساءك الرؤوف الرحيم)!! ولما كان بنخلة، وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن، وهم ممن يتتمون إلى موسى صلوات الله عليه، فلما سمعوه أنصتوا له، ورجعوا إلى قومهم منذرين، وأبلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي صَلَاحٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾^(١) وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت بأسمهم أولها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾^(٢).

ولما رجع عليه السلام من الطائف، لم يتمكن من دخول مكة، لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم. فأرسل عليه السلام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره، فأجابه إلى ذلك، وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف.

وقال له بعض المشركين: أحمير أنت أم تابع فقال بل مجير. قالوا إذن لا تُخْفَر ذمتك.

زواج النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها:

بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، تضايق النبي ﷺ بسبب ما وقع على كاهله من تدبير شؤون أولاده ومنزله، وخلال هذه الفترة، جاءت خولة بنت حكيم وقد شعرت بحاله ﷺ، فقالت: أي

(١) سورة الأحقاف الآيات ٢٩-٣٢.

(٢) سورة الجن الآيات ١-٢.

رسول الله، ألا تتزوج؟ فقال من؟ فقالت أن شئت بكرةً وإن شئت ثيباً، قال: فمن البكر؟ قالت
إبنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر، قال ومن الشيب؟ قالت: سودة بنت زمعة^(١).

وبعد ذلك أتت خولة إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه وأخبرت أم عائشة رضي الله عنها بما جرى
بينها وبين النبي ﷺ، فاقترحت أمها أن تنتظر مجيء أبي بكر.

فلما حضر وأخبر بالموضوع قال: هي بنت أخيه - فهل يجوز له - يعني النبي أن يتزوج بنت أخيه؟
فلما نقلت خولة قول أبي بكر للنبي ﷺ قال لها: ارجعي إليه فقولي له، أنت أخي في الإسلام وأنا أخوك،
وإبتك تصلح لي، فعادت إلى أبي بكر وأخبرته بما قال ﷺ^(٢).

وكان جبير بن مطعم بن عدي قد خطب عائشة قبل ذلك، ولكن أسرة جبير فسخت
خطبته لعائشة خوفاً عليه أن يتأثر بصهره أبي بكر ويدخل الإسلام، رافضاً لدين آبائه، بعد أن
علمت بإسلام أبي بكر، فلما أخبرت خولة رغبة النبي ﷺ من زواجه من عائشة، وعدم المانع من
هذا الزواج وافق أبو بكر.

ومما سبق يظهر لنا عدم صحة الروايات التي تذكر أن عائشة رضي الله عنها كانت إبنة ست
سنين حين خطبها النبي، لأن عائشة كانت مخطوبة لجبير بن مطعم قبل أن تعلم أسرته بإسلام أبي
بكر، وإنه يقوم بدعوة الناس للإسلام، ففسخت خطبة إبنتها مخافة أن يعتنق الإسلام، وكان ذلك في
أول سني البعثة، فيكون عمرها في السنة العاشرة من البعثة بعد موت خديجة ما يقارب السابعة
عشر أو الثامنة عشر، لذلك رشحتها خولة رضي الله عنها لرسول الله وهي عالمة بأنها أهل للزواج.
فلذلك ذهب أكثر المحققين إلى ذلك، وأستدلوا بأدلة أخرى غير هذا الدليل مما يثبت عدم صحة
ما روى بعض علماء السيرة عن صغر سنها حين خطبها رسول الله ﷺ ومنها.

الدليل الأول: ما رواه أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن عائشة قالت: لم أعقل أبواي قط إلا
وهما يدينان بالدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما

(١) الحاكم، المستدرک، ج ٢، ص ١٨١، رقم الحديث ٢٧٠٤.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، ج ٧، ص ٢١٠، رقم الحديث ١٣٧٤٨.

ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً قِبَلَ الحبشة^(١)... فهي في هذه الرواية تتحدث عن علاقة أسرة أبي بكر بالإسلام وحال هذه الأسرة قبل الهجرة إلى الحبشة، فروايتها هذا الخبر إلينا يدل على كونها كانت في سن تدرك وتعي هذه الأخبار، والقول على أن سنها كانت ست سنوات أثناء الهجرة ينبني عليه أن عائشة لم تكن مولودة حين نوى والدها الهجرة إلى الحبشة. وعلى هذا تستحيل روايتها هذه الأخبار.

الدليل الثاني: ما روته عند نزول الوحي في مكة فقد روى البخاري في صحيحه أن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب ﴿بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾^(٢). وهذه الآية من سورة القمر التي أنزلت تقريباً في السنة الرابعة من النبوة^(٣).

فنحن نرى عائشة رضي الله عنها تعرف فترة نزول الوحي في مكة، وتعرف الحوادث التي جرت في تلك الفترة بتفاصيلها فكونها في تلك الفترة بنت ثمانى أو سبع عشر وقت الهجرة إلى المدينة أقرب إلى العقل والصواب والمنطق السليم.

الدليل الثالث: أن ابن هشام نقل عن ابن إسحق أنه ذكر عائشة من السابقين إلى الإسلام والذين أسلموا قبل الهجرة إلى الحبشة، فذكرهم أولاً بأول... أسماء بنت أبي بكر وعائشة وهي يومئذ صغيرة، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة^(٤). وهذا يؤكد على أنها كانت في سن السابعة عشر تقريباً.

(١) أنظر كتاب نور اليقين ص ٤٩.
(٢) سورة القمر آية ٤٦. وأنظر البخاري، الصحيح، ج ٦، ص ١٤٣، رقم الحديث ٤٣٧٦.
(٣) ابن منده معرفة الصحابة، مكتبة كوبري رقم ٢٤٢ ص ١٩٢.
(٤) ابن هشام، السير، ج ١، ص ٢٧١. ومعنى هذا أنها أسلمت في السنة الأولى من البعثة فتكون عند إسلامها مميزة، وهذا يتناقض مع ما روي أن عمرها تسع سنوات عندما عقد عليها رسول الله ﷺ في السنة العاشرة أو الحادية عشر من البعثة، وكونه ﷺ دخل بها في المدينة بعد أن قضى في مكة ثلاث عشرة سنة فيكون عمرها ينوف على سبع عشرة سنة حين الزواج بها.

الدليل الرابع: ما رواه ابن منده في كتابه معرفة الصحابة إذ يقول: وكانت أسماء بنت أبي بكر أكبر من عائشة بعشر سنين، وكانت مع ابنها عبد الله بن الزبير في مكة أثناء حصارها حتى قتل، وبقيت مائة سنة حتى عميت، وماتت بمكة سنة ثلاث وسبعين، فقد ذكر في مصادر أخرى أيضاً كون أسماء أكبر من عائشة بعشر سنين^(١) ووفاتها في سنة (٧٣) من الهجرة وعمرها مائة سنة فعلى هذا فإن أسماء توفيت في سنة (٧٣) من الهجرة ولها مائة سنة من العمر ينبغي أن يكون عمرها (٢٧) سنة حين الهجرة (١٠٠-٧٣) = ٢٧ فيكون عمر عائشة التي هي أصغر منها بعشر سنين (١٧) سنة وقت الهجرة^(٢).

وقد تزوجت بالنبي ﷺ بعد (٨) أشهر من الهجرة، إذ كان عمر عائشة حوال (١٧-١٨) سنة حين تزوجت بالنبي ﷺ.

وإختلاف الروايات في كتب السيرة أكثر من أن تحصى لأنها لم تجمع ولم تُكتَب إلا بعد تدوين الحديث الذي دون وجمع في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي توفي أول القرن الثاني من الهجرة، حيث ولي الخلافة سنة (٩٩هـ) وتوفي في (١٠١هـ).

وهي قد كتبت في العصر العباسي وأول من دونها وجمعها محمد بن إسحق المتوفى عام ١٥٢هـ وقد كتبها بطلب من المنصور لابنه المهدي، وأقدم كتاب في السيرة نقل إلينا هو سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ وقيل عام ٢١٣هـ وقد نقل ما صح عنده من سيرة ابن إسحق في كتابه.

زواج النبي ﷺ بسودة:

أما بالنسبة لزواج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة بعد خطبة عائشة فهو أن عائشة كانت بنتاً شابة وكان النبي بحاجة إلى زوجة ذات سن ووقار، تسد مكان زوجته خديجة بعد وفاتها رضي الله عنها، وذلك بالنسبة لتربية الأولاد وشؤون المنزل، فكان الأنسب له زواجه بسودة، فتأخر زواجه بعائشة رضي الله عنها.

(١) ابن عساكر / تاريخ دمشق، تراجم النساء / دمشق ١٩٨٢، ص ٩، ص ١٠، ص ٢٨.

(٢) أنظر ابن هشام، السيرة، تحقيق مصطفى السقا، هامش رقم ٣، ج ١، ص ٢٧١.

كما كانت سودة قد آمنت بالله ورسوله، وخالفت أقاربها وبني عمها بني عامر، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها، فتزوجها رسول الله إكراماً لها وخوفاً عليها من الفتنة، ولم تكن ذات جمال كما ذكرت كتب السيرة.

الإسراء والمعراج

لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف ذهب لبييت عند ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها، وفي تلك الليلة حصل الإسراء لرسول الله ﷺ فكان هذا الأمر تكريماً من الله وتسلياً لخاطره، وتعويضاً عما لقيه في الطائف من صد وجفاء وهوان، وعدم قبول أهل الطائف لدعوته، وإعلاماً له بأن الله كان مطلعاً على ما حصل له، وسمع دعاءه حيث دعاه، وهو ما دل عليه قوله تبارك وتعالى في الآية الأولى، من سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾^(١). وقد روى ابن هشام في سيرته عن محمد بن إسحق بسنده، أن أم هانئ كانت تقول بالنسبة لإسراء الرسول ﷺ: (ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة^(٢)) ثم نام ونمنا، ثم لما كان قبيل الفجر أيقظنا رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: «يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف رداءه وقلت له: يا نبي الله، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدثنهم، قالت: فقلت لجارية لي حبشية: ويحك إتبعي رسول الله حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس، أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) أي صلاة العشاء، وإنما أطلق عليها العشاء الأخير للتمييز بينها وبين صلاة المغرب.

محمد؟ فإننا لا نسمع بمثل هذا قط. قال: «آية ذلك أي مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفروهم حس الدابة، فنفر لهم بعير فدللتهم عليه، وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى كنت بضحنان - جبل بناحية تهامة - وهو على بعد خمسة وعشرين ميلاً من مكة - مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء، قد غطوا عليه شيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك، أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء^(١) ثنية التنعيم، يتقدمها جمل أورق - أي لونه بين الغبرة والسواد - عليه غرارتان^(٢)، إحداهما سوداء والأخرى بقاء»، قالت: فابتدر القوم الثنية وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماءً ثم غطوه، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء. وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله لقد أنفرتنا في الوادي الذي ذكر، ونذ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه^(٣).

وسعى رجال من قريش بمجرد ما أخبرهم الرسول ﷺ بإسرائه إلى أبي بكر لأخباره، فقال: «والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه؟ فهذا أبعد مما تعجبون»^(٤).
 مما سبق يظهر بأن الإسراء الذي حصل للرسول ﷺ وهو في مكة كان بروحه وجسده.
 ومن أقوى القرائن التي تدل على أن الإسراء الذي حصل في مكة قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث سنوات كان بروحه وجسده آية الإسراء نفسها. فقد نزلت بعد الإسراء برسول الله ﷺ مباشرة لتؤكد حصوله، وأنه كان بالروح والجسد. وقد اشتملت على أربعة أدلة.

(١) تصوب من البيضاء: تنزل من مرتفع البيضاء قرب مكة.

(٢) وعاء من الخيش يوضع به القمح.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ج ٢ / ص ٤٣ - ٤٤ طبعة إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

(٤) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٩٦.

أولاً: ابتداء الآية بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ وكلمة سبحان علم للتسبيح، ومعناها تنزيه الله تعالى عما لا يليق بجلاله من نقص وعجز. وفيها رد على من أنكر قدرة الله الخالق بأنه يسري بعبده محمد ﷺ في ليلة واحدة، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم يعود إلى مكة في نفس الليلة. ثانياً: قوله تعالى: ﴿أَسْرَى﴾ فكلمة أسرى مأخوذة من السرى وهو سير الإنسان في الليل، وهذا لا يطلق على الإنسان حقيقة إلا إذا كان الإسراء بالروح والجسد. ثالثاً: قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُهُ﴾ المراد به محمد ﷺ وهو عبد الله بروحه وجسده عليه الصلاة والسلام.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ ليلاً ظرف للإسراء، وفائدة ذكره مع أن الإسراء لا يكون إلا ليلاً: هو التأكيد على حقيقة هذا الإسراء، بأنه كان بالروح والجسد، ولرفع توهم المجاز، لأنه قد يطلق على سير النهار مجازاً، ولتؤكد أن هذا الإسراء لرسول الله ﷺ كان بروحه وجسده. خامساً: كما أن القرائن التي تدل على أن هذا الإسراء كان لرسول الله ﷺ سوى هذه الأدلة الأربعة التي في الآية.

أن أم هانئ رضي الله عنها، عندما أخبرها به وأراد أن يخرج، أرادت أن تمنعه خوفاً من أن يحدث الناس بهذا الإسراء، فيكذبوه ويؤذوه، ولما أصرَّ على أن يخبرهم بذلك أرسلت جاريتها خلفه، لترى ما يحدث له عندما يحدثهم بهذا الإسراء، ولما عادت الجارية أخبرت أم هانئ رضي الله عنها ما حدث له، وما ذكره من الأدلة التي تدل على حصول الإسراء له، بروحه وجسده، ومع ذلك أنكروا عليه ذلك وكذبوه.

ولو كان الإسراء بالروح أو رؤيا رآها النبي ﷺ لما كان في ذلك غرابة، فالإنسان العادي يرى في المنام ما لا يصدقه الواقع ولا يخطر بخلد أحد، وقد ألف الناس في كل زمان ومكان الرؤى الغريبة، والأحلام العجيبة، ولا يسارعون إلى تكذيبها. فهذا هو الإسراء الحقيقي لرسول الله ﷺ الذي حصل له من مكة.

أما المعراج: فهو صعود النبي ﷺ إلى السماوات العلاء، إلى أن وصل سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، التي يأوي إليها الملائكة وأرواح النبيين والشهداء والمقربين بعد موتهم، وعند سدرة المنتهى ينتهي صعود الملائكة في السموات العلاء.

فالإسراء رحلة أرضية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. والمعراج رحلة سماوية إلى السماوات العلاء حيث وصل رسول الله ﷺ إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى.

وقد وردت قصة الإسراء وقصة المعراج في سورتين منفصلتين من القرآن الكريم.

أما بالنسبة للإسراء فقد ورد في قوله تبارك وتعالى من سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١﴾ (١).

كما وردت قصته في حديث أم هانئ ابنة عم رسول الله ﷺ، حيث أسري به من بيتها، وذلك بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ثم وفاة عمه أبي طالب، وذهابه إلى الطائف وصددهم له، ودخوله مكة تحت جوار المطعم بن عدي وليس في آية الإسراء وحديث أم هانئ رضي الله عنها - ذكرٌ أو إشارة إلى معراج الرسول ﷺ إلى السموات العلاء.

فيكون المعراج حصل لرسول الله ﷺ بعد هذا الإسراء الذي نصت عليه الآية وورد ذكره في حديث أم هانئ رضي الله عنها الذي سبق بيانه، وقد وردت الإشارة إلى المعراج في سورة النجم وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ١١ أَفَتَمْرُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ

(١) سورة الإسراء آية رقم ١.

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴿١﴾.

هذه الآيات تؤكد صدق الرسول في دعوته وأن القرآن أوحى به إليه بوساطة جبريل عليه السلام، والذي وصفه الله بأنه ملك شديد القوى، ذو حصافة في عقله ورأيه، وأن رسول الله ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين:

المرّة الأولى: رآه في مكة وكان قريباً منه مقدار مسافة قوسين أو أدنى من ذلك.

ذكر ابن كثير عن عائشة رضي الله عنها أنه رآه في أجباد، وأنه هو المراد بقوله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمُنُّونَهُ عَلَىٰ مَا بَرَأىٰ ﴿١٢﴾ ﴾. أي أن سيدنا جبريل قرب من سيدنا محمد ﷺ وهو على صورته الحقيقية، فأوحى الله بواسطته ما يريد إيحاءه. وقال ابن كثير في تفسيره^(٢) لهذه الآية: قال ابن جرير، قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح» وروى البخاري عن الشيباني قال سألت زراً عن قوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ قال: حدثنا عبد الله بن مسعود: أن محمداً رأى جبريل له ستمائة جناح المرة الثانية: كان في ليلة المعراج^(٣)، وهي المراد بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

وبناء على ما سبق بيانه، يكون الإسراء والمعراج حصل لرسول الله ﷺ في ليلتين منفصلتين في مكة المكرمة قبل الهجرة إلى المدينة، ومما يدل على أن كلاهما حصل في مكة المكرمة في ليلة منفصلة عن الأخرى:

(١) سورة النجم آية ١-١٨.

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج ٧ ص ٤١٧.

(٣) الصحيح، ج ٤ ص ١١٥، رقم الحديث (٦٢٣٢).

أن كلاً منها ورد ذكره في سورة من القرآن على حده، فالإسراء ورد في سورة الإسراء، ولم تشر آية الإسراء إلى المعراج.

والمعراج وردت الإشارة إليه في سورة النجم ولم تتعرض هي الأخرى إلى الإسراء، كما أن أم هانئ رضي الله عنها روت قصة الإسراء، ولم تشر لا من بعيد ولا من قريب أنه حصل له معراج في تلك الليلة.

وقد حصل لرسول الله ﷺ الإسراء والمعراج في المنام وهو في المدينة المنورة فقد روى البخاري ومسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم رؤيا؟) فيقص عليه من يشاء، وأنه قال ذات غداة: (أنه أتاني الليلة آتيان وأنها أبتعثاني، وأنها قال لي انطلق. وأني انطلقت معها...) ^(١) وقد ورد في هذه الرواية: أنه رأى بعض العجائب مما قد لا يصدقه بعض الناس.

ففي هذه الرؤيا، رأى عذاب من سمع القرآن ولا يعمل به، والذي ينام عن الصلاة المكتوبة، بأنه يكسر رأسه بحجر، فتندرج أجزاء رأسه، ثم يعود كما كان.

ورأى عذاب من يكذب كذبة كبرى يفسد فيها بين الناس، بأنه يشق من وجهه إلى قفاه بحديدة معوجة فيشرشر دماً، ورأى عذاب الزواني، حيث يكونون عراة، تأتيهما النار من أسفل منهم فيصيحون من شدة لهيبها، ورأى عذاب آكلي الربا، حيث يسبحون بنهر أحمر مثل الدم، وكلما أرادوا أن يخرجوا يلقاهم شخص واقف على طرف النهر بحجر، فيعودوا كما كانوا يسبحون في هذا النهر.

كما رأى مالكاً خازن النار على شكل رجل كرية المنظر، يحرك النار ويوقدها ويسعى حولها. ورأى سيدنا ابراهيم في الجنة على شكل رجل طويل، لا يكاد يرى رأسه، طويل في السماء، وحوله كل مولود مات على الفطرة، كما رأى منزله في الجنة ^(٢). وهذا الإسراء والمعراج الذي حصل

(١) البخاري، الصحيح، كتاب التعبير، ج ٩ ص ٤٤ رقم الحديث (٧٠٤٧).

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٢ ص ٢٢٧-٢٣١.

لرسول الله ﷺ في المنام وهو في المدينة هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرِّءْيَا الَّتِي أُرِينَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحْوِفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ (٦). فقد بين الله في هذه الآية أن ما رآه رسوله محمد عليه السلام من رؤيا عندما أسرى به في المنام من غرائب وعجائب، وقد استبعدها بعض الناس، وكذلك شجرة الزقوم الملعون آكلها، التي ذكرها الله، أنها تنبت في قاع جهنم لتكون طعاماً لأهل جهنم، إنما كان ذلك امتحاناً للمنافقين والكافرين ليميز الطيب من الخبيث، وتخويفاً لهم من عقاب الله بسبب كفرهم أو معاصيهم كالزنا وأكل الربا، إلا أن ذلك لم يزداهم إلا زيادة في الذنوب والمعاصي، وقالوا منكرين لشجرة الزقوم التي تنبت في قاع جهنم: النار تحرق الشجر فكيف ينبت فيها.

وحصول الإسراء والمعراج لرسول الله ﷺ يقظة بروحه وجسده، ثم حصولهما له في المدينة بعد الهجرة في المنام سبباً اختلافاً عند بعض العلماء في كيفية حصولهما.

قال ابن حجر: « وقع في ذلك اختلاف، فقيل كانا في ليلة واحدة في يقظته، ﷺ وهذا هو المشهور عند الجمهور، وقيل: كانا جميعاً في ليلة واحدة في منامه، وقيل: وقعا جميعاً مرتين في ليلتين مختلفتين، إحداهما يقظة والأخرى مناماً، وقيل كان الإسراء إلى بيت المقدس خاصة في اليقظة، وكان المعراج مناماً، إما في تلك الليلة أو في غيرها - هذه أربعة مذاهب ذكرها ابن حجر - ثم قال: والذي ينبغي أن لا يجري فيه الخلاف، أن الإسراء إلى بيت المقدس كان في اليقظة لظاهر القرآن، ولكون قريش كذبتة في ذلك، ولو كان مناماً لم تكذبه فيه ولا في أبعد منه» (٢).

وممن زعم بأن الإسراء والمعراج كان رؤيا من الله لرسول الله ﷺ في منامه معاوية بن أبي سفيان، فقد روى ابن هشام في سيرته عن محمد بن إسحق بسنده إلى معاوية بن أبي سفيان قال: كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة (٣).

(١) سورة الإسراء آية ٦٠.

(٢) ابن حجر، الفتوح، ج ١، ص ٦٠، رقم الحديث (٣٤٩).

(٣) سيرة ابن هشام تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ص ٤٠-٤١.

وقول معاوية هذا لا يعتمد عليه، لأنه عندما أسري برسول الله ﷺ من مكة بروحه وجسده لم يكن معاوية قد أسلم، إذ أنه أسلم مع أبيه بعد فتح مكة، أي بعد هذا الإسراء والمعراج بما ينوف عن عشر سنوات، كما أنه يخالف ما دلت عليه آية الإسراء وما روي عن أم هانئ رضي الله عنه. ونسب إلى السيدة عائشة أنها قالت: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه، وهذا الخبر رواه ابن هشام عن ابن إسحق ولكن بسند منقطع، قال حدثني بعض آل أبي بكر: أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى به بروحه»^(١). هذا الخبر منقطع السند، لأن ابن إسحق لم يذكر اسم من روى عنه هذا الخبر، فهو ضعيف، ومما يدل على عدم صحته ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها، هو أن الإسراء حصل له وهو عند ابنة عمه أم هانئ رضي الله عنها وروايتها تؤكد أنه كان بروحه وبجسده، ولم يكن رسول الله ﷺ قد تزوج عائشة، فإنه قد عقد عليها قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوجها إلا بعد هجرته إلى المدينة بسنة على الأقل، على أنه إن صح هذا الخبر عنها، فيكون محمولاً على الإسراء والمعراج الذي ورد في حديث سمرة بن جندب، وهو أنه رأى في المنام عذاب العصاة من آكلي الربا وغيرهم، ورأى خازن النار وشجرة الزقوم.

فهذه هي حقيقة الإسراء والمعراج كما ذكرهما القرآن الكريم وكما ورد ذكرهما في الحديث، بناء على أصح الروايات سنداً وامتناً والله أعلم.

وقت فرضية الصلاة

اختلف العلماء في وقت فرضية الصلاة.

فذهب طائفة من العلماء بأن الصلاة فرضت في أول ما أوحى إليه عليه الصلاة والسلام أي في السنة الأولى من البعثة وذهبت طائفة أخرى من العلماء أن الصلاة فرضت في السنة العاشرة من

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠-٤١.

البعثة في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب وهو المشهور بين الناس .

استدل الفريق الأول بما يلي:

الدليل الأول: ما رواه بن هشام عن محمد بن إسحق قال: - حدثني بعض أهل العلم أن الصلاة أقرضت على رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فأنفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليرى كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها ليرىها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل فصلت بصلاته^(١).

قال الأستاذ محمد الصادق عرجون عميد كلية أصول الدين الأسبق في الأزهر: في كتابه محمد رسول الله قال ابن سيد الناس في كتاب العيون بعد أن أورد رواية ابن إسحق: كذا ذكره ابن إسحق مقطوعاً. وقد وصله الحارث بن أسامه، فرواه بسنده إلى الزهري عن عروة عن أسامة عن أبيه زيد بن حارثة، ثم قال صاحب كتاب العيون: ورويناه عن طريق ابن ماجه عن ابراهيم بن محمد الفريابي عن حسان بن عبد الله عن ابن هبيعة عن عقيل عن الزهري بسنده بمعناه، قال: وقد روي عن البراء بن عازب وابن عباس رضي الله عنهما، وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك أول من الفريضة أي أول فرائض الإسلام هي الصلاة^(٢).

(١) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ج٢ ص٧. والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٦٠-٢٦١.

(٢) محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ﷺ، مرجع سابق ج١ ص٥٩٩.

الدليل الثاني: ما ورد في حديث عفيف الكندي الذي أخرجه صاحب (العيون) من طريق ابن إسحق، وهو مخرج في سيرته قال عفيف: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر، ويبيعه أيام المواسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس: ما هذا الدين؟ قال: هذا دين محمد بن عبد الله بن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب، قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه.

قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعاً^(١).

الدليل الثالث: وأخرج ابن إسحق في سيرته أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبي طالب، ومن جميع أعمامه: وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا كذلك، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا^(٢). ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجنبي إليه وأعاني عليه أو كما قال، فقال أبو طالب: أي ابن أخي إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت^(٣).

وقال الأستاذ محمد الصادق العرجون قال: ابن جرير الطبري: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب النبي ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم،

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٩٩.

(٢) محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ﷺ، منهج رسالة دار القلم ط ٣ ٢٠٠٩ ج ١ ص ٥٩٨-٥٩٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٢٦٣-٢٦٤.

وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فاقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى جمل فشجّه فكان أول دم أريق في الإسلام^(١).

نقول هذه روايات أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً وهم زيد بن حارثة، والبراء بن عازب، وابن عباس، وعفيف الكندي تثبت أن الصلاة فرضت أول ما أوحى إلى رسول الله ﷺ بما يقارب قبل عشر سنوات من الإسراء والمعراج.

الدليل الرابع: ما رواه محمد بن إسحق قال: وكان فيما بلغني عن أم هاني بنت أبي طالب رضي الله عنها واسمها هند، في مسرى رسول الله ﷺ إنها تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الأخرى ثم نام، ونمنا فلما كان قبيل الفجر أهبنا (أيقظنا) ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هاني، لقد صليت معكم العشاء الأخرى كما رأيت في هذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف رداءه فتكشف عن بطنه كأنه قبطية مطوية، فقلت له يا نبي الله، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدثنهموه قالت: قلت لجارية لي حبشية: ويحك؟ اتبعي رسول الله ﷺ حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد؟ فإننا لم نسمع بمثل هذا قط، قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأفرهم حس الدابة، فنفر لهم بعير فدللتهم عليه، وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى كنت بضحنان (جبل بناحية تهامة) مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه شيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان آية ذلك، أن عيرهم الآن قد تصوب (تهبط) من البيضاء (عقبة قرب مكة) ثنية التنعيم، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان، إحداهما سوداء والأخرى برقاء.

قالت: فابتدر قوم الثنية فلم يلقهم أول ما لقيهم الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملؤاً ماءً ثم غطوه وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء. وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله لقد أنفرننا في الوادي الذي

(١) محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ﷺ، مرجع سابق ج ١ ص ٥٩٨.

ذكر، وندّ لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه^(١).

الدليل الخامس: وهو موافق ومؤيد لما ورد في الدليل الرابع وهو ما أخرجه البزار والطبراني وصححه البيهقي في الدلائل من حديث شداد بن أوس، قال قلنا يا رسول الله كيف أسري بك، قال صليت صلاة العتمة بمكة، فأتاني جبريل بدابة فذكر الحديث في مجيئه بيت المقدس وما وقع له فيه، قال ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا فذكره قال ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة هذا ما ذكر ابن حجر في فتح الباري كتاب مناقب الأنصار باب حديث الإسراء^(٢).

الدليل السادس: ذكر الأستاذ محمد الصادق عرجون عن ابن إسحق أن أبا طالب قال لعلي: أي بني ما هذا الذي أنت عليه؟ قال: يا أبت آمنت برسول الله ﷺ وصدقت بما جاء به وصليت معه لله، وأتبعته فقال له أبوه: أما أنه لم يدعك إلا لخير فالزمه.

الدليل السابع: ورد الأمر بالصلاة في سورة المزمل بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٣) وهذه السورة قد نزلت بإجماع الصحابة في السنة الأولى من البعثة كما ورد نهي الكافرين لرسول الله ومن معه عن أداء الصلاة في سورة العلق بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^(٤).

استدل الفريق الثاني:

بما أورده البخاري في صحيحه عن قصة المعراج في ثلاث روايات مختلفة وجميعها في سندها عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ج ٢ / ص ٤٣-٤٤.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، الطبعة السلفية ج ٧ ص ١٩٨.

(٣) سورة المزمل الآية ٢٠.

(٤) سورة العلق الآيات ٩-١٠.

الرواية الأولى: فقد أوردها في صحيحه في كتاب الصلاة في باب «كيف فرضت الصلوات في الإسراء» وهو حديث طويل جاء فيه: حدثنا يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمه وأيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل، قال هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ، فقال أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فقال رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى! فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والإسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح، قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة.

قال أنس: فلما مر جبريل بالنبى ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح، قلت من هذا؟ قال: هذا إدريس، ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح، قلت من هذا؟ قال: هذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى مستوى أسمع فيه صرير الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟

قلت فرض الله على أمّتي خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت وضع شطرها، فقال راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعته فوضع شطرها فرجعت عليه فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فقلت: استحيت من ربي، ثم انطلق بي، حتى انتهى إلى سدره المنتهى، وغشيتها من ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا بها حبايل اللؤلؤ، وإذا تراها المسك»^(١).

أقول: إلى هنا جاء نص الرواية، ولم تذكر رجوعه، وقد قال ابن حجر معلقاً على نص الحديث: «وقد روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة، وكل طرده في الصحيحين تدور على أنس، مع اختلاف أصحابه عنه، فرواه الزهري عنه عن أبي ذر كما في هذا الباب، ورواه قتادة عنه عن مالك بن صعصعة، ورواه شريك ابن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا وساطة، وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر»^(٢).

أي إن الروايات الثلاث في سندها أنس بن مالك رضي الله عنه إلا أن هذه الرواية والرواية الثانية بوساطة عن رسول الله ﷺ.

أما الرواية الثالثة فهي عن أنس عن رسول الله ﷺ بلا وساطة وفي سياق كل منهم عنه ما ليس في الآخر.

الرواية الثانية: فقد وردت في باب المعراج، قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا هذبة ابن خالد، حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه «أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة الإسراء قال: يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته - وسمعتة يقول من قصه إلى شعرته -

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، وعبد العزيز بن باز، ج ١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء رقم الحديث ٣٠٤٩.

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء.

فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي، ثم خشني، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض - فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس نعم - يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال محمد. قال: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم. فقال هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا: قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة. قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت، فردا، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا إدريس قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. قال: خلصت فإذا هارون. قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك: قال: أبكي لأن غلاماً بعث

بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. ثم رفعت إلى سدرت المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات! ثم رفع بي إلى البيت المعمور. ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم. فرجعت فمررت على موسى، فقال بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، إني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشرة، فرجعت إلى موسى، فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فأرجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال سألت ربي حتى استحيت، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت نادى منادٍ أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي»^(١).

الرواية الثالثة: وقد ورد في كتاب التوحيد باب ما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢). قال البخاري حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني سلمان عن شريك ابن

(١) فتح الباري، ج ٧ ص ٢٠١-٢٠٢، مصدر سابق.

(٢) فتح الباري ج ١٣ كتاب التوحيد باب ٣٧ ما جاء في قوله عز وجل: (وكلم موسى تكليماً) ص ٤٧٨-٤٧٩ رقم الحديث ٧٥١٧. والصحيح، ج ٥ ص ٥٢ رقم الحديث ٣٨٨٧.

عبد الله، أنه قال: سمعنا ابن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ، من مسجد الكعبة، إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال: أولهم أيهم هو؟ فقال: أوسطهم هو خيرهم، فقال أحدهم خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة، فلم يره حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فهؤلاء منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاد يده، (يعني عروق حلقة) ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناده أهل السماء، من هذا؟ قال جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قال: وقد بعث؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بمَ يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك فسلم عليه، فسلم عليه، ورد عليه آدم وقال مرحباً وأهلاً بابني نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا، بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل: قال هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم نظر في السماء فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هن مسك أذخر، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك. ثم عرج إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت الأولى، من هذا؟ قال: جبريل؟ قالوا ومن معك قال محمد ﷺ قالوا وقد بعث إليه قال نعم، قالوا مرحباً به وأهلاً، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، وقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية، ثم عرج به إلى الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به على السادسة قالوا به مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء، قد ساهم فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بفضل كلامه لله، فقال موسى: رب، لم أظن أن ترفع علي أحداً، ثم علا به فوق ذلك بما لم يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى!! فأوحى الله فيها أوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط

حتى بلغ موسى، فأحتبسه موسى فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك، قال: عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل، كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار، فقال وهو مكانه: يا رب، خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فأحتبسه، فلم يزل يرده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فضعفوا، فتركوه، فأمتك اضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة، فقال: يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا. فقال الجبار: يا محمد قال: ليك وسعديك، قال: انه لا يبدل القول لدي، كما فرضت عليك في أم الكتاب، قال: فكل حسنة بعشر أمثالها هي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلت؟ فقال: خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها، قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول الله ﷺ يا موسى، والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه، قال: فاهبط باسم الله قال: واستيقظ وهو في المسجد الحرام». هذه روايات ثلاث، وردت في صحيح البخاري، أوردها ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري:

الرواية الأولى: وردت في الجزء الأول من كتاب فتح الباري في كتاب الصلاة في الباب الأول منه، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء.

والرواية الثانية: وردت في الجزء السابع منه في كتاب مناقب الأنصار باب المعراج. والرواية الثالثة جاءت في الجزء الثالث عشر منه، في كتاب التوحيد باب ما جاء في قوله عز وجل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤)، وطرقه كلها تدور على أنس بن مالك، مع اختلاف أصحابه عنه.

فرواه الزهري عنه عن أبي ذر كما في كتاب الصلاة باب كيف فرضت الصلاة، ورواه قتاده عنه

عن مالك بن صعصعة كما في باب حديث المعراج، ورواه شريك بن أبي نمر وثابت البناني عنه عن النبي ﷺ بلا وساطة، وفي سياق كل منهم عنه ما ليس عند الآخر كما قال ابن حجر^(١).

قال أصحاب المذهب الأول في الرد على أدلة المذهب الثاني ما يلي:

هذه الروايات مختلفة ومتناقضة، فيما بينها، يظهر ذلك لكل ذي لب لمن قرأها وفكر فيها

جاء فيها من أقوال، من ذلك:

أولاً: جاء في الرواية الثالثة التي رواها شريك عن أنس بن مالك أن الإسراء والمعراج حصل

لرسول الله ﷺ قبل أن يوحى إليه وهو نائم، وهو ما جاء في أول هذا الحديث قول شريك:

«سمعت ابن مالك يقول ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن

يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام».

وقد أكد هذا في آخر الحديث: «فاستيقظ وهو في المسجد الحرام».

هذه الرواية تخالف الرواية الأولى والثانية، وما سبق بيانه، وهو أن الإسراء والمعراج كانا

بعد البعثة، وأن الإسراء الذي ورد ذكره في سورة الإسراء حصل وهو يقظان، وكان بروحه

وجسده وذلك كما دلت عليه الآية الكريمة.

ثانياً: مسألة كيفية فرض الصلوات الخمس فقد ورد في هذه الروايات الثلاث أن الله

فرض على المسلمين في ليلة المعراج خمسين صلاة في اليوم والليل، وأنه عندما يكون يمر

بموسى عليه السلام يحتبسه ويأمره أن يراجع ربه، ليخفف عنه عن أمته، لأن أمته لا تستطيع

ذلك، ثم يرجع الرسول ﷺ إلى ربه وطلب منه التخفيف، فيخفف عنه وعن أمته.

ففي الرواية الأولى: المنسوب إلى أنس بن مالك إنه رواها عن أبي ذر - وكلاهما منها براء -

راجع ربه أربع مرات، بناء على توجيهات موسى عليه السلام، حينما فرض الله عليه وعلى أمته

خمسين صلاة وكان في كل مرة يخفف نصفها - على أنها في المرة الثانية لا تنصف لأنه أصبح

عددها خمسة وعشرين.

(١) فتح الباري ج ١ ص ٤٦٠، مصدر سابق.

وفي الرواية الثانية: المنسوب إلى أنس بن مالك أيضاً أنه رواها عن مالك ابن صعصعة، فإنه راجعه خمس مرات وقد خفض في كل مرة عشر صلوات، وعندما رجع إلى موسى في المرة الأخير طلب منه موسى أن يراجع ربه، فيسأله التخفيف لأتمته قال: سألت ربي حتى استحيت منه ولكن أَرْضَى وَأَسْلَم.

وفي الرواية الثالثة: التي رواها شريك عن أنس بن مالك، المنسوبة لرسول الله ﷺ - والرسول منها بريء - فكان يضع عنه كل مرة عشر صلوات أيضاً وإنه لم يزل يرده موسى إلى ربه حتى صارت خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد - والله لقد راودت قومي على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً، وأبداناً وأبصاراً، وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، في كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال: يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال إنه لا يبدل القول لدي، كما فرضت عليك في أم الكتاب، قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك.. إلخ.

قالوا: كيف يقول الله عز وجل: ﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٢٩). ثم يصدق بعد ذلك أن الله غير حكمه وقوله، في فرضية الصلاة، خمس مرات أو أربعاً على اختلاف بالنسبة لهذه الروايات حتى جعلت خمساً بعد خمسين؟ بل كيف يفرض الله على هذه الأمة خمسين صلاة في اليوم واللييلة، في أول الأمر، والله سبحانه يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢). وإن هذه الروايات تذكر بأنه لولا موسى وأمره له بالرجوع ومراجعة ربه في ذلك لبقيت خمسين صلاة مفروضة على هذه الأمة!!

والعجيب أن النبي ﷺ أطاع أمر الله في أول تكليف له بخمسين صلاة، ثم مر بأبيه إبراهيم

(١) سورة ق: آية ٢٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

عليه السلام في السماء السابعة، ثم بموسى في السماء السادسة - في الرواية الثانية - فاستوقفه موسى، وسأله عما فرض الله عليه وطلب منه الرجوع، وفي كل مرة كان يطلب منه التخفيف ويطيعه الرسول ﷺ.

قالوا: من أحق بسؤال الرسول ﷺ، عما فرض عليه وعلى أمته سيدنا ابراهيم جد هذه الأمة والذي مر به في السماء السابعة قبل أن يمر بموسى، أم موسى هو الأحق بالرأفة والشفقة على هذه الأمة؟.

وهذا مما يدل على أن هذه الروايات كلها من الإسرائيليات التي دست في الحديث النبوي، فابراهيم عليه السلام هو الأحق بالعطف على رسول الله ﷺ وعلى أمته، لأن رسالة محمد ﷺ هي استجابة لدعوة سيدنا ابراهيم، وهو الذي أسكن أباه إسماعيل وذريته عند البيت الحرام.

وهنا سؤال: كيف يقع النسخ لحكم شرعي خمس مرات في ليلة واحدة، وقبل الفعل، بل قبل التبليغ لهذه الأمة؟ وهذا مخالف لما أجمع عليه علماء أصول الفقه، الذين نصوا على أن النسخ لا يتصور قبل التبليغ بالتكاليف، وفي هذه الروايات الثلاث وقع النسخ بالنسبة لعدد الصلوات خمس مرات قبل التبليغ.

بل هناك رواية أخرى رواها الإمام مسلم عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أيضاً أن التخفيف كان خمساً خمساً، أي أن النسخ حصل سبع مرات لفرضية الصلاة في ليلة واحدة^(١).

وهذا لا يتصوره عقل سليم، بأن يصدر هذا التبديل والتغيير من الله سبحانه في فريضة فرضها وقضى بها على عباده.

على أن الملوك والحكام من الناس إذا قضوا بأمر لا يتراجعون عنه، ولا يقبلون لأنفسهم مثل هذا التراجع في أمر يصدرونه لرعاياهم، فكيف نصدق بهذا التبديل والتغيير من الله في فريضة فرضها وهو العليم الخبير بعجز الناس عن القيام بأداء الخمسين صلاة في اليوم

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ - ١٠١ باب الإسراء برسول الله ص الطبعة الأولى بالمطبعة العمرة في دار الخلافة العلية ١٣٣٣ هـ.

والليلة، وكيف يمكن الجمع بين التصديق بتبديل حكمه في تلك الفريضة عدة مرات مع وجوب الإيذان بقوله تعالى: ﴿لَا نُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾^(١). وقوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢).

وقد ورد ما ينافي كل هذه الروايات بالنسبة للوقت الذي فرضت فيه الصلاة، وهو أن الصلاة فرضت قبل ليلة الإسراء والمعراج وهو ما سبق ذكره وهو أن أم هانئ بنت عم رسول الله ﷺ كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نام عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخر، ثم نام ومننا، فلما كان قبيل الفجر أيقظنا رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين...^(٣).

كما قال ابن حجر: «واحتج من زعم أن الإسراء كان مفرداً بما أخرجه البزار والطبراني وصححه البيهقي في الدلائل، من حديث شداد بن أوس قال: «قلنا يا رسول الله كيف أسري بك؟ قال: صليت صلاة العتمة بمكة فأتاني جبريل بدابة» فذكر الحديث في مجيئه بيت المقدس وما وقع له فيه قال: «ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا» فذكره ثم قال: «ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة»^(٤).

كذلك يقال: كيف لا تحقق رحمة الله بعباده المسلمين في فريضة الصلاة إلا بعد استدراك من موسى الله سبحانه، وتوجيه منه، مع أن الله هو الرحمن الرحيم بخلقه، من غير استدراك أو توجيه من أحد؟.

كما أنه يقال في فرضية خمسين صلاة في اليوم والليلة على كل مسلم شيء لا يطاق، والله يقول

(١) سورة يونس: آية ٦٤.

(٢) سورة ق: آية ٢٩.

(٣) انظر سيرة ابن هشام تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ج ٢ ص ١٤٣-١٤٤ مصدر سابق.

(٤) فتح الباري، ج ٧ ص ١٨٩.

في كتابه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١). فكيف يكلف الله هذه الأمة بأمر لا تطيقه، يعدل عن ذلك بعد اعتراض وتوجيهات من أحد أنبيائه ورسوله، والله سبحانه وتعالى علام بخلقه بما يطيقونه وما لا يطيقونه، ولا يحتاج إلى توجيه من أحد؟.

ثانياً: ورد في الرواية الثالثة، التي رواها الإمام البخاري عن أنس بن مالك وصف هذه الأمة على لسان موسى بضعف قلوبهم وأبدانهم وأجسادهم وأبصارهم وأسماعهم، وأن بني إسرائيل خير منهم في ذلك إذ جاء فيه أن موسى قال لرسول الله ﷺ بعد أن صارت خمس صلوات، بعد أن احتبسه: «يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أذنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساماً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً!! فارجع فليخفف عنك ربك» فيصدقه رسول الله في ذلك، فيرجع إلى ربه ويقول: «يا رب، إن أمتي ضعفاء في أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا»^(٢).

فهذا القول الذي جاء في هذه الرواية، في وصف الأمة الإسلامية، على لسان موسى عليه السلام، بأنها أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً من بني إسرائيل وبأنهم لا يطيقون القيام بخمس صلوات في اليوم واللييلة، يخالف ما ورد به وصفهم في التوراة التي نزلت على موسى كما ذكر الله في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾^(٣).

فهذا كلام مفترى على سيدنا موسى عليه السلام، وهو من وضع إلهود، ومن الإسرائيليات التي اشتملت عليها معظم كتب الحديث والتفسير، والتي ينبغي على علماء المسلمين المخلصين تبيينها.

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦.

(٢) البخاري، الصحيح، ج ٩، ص ١٤٩.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

كما أن هذا الكلام يتناقض مع قوله تعالى في وصف الصحابة رضوان الله عليهم بقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥). فقد وصف الله سبحانه صحابة رسول الله بالقوة والشدة، وأن الواحد منهم يغلب عشرة من الكافرين، وبنو إسرائيل يعدون من الكافرين كما وصفهم بالتوراة بأنهم أشداء على الكفار، فكيف يأتي في هذا الحديث بأنهم أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً من بني إسرائيل، وذلك على لسان موسى، ويصدقه رسول الله ﷺ في دعواه؟ والله إن هذا افتراء على سيدنا موسى وعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وهو يناقض ما ورد في القرآن وما ورد في التوراة أيضاً.

وبعد بيان عدم صحة فرض خمسين صلاة وتنزيلها إلى خمس، ووصف الأمة الإسلامية بالضعف في أجسادهم وقلوبهم وأبدانهم وأبصارهم وأسماعهم وأنهم أضعف من بني إسرائيل، لأن ذلك يخالف ما ورد في كتاب الله في وصفه صحابة رسول الله.

ثالثاً: ورد في رواية شريك عن أنس بن مالك أيضاً، أن رسول الله ﷺ رأى الله بصره عند سدرة المنتهى، وأن الله سبحانه دنا منه وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى.

نقول: إن ما ورد في هذا الحديث وهو أن سيدنا محمد ﷺ رأى الله مناقض لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣). كما أنه يناقض قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء إنَّه على حكيم﴾ (٥١). (٢)

ونقل ابن حجر في فتح الباري قول الخطابي في إنكاره لصحة هذا الحديث وهو قول ابن حجر: «قال الخطابي: ليس في هذا الكتاب - يعني صحيح البخاري - حديث أشنع ظاهراً ولا

(١) سورة الأنفال آية ٦٥.

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣.

(٣) سورة الشورى آية ٥١.

أشنع مذاقاً من هذا الفصل، فإنه يقتضي تحديد المسافة بين احد المذكورين وبين الآخر، وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا إلى ما في التدلي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلق من أعلى إلى أسفل، قال: فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعاً عن غيره، ولم يعتبره بأول القصة وآخرها، اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قصاراه ما ردَّ الحديث من أصله، وأما الوقوع في التشبيه والتمثيل وهما خطأان مرغوب عنهما، وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال، فإنه مصرح فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله «وهو نائم» وفي آخره «استيقظ»، وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول على الوجه الذي يجب أن يصرف إليه معنى التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا تحتاج إلى ذلك بل تأتي كالمشاهدة.

قال؟ قلت: وهو كما قال، ولا التفات إلى من تعقب كلامه بقوله في الحديث الصحيح، إن رؤيا الأنبياء وحي فلا يحتاج إلى تعبير، لأنه كلام من لم يمعن النظر في هذا المحل، فقد تقدم في «كتاب التعبير أن بعض رؤيا الأنبياء تقبل التعبير، وتقدم عن أمثلة ذلك قول الصحابي له ﷺ في رؤيا القميص فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين^(١)، وفي رؤية اللبني؟ قالوا: وما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم^(٢) إلى غير ذلك، لكن جزم الخطابي بأنه كان في المنام متعقب بما تقدم تقريره قبل.

(١) أقول: حيث رؤيا القميص ورد في البخاري في باب القميص في المنام، وهو ما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ((بيننا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قميص، منها ما يبلغ الثدي، منها ما يبلغ دون ذلك، ومر على عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا وما أولته يا رسول الله؟ قال: «الدين» وقد رواه البخاري بإسنادين مختلفين عن أبي سعيد الخدري، أنظر البخاري، الصحيح، ج ١ ص ١٣، رقم الحديث ٢٣.

(٢) تفسير اللبني بمعنى العلم، هو ما رواه عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بيننا أنا نائم أتيت بقدر لبن فشربت منه حتى أنى لأرى اللبني يخرج من أطرافي: فأعطيت فضلي عمر بن الخطاب، فقال من حوله: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال العلم» رواه البخاري في كتاب التعبير باب إذا جرى اللبني في أطرافه أو أظفاره، نقول؟ وفي كتاب التعبير للبخاري كثير من التعبير من رؤيا الأنبياء، ج ٩، ص ٣٥، رقم الحديث ٧٠٠٧.

ثم قال الخطابي مشيراً إلى دفع الحديث من أصله: بان القصة بطولها إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه لم يعزها إلى النبي ﷺ ولا نقلها عنه، ولا أضافها إلى قوله، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي، إما من أنس وإما من شريك، فإنه كثير التفرد بالألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة^(١). انتهى كلام الخطابي.

كما أنكرت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عما ورد في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ رأى ربه، فقد روى الإمام أحمد عن عامر قال: أتى مسروق لعائشة فقال: يا أم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قف^(٢) شعري لما قلت؟ أين أنت من ثلاث من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٣)، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾^(٤). ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾^(٥)، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٦) ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين^(٧).

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾^(٨)، ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى﴾^(٩)، فقال: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله

(١) فتح الباري: ج ١٣ ص ٤٨٣.

(٢) قف: أنضم بعضه إلى بعض (القاموس المحيط).

(٣) سورة الأنعام آية ١٠٣.

(٤) سورة الشورى آية ٥١.

(٥) سورة لقمان آية ٣٤.

(٦) سورة المائدة آية ٦٧.

(٧) البخاري، الصحيح، ج ٦ ص ٤٦، قم الحديث (٤٨٥٥). وأخرجه الإمام أحمد، انظر: مختصر ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٩ تفسير سورة النجم.

(٨) سورة التكويد آية ٢٣.

(٩) سورة النجم آية ١٣.

ﷺ عنها. فقال: «إنما ذلك جبريل، لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين» رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض» وذلك في أجياد، ومرة عند سدره المنتهى^(١).
 وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أتى أراه؟» وفي رواية: «رأيت نوراً»^(٢). وروى البخاري في صحيحه عن الشيباني قال: سألت زراً عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾^(٣). قال: حدثنا عبد الله بن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستائة جناح^(٤)، قال ابن كثير بعد أن ذكر ذلك: فعلى ما ذكرناه يكون قوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ معناه فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بوساطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح^(٥).

هذه الرواية الثالثة التي رواها البخاري في صحيحه، مع مخالفتها لكتاب الله ولما روي عن عائشة رضي الله عنها وعن أبي ذر، وعبد الله بن مسعود، فهي مخالفة للرواية الأولى والثانية التي رواها البخاري نفسه أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

رابعاً: بالنسبة للزمن الذي حصل فيه الإسراء والمعراج:

إن رواية البخاري عن أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنهما أنها كانا بعد البعثة، وكذلك رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، أما رواية شريك بن عبد الله عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ فإن المعراج كان قبل أن يوحى إليه !!!

قالوا: هذا أمر شاذ غريب لا يصدق عقل إنسان، سواء كان يقظة أو في المنام فلذلك أنكرها

كثير من العلماء.

(١) مسلم، الصحيح، تحقيق محمد فؤاد، ج ١ ص ١٥٩، رقم الحدي (١٧٧). ومختصر ابن كثير، ج ٣ ص ٣٩٩.

(٢) مسلم، الصحيح، ج ١ ص ١٦١ رقم الحديث (٢٩١، ٢٩٢)، تحقيق محمد فؤاد.

(٣) سورة النجم الآيات ٩-١٠.

(٤) البخاري، الصحيح، ج ٤، ص ١١٥، رقم الحديث ٣٢٣٢.

(٥) فتح الباري: ج ٣ ص ٣٩٨. مرجع سابق.

قال ابن حجر في شرحه للبخاري: (وقد أنكر هذه الرواية الخطابي وابن حزم وعبد الحق والقاضي عياض والنووي) وقال ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري: (وقد اختلف في وقت المعراج، فقيل كان قبل المبعث، وهو شاذ، إلا أن يجعل على أنه وقع حيثئذ في المنام).
 وقال: وذهب الأكثرون إلى أنه كان بعد المبعث، ثم اختلفوا، فقيل قبل الهجرة بسنة، قاله ابن سعد وغيره وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه، وهو مردود، فإن في ذلك اختلافاً كثيراً يزيد على عشرة أقوال، منها ما حكاه ابن الجوزي أنه كان قبلها بثمانية أشهر، وقيل بسنة أشهر، وحكى هذا الثاني أبو الربيع ابن سالم، وحكى ابن حزم مقتضى الذي قبله لأنه قال: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل بأحد عشر شهراً جزم به إبراهيم الحربي حيث قال: كان في ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، ورجحه ابن المنير في شرح السيرة لابن عبد البر، وقبل الهجرة بستين وشهرين حكاه ابن عبد البر، وقيل قبلها بسنة وثلاثة أشهر حكاه ابن فارس، وقيل بسنة وخمسة أشهر قاله السدي، وأخرجه من طريق الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال، أو في رمضان على إلغاء الكسرين منه، وفي ربيع الأول به جزم الواقدي، وعلى ظاهره ينطبق ما ذكره ابن قتيبة وحكاه ابن عبد البر أنه كان قبلها بثمانية عشر شهراً، وعن ابن سعد عن ابن أبي سبرة أنه كان في رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً، وقيل: كان في رجب، حكاه ابن عبد البر وجزم به النووي في الروضة، وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين حكاه ابن الأثير، وحكى عياض وتبعه القرطبي والنووي عن الزهري أنه كان قبل الهجرة بخمس سنين ورجحه عياض ومن تبعه^(١).

خامساً: بالنسبة للمكان الذي حصل منه الإسراء والمعراج:

رواية أنس بن مالك عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل» أي إن المعراج كان من بيت رسول الله ﷺ. ورواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أنه كان في الحطيم، وقيل في الحجر، عندما كان مضطجعاً، وإن الذي جاءه كان جبريل بمفرده.

(١) فتح الباري: ج ٧ ص ٢٠٣، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي وإخراج محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية.

أما رواية شريك، عن أنس بن مالك فإن الإسراء والمعراج حصل له عندما كان نائماً في المسجد الحرام، وان الذين جاءوا إليه كانوا ثلاثة وليس جبريل بمفرده، وفي رواية الواقدي بأسانيده أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبري وابن إسحق أنه بات في بيتها، قال: «ففقده من الليل فقال إن جبريل أتاني».

فأي رواية من هذه الروايات صحيحة؟

قالوا - كما سبق بيانه - إن الصحيح هي رواية أم هانئ بنت عم رسول الله ﷺ، وهي ليست من الروايات الثلاث التي رواها الإمام البخاري.

سادساً: بالنسبة لحادثة شق الصدر، واختلاف الروايات بالنسبة لمكانها وزمانها.

فرواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن عملية شق الصدر كانت في الحطيم أو الحجر، وأن جبريل شق ما بين نحره على أسفل بطنه، وأنه استخرج قلبه، وأتى بطست مملوءة إيماناً فغسل قلبه، ثم حشي ثم أعيد. أي إن الذي حُشِيَ به قلبه بعد أن استخرج من صدره كان إيماناً فقط، ولم يحش حكمة كما ورد في الرواية الأولى.

وأما رواية شريك عن أنس بن مالك فإن العملية حصلت عند بئر زمزم وليست في الحطيم، بل بعد أن حملته الملائكة إليه، وأن الذي تولى العملية جبريل عليه السلام، حيث شق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ إلى صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تَوْر من ذهب محشو إيماناً وحكمة، فحشى به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطقه.

قالوا: إن حادثة شق الصدر، التي جاءت في هذه الروايات، مختلفة متناقضة، حيث ذكرت إحداها أنها كانت في بيته وذكرت أخرى أنها كانت في الحجر، وذكرت الثالثة أنها كانت عند بئر زمزم، وذكر ابن حجر أنها حصلت له أربع مرات:

الأولى: وهو صغير عند مرضعته حليلة السعدية. فقد روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه

فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره (مرضعته) - فقالوا إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى اثر ذلك المخيط في صدره»^(١).

الثانية: كان ليلة المعراج وقال: كان لاستعداده التلقي الحاصل له في تلك الليلة.

الثالثة: رواها الطيالسي والحارث في مسنديهما في حديث عائشة أن الشق وقع مرة أخرى عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء - والله اعلم.

الرابعة: حدثت له وهو ابن عشر او نحوها، في قصة له مع عبد المطلب، أخرجها أبو نعيم في الدلائل.

قالوا: إن مسألة شق الصدر وحشو قلب النبي ﷺ بالإيمان والحكمة، أو حشو قلبه بالإيمان، أو انه حُشي صدره وجوفه وعروق حلقه ينافي قول الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴾ ﴿ ٧ ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّانَاهَا ﴿ ١٠ ﴾ ﴿ ٢ ﴾.

فهذه الآيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان بريئاً طاهراً في بدايته من عيوب الزيغ والانحراف، كما يدل على ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ في الحديث القدسي وهو قول الله تعالى فيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»^(٣).

ويؤيد ذلك أيضا قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٤). كما يناقض ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

(١) انظر فتح الباري: ج ١ ص ٤٦٠. وصحيح مسلم ج ١ ص ١٠١-١٠٢.

(٢) سورة الشمس الآيات ٧-١٠.

(٣) رواه الإمام مسلم، الأحاديث القدسية طبعة وزارة الأوقاف في مصر رقم الحديث: ١٣ ص ٢٦.

(٤) البخاري، الصحيح، ج ٢ ص ٩٤، قم الحديث (١٣٥٨).

سُلْطَنٌ ﴿١﴾، فكيف يجعل للشيطان بعد ذلك حظاً يسكنه في صدور المؤمنين بمن فيهم النبي ﷺ؟ وكيف أخرج حظ الشيطان من قلبه أو صدره وتركه في قلوب عباده المؤمنين؟.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول له رسول الله ﷺ: يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك» (٢)، فهل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حصل له شق الصدر كما حصل لرسول الله ﷺ أربع مرات، أو غسل صدره وقلبه بهاء زمزم وحشي إيماناً وحكمة، أم انه تغلب على الشيطان بدون ذلك؟ بخلاف الرسول ﷺ لم يخرج حظ الشيطان منه إلا بهذه العمليات الأربع؟

نعتقد أنه لا يقدر احد أن يقول ذلك، إلا من نسي قدرة الله وجلاله ورعايته لرسول الله ﷺ منذ ولادته، بل قبل أن تلده أمه.

وكيف يتصور أن الإيمان والحكمة لم يستقرا في قلب النبي ﷺ إلا حشواً وتفريغاً لما جاء بالطست من الجنة، أما المؤمن العادي فيكسبه تأملاً وتفكيراً ودراسة وإطلاعاً وتوفيقاً من الله سبحانه؟!!!.

سابعاً: بالنسبة لرؤية الرسول ﷺ لأنبيا الله في السماء موزعين، بعضهم في السماء الدنيا، وبعضهم في السماء الثانية وبعضهم في السماء الثالثة.. إلخ.

فقد ورد في رواية شريك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن موسى في السماء السابعة، أي أن منزلته أعلى من منزلة جميع الأنبياء بمن فيهم ابراهيم وادم وعيسى عليهم السلام، وعندما مر عليه رسول الله ﷺ، حيث علا به فوجه قال: «رب، لم أظن أن ترفع علي أحداً»!!!.

أما رواية أنس عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وروايته عن مالك بن صعصعة فقد ذكر فيهم أن موسى في السادسة و ابراهيم في السابعة.

(١) سورة الحجر آية ٤٢.

(٢) رواه البخاري: فتح الباري ج٧ ص٤١ باب مناقب عمر بن الخطاب.

وإذا كان سيدنا ابراهيم عليه السلام في السابعة وموسى في السادسة، فلم لم يجسسه ابراهيم عليه السلام ويطلب منه أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف في عدد ما فرض عليه وعلى أمته بدل سيدنا موسى؟ فأيهما كان أحق بالطلب من سيدنا محمد ﷺ أن يراجع ربه ويطلب منه التخفيف؟ سيدنا ابراهيم الذي ينتسب إليه محمد ورسالته هي دعوته لربه عندما أسكن ابنه إسماعيل وذريته عند البيت الحرام وهو قوله: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) أم سيدنا موسى عليه السلام!!

كذلك يقال: إن الروایتين تتعارضان لما رواه البخاري ومسلم أيضاً، في قصة الإسراء والمعراج، عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ رأى سيدنا ابراهيم في الجنة، فأى رواية من هذه الروايات هي الصحيحة؟

كما يقال: من المعلوم أن جميع الأنبياء ماتوا ودفنوا في الأرض كغيرهم من بني آدم، وأن أرواحهم هي التي ترفع إلى السماء عند ربهم في عليين، فكيف يكون كل واحد منهم يجلس في سماء خاصة به؟

ثامناً: بالنسبة لما نسب أن أنساً روى عن أبي ذر أن محمداً ﷺ رأى آدم، وعن يمينه أرواح بنيه من أهل الجنة، وعن شماله أرواح أهل النار، وأنه إذا نظر إلى شماله فرأى أهل النار بكى. قالوا: ظاهر هذه العبارة أن أرواح بني آدم من أهل الجنة والنار في السماء! وهذا معارض ما جاء أن أرواح الكفار في سجين وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، فكيف يكون أرواح الكفار وأرواح المؤمنين في السماء الدنيا كما ورد في هذا الحديث؟

ويدل على عدم وجود أرواح الكفار في السماء الدنيا قوله تبارك وتعالى عن الكفار: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ (٢) وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْتِحُ

(١) سورة البقرة آية ١٢٩.

(٢) سورة غافر آية ٤٦.

لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴿١﴾ فالآية تقرر بأن أرواح الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء، كذلك لا تقبل أعمالهم. فهذا الحديث، وهو حديث آحاد. لا يفيد إلا الظن، وهو يتعارض مع ما ورد في هاتين الآيتين اللتين تفيدان القطع، لذلك فالحديث مردود.

كذلك ما ورد في هذا الحديث «وإذا نظر قِبَل شماله بكى» أي أن آدم عليه السلام كان يبكي وهو في السماء الدنيا.

قالوا: إن آدم عليه السلام يتنعم بنعيم الله وفضله مع النبيين والشهداء والمقربين، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢) فبكاءه وحزنه يناقض ما ورد في الآية، التي ذكر الله فيها حال المؤمنين بعد موتهم بأنه لا يصيبهم الحزن بعد موتهم، فهم من باب أولى لا يكون.

تاسعاً: ما ورد في رواية شريك عن أنس بن مالك قول موسى: «رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً، ثم علا به - برسول الله ﷺ - بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى..» أي أن موسى اعترض على خالقه تفضيل سيدنا محمد عليه، حيث رفعه أعلى درجة منه، فهذا لا يليق بنبي من أنبياء الله، فهي منافسة رخيصة واعتراض سخيف لا يصدر إلا من سفهاء الناس، فكيف ينسب ذلك إلى سيدنا موسى عليه السلام.

بل ورد في الرواية الثانية وهي رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن موسى بكى عندما تجاوزه النبي ﷺ، فقد جاء فيه: (... فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي) (٣).

عاشراً: بالنسبة إلى أن جبريل عليه السلام - كما جاء في الروايات الثلاث - كان يطرق باباً باباً من أبواب السموات السبع، وذلك حتى يفتح له.

(١) سورة الأعراف آية ٤٠.

(٢) سورة البقرة آية ٣٨.

(٣) فتح الباري، ج ٧ ص ٢٠٢، مصدر سابق.

قالوا كيف يصدق أن جبريل عليه السلام، ملك الوحي الذي بوساطته يوحى لأنبياء الله، حيث ينزل صباح مساء بالوحي عليهم، من قبل الله سبحانه، ومنهم رسول الله ﷺ يحتاج إلى إذن في كل مساء من حراسها؟ وذلك عندما كان معه رسول الله ﷺ، ولا يفتح له حتى يسأل بوابها من الطارق ومن معه؟ مع أن أبواب السماء هي أبواب الله الملك القوي الجبار، الذي لا يخشى عدواناً عليه أو على سماواته؟

بل وكيف يجعل الله لها حراساً وبوابين يحمونها من الداخل غير آمن على نفسه وجميع المخلوقات عبيد له؟ فهل يحتاج الله لإغلاقها لحمايتها من مقتحم غاشم بلا إذن كأبواب الملوك والأغنياء الخائفين على ما يملكون من سلطان وأموال؟!!!

الحادي عشر: بالنسبة لما ورد في رواية شريك عن أنس بن مالك عن النيل والفرات، أن عنصرهما أي أصلهما في السماء الدنيا. وهو ما ورد في هذا الحديث «إذا هو أي رسول الله ﷺ عندما كان في السماء الدنيا - بنهرين يطردان فقال: ما هذان يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفرات عنصرهما».

وورد في حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة أن النيل والفرات عند سدرة المنتهى، أي فوق السماء السابعة، فقد ورد فيه قال: - أي قال جبريل - «هذه سدرة المنتهى، وإذا بأربعة انهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: أي رسول الله ﷺ فما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

قالوا: هاتان الروايتان، في قصة الإسراء والمعراج، ظاهرتا التناقض فيما بينهما، كما أنه لا يعقل أحد أو يصدق أن النيل والفرات أصلهما في السماء. والذي يظهر صحة ما ذهب إليه أصحاب المذهب الأول أن الصلوات الخمس فرضت في السنة الأولى من البعثة.

مما سبق يظهر لنا قوة أدلة الفريق الأول من العلماء الذين قالوا بفرضية الصلاة في السنة الأولى من البعثة وضعف أدلة الفريق الثاني الذين قالوا بفرضية الصلاة ليلة الإسراء والمعراج.

فهم قد استدلوا بعدة أدلة رويت عن خمسة من الصحابة هم زيد بن حارثة، والبراء بن عازب، وابن عباس، وعفيف الكندي، وأم هانئ بنت عم رسول الله ﷺ ومعظمهم من أقرب

الناس إليه عندما كان في مكة، وبعضهم صلى معه منذ فرضية الصلاة في أول البعثة كما ذكروا، كزيد بن حارثة وأم هانئ، والتي حصل الإسراء من بيتها كما تقول بعد أن عاد من الطائف وردته ثقيف رداً قبيحاً، فعاد إلى مكة ونام تلك الليلة في بيتها، ثم صلى وصلت معه صلاة العشاء الآخر ثم نام ونامت وصلى الصبح وصلت معه ثم قص عليها ما حصل له من الإسراء به في تلك الليلة إلى المسجد الأقصى، ثم قص ذلك على كفار مكة.

وإن ما استدل به الفريق الثاني إلى صحة ما ذهبوا إليه هو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الإسراء والمعراج، فقد روي هذا الحديث في ثلاثة روايات مختلفة ومتناقضة يستحيل الجمع بينها وجميعها فيها أنس بن مالك.

وأنس بن مالك الذي نسبت إليه الروايات الثلاث لم يكن في مكة التي حصل فيها الإسراء والمعراج، كونه أنصاري من أهل المدينة.

والرواية الأولى وردت بأنه رواها عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه لم يسندها إلى رسول الله ﷺ فهي رواية مرسلة ليست متصلة السند إلى رسول الله ﷺ.

والرواية الثانية رواها أنس ولم يسندها إلى رسول الله ﷺ فهي أيضاً مرسلة غير متصلة السند إلى رسول الله ﷺ.

أما الرواية الثالثة فهي متصلة السند إلى رسول الله ﷺ حيث ذكر أنه سمعها من رسول الله، إلا أن الإسراء والمعراج اللذين وردا فيها كانا مناماً وكانا قبل البعثة، وهذا مخالف لما أجمع عليه جمهور علماء المسلمين ومنهم الفريق الثاني من العلماء فالإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد كما سبق إقامة الدليل على ذلك.

وقد نقل ابن حجر في فتح الباري بالنسبة للرواية الثالثة ما ذكره الإمام الخطابي قوله: ليس في هذا الكتاب (يعني صحيح البخاري) حديث أشنع ظاهراً ولا أشنع مذاقاً من هذا الفصل ورد الحديث من أصله.

وقالوا إن انتقاد بعض الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري وصحيح مسلم لا يُنقص من قيمتهما العلمية، وإنما أصح كتب الحديث، فمجموع ما ورد في البخاري من الأحاديث (٧٣٩٧) ما عدا المعلق والمتابعات، وجملة ما في صحيح مسلم بالمكرر (٤٠٠٠)، فما انتقد من الأحاديث التي وردت فيها لا يساوي ٤٪ من جملة ما ورد فيها.

قال الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف أستاذ الحديث بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر: «انتقد الحفاظ من الأحاديث (١١٠) حديثاً أختص البخاري (٧٨) و(٣٢) حديثاً في صحيح مسلم، كما أختص مسلم (٢١٠) حديثاً أنتقدها الحفاظ من علماء الجرح والتعديل سوى المعلق والموقوف منها^(١).

عرض الدعوة على القبائل:

بعد أن علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ إلى الطائف، وطلب نصرة أهلها لنشر دعوته، أشتد أذى كفار قريش له والتصديهم له في نشر دعوته، فأخذ رسول الله ﷺ يخرج في المواسم والأسواق التي كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة بقول الشعر والخطابة كسوق عكاظ، والمجنة، وفي موسم الحج يعرض نفسه على القبائل التي كانت تحضر تلك المواسم والأسواق، ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه، فكان بعضهم يرد رداً جميلاً، وآخرون يردون رداً قبيحاً، وكان من أقبح القبائل رداً بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب. وطلب منه بنو عامر أن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده، فقال لهم: الأمر لله يضعه حيث يشاء.

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي:

من المعروف أن قريشاً كانت تتابع رسول الله ﷺ أينما حل وحيثما توجه في دعوته، وأصحابه قلة يسومونهم سوء العذاب، ويذيقونهم شديد الأذى وهم صابرون محتسبون تأسياً برسول الله ﷺ في صبره وقوة عزمته، وانتظاراً لوعده الله في تفريج كربهم وذلك

(١) عبد الوهاب عبد اللطيف، المبتكر الجامع بين كتأبي المختصر والمعتصر، طبعة دار الكتب العلمية، ١٩٦٦، القاهرة، ص ١٦٨-١٧١.

بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (١).

وفي أثناء قيام رسول الله ﷺ بتبليغ دعوته قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة، وكان رجلاً شريفاً وشاعراً لبيباً، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإن قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمع منه شيئاً قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني قطناً حين غدوت إلى المسجد، فلما وصلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمتم قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي، واثكل أبي، والله إني رجل لبيب شاعر، وما خفي علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يقوله حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا... الذي قالوا. فعرض علي الإسلام وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

فأسلمت وشهدت شهادة الحق ورجعت إلى قومي داعياً إلى الإسلام، ورأيت أن لا أساكن أهلي حتى يسلموا، فدخلوا الإسلام.

هذا وقد دعا قبيلته إلى الإسلام، فأسلم منهم سبعون أو ثمانون بيتاً، ثم هاجروا وأدركوا رسول الله ﷺ وهو في خيبر، وأسهم لهم من الغنائم كأخوانهم المجاهدين في سبيل الله، وقيل أعطاهم من الفياء وكان منهم أبو هريرة رضي الله عنهم جميعاً.

(١) سورة النور آية ٥٥.

لقاء رسول الله ﷺ بني شيبان:

لقي رسول الله ﷺ كثيراً من وفود العرب ورؤساء قبائلهم وزعمائهم، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده، فكانوا بين مقارب، مهذب الطبع، لين المقادة، سهل المأخذ، حكيم اللسان، يرد عليه رداً حسناً، وبين قاس القلب جاف غليظ الطبع يرد رداً قبيحاً.

وكان يصابر القوم ويتحمل جفوة الجفاة منهم، ويقدر المهذبين منهم قدرهم، ويعرف لهم مكانتهم ولو لم يجيبوه إلى دعوته، وكان يصحبه في لقاءاته وفود العرب في منازلهم في الموسم أبو بكر وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ففي حديث عبدالله بن عباس عن صاحب العيون وغيره، من رواية ابن إسحق عن علي، أنه خرج هو وأبو بكر رضي الله عنهما مع رسول الله ﷺ ليعرض نفسه ويبلغ رسالته إلى الناس في منازلهم، وقد لقوا قوماً من وجوه العرب ورؤساء عشائرهم فجلسوا إليهم، قال علي رضي الله عنه: وكان أبو بكر في كل خير مقدماً وتكلم أبو بكر، وكان عالماً في معرفة أنساب العرب وشيئلتهم، وسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر (ساده) في قومهم، وفيهم مفروق بن عمرو وقد غلبهم جمالاً ولساناً، فقال: لرسول الله ﷺ: فالام تدعوا يا أبا قريش، فتقدم رسول الله فقال: أدعوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله. وأن تأووني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد.

فقال: مفروق: إلام تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقِي تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا

النَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴿١﴾.

فقال: مفروق: إلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٢﴾.

قال مفروق، دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

وقال هانئ بن قبيصة وكان شيخهم: إن من ورائنا قوم، نكره أن نعقد عليهم عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر وتنظر...

وقال المثني وكان معهم، وهو من شيوخهم، وصاحب حربهم: قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا وإتباعنا دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإنما نزلنا بين صيري اليمامة والسماعة.

قال رسول الله ﷺ: ما هذان الصيران؟ فقال: أنهار كسرى ومياه العرب. فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول. وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وإنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نُحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعوننا إليه أنت، هو مما يكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا. قال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم في الصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم؟ أتسبحون الله وتقدسونه؟»، فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وداعياً إلى الله

(١) سورة الأنعام آية ١٥١.

(٢) سورة النحل آية ٩٠.

بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ (١). ثم نهض رسول الله ﷺ، قال علي: فأخذ بيدي فقال: «يا أبا بكر يا أبا الحسن... أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم» (٢).

إتصال الرسول بأهل يثرب:

وفي أحد مواسم الحج كان من الذين يحجون البيت الحرام جماعة من مدينة يثرب هي مدينة بين مكة وبلاد الشام كان يقطنها قبيلتان: أحدهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها، فكانوا دائماً في نزاع وشقاق.

وكان يجاورهم في المدينة ثلاث قبائل من اليهود وهم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. جاءوا إليها بعدما وقع إضطهاد لهم من قبل الرومان وذلك عام ٧٠ ميلادية التي وقعت فيها الحرب بينهم وبين الرومان، والتي انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتت اليهود في أصقاع العالم، فقصدت جموع كثيرة من اليهود بلاد العرب كما ذكر المؤرخ اليهودي (يوسي فوس) الذي شهد تلك الحروب وكان قائداً لبعض وحداتها (٣).

وقد سكن اليهود غير يثرب، خيبر وتيما واليمن، وكان بين القبائل اليهودية الثلاثة عداوة ونزاع وقتال، وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَا لَوْلَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْتِمَاءِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴿٨٥﴾﴾ (٤). وكان يهود بنو قينقاع يعيشون

(١) سورة الأحزاب الآيات ٤٥-٤٦.

(٢) محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون ج ٢ ص ٢٧٥-٢٧٨ مصدر سابق.

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام للدكتور إسرائيل ولنقسون، أبو ذؤيب ص ٩ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٧.

(٤) سورة البقرة آية (٨٤-٨٥).

قرب مسجد الغمامة في محلة خاصة بهم وكان بنو النضير يعيشون قرب مسجد قباء في جنوب يثرب، وكان بنو قريظة يسكنون في شمال المدينة قرب طريق المطار خارج مدينة يثرب. وحالف إلهود على أنفسهم، فحالف الأوس بنو قريظة، وحالف الخزرج بنو قينقاع وبني النضير.

وكانت آخر الأيام التي وقعت فيها الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعثت وهي أشهر وقائعهم وأعظم أيامهم أثراً عليهم حيث قتل فيها أشرفهم وكبرائهم وذو الكبرياء منهم ولم يبق إلا عبد الله بن أبي سلول من الخزرج وأبو عامر الراهب من الأوس.

ولذلك كانت عائشة كما ورد في صحيح البخاري تقول: كان يوم بعثت يوماً قدمه الله لرسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقتل سرايمهم^(١).

وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج، فأرسلوا إياس بن معاذ قبل ظهور الإسلام بها وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش، فلما جاءوا مكة جاءهم رسول الله ﷺ وقال: هل لكم في خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وقد أرسلني الله إلى الناس كافة، ثم تلا عليهم القرآن، وظهر إياس بن معاذ يومئذ ما قر في صدره من ميل إلى دعوة النبي ﷺ، وقال مخاطباً الوافدين من قومه: يا قوم هذا ما عرضه عليكم خير والله مما جئنا إليه - التماس الحلف من قريش - فحصبه الحيسر وقال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت.

إسلام الأنصار:

ولما جاء موسم الحج تعرض رسول الله ﷺ لنفر من الخزرج وكان عددهم ستة، وهم أسعد بن زرارة، وعون بن الحارث من بني النجار ورافع بن مالك من بني زريق، وقطبة بن عامر من بني سلمة، وعقبه بن عامر من بني حرام، وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدي

(١) البخاري، الصحيح، ج ٥ ص ٣٠، رقم الحديث (٣٧٧٧).

ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه. فقال بعضهم لبعض أنه للنبي الذي كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه. فأمنوا به وصدقوه، وقالوا إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ووعده بالمقابلة في الموسم المقبل. وكان هؤلاء أول غيث النصر بنشر الدعوة في بلدهم وبين قومهم في مدينة يثرب.

بيعة العقبة الأولى:

فبعد أن عاد هؤلاء إلى يثرب بعد أن أسلموا بدأ إنتشار الإسلام في يثرب، وقد ساعد في ذلك ما كانوا يسمعون من يهود الذين كانوا يساكنونهم، وكان إليهود أهل كتاب وعلم، وكان الخزرجيون وإخوانهم الأوسيون أهل شرك وأوثان، وكانت ما تزال نيران الحرب مشتعلة بينهم وبين إليهود، فإذا قهروا إليهود وانتصروا عليهم، قال لهم إليهود يتوعدوهم: إن نبياً سيبعث الآن، قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، حتى نستأصلكم كما قص القرآن الكريم ذلك في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١). فكان هذا من أهم الأسباب في إتشار الإسلام في يثرب.

فلما كان العام المقبل قدم إثنا عشر رجلاً منهم عشرة رجال من الخزرج واثان من الأوس وهم أسعد بن زاره، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك وذكوان بن قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلب، والعباس بن عباد، وعقبه بن عامر، وقطبه بن عامر، وهؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثم بن تيهان، وعويم بن ساعده وهما من الأوس فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ وفق بيعة سميت ببيعة النساء لأنه لم يذكر فيها الجهاد والتي نزلت آيتها بعد ذلك: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٣) وذلك قبل أن يشرع

(١) سورة البقرة آية (٨٩).

الجهاد، وتسمى هذه البيعة بيعة العقبة الأولى.

فلما انصرف القوم بعث معهم ﷺ مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام وروي أنه بعث معهم أيضاً عبد الله بن أم مكتوم، وكان مصعب رضي الله عنه يعلم من أسلم منهم من القرآن، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام.

فقد نزل مصعب عند أبي أمامة أسعد بن زرارة، وكان يذهب به إلى دور الأنصار، يدعوهم إلى الإسلام وتفقيهه من أسلم منهم، ويعلمهم القرآن، وكان يسمى في المدينة القارئ، وكان عظيم البركة والخير على الدعوة الإسلامية حضيف الرأي صبوراً على ما يلقي من صدٍ ممن لم يكن قد أسلم، وقد دخل على يديه من أهل المدينة المنورة أوسها وخزرجها عدد لا يحصى من الرجال والنساء، ودوى صوت الإسلام في أرجائها جهراً قوياً ببركة إخلاصه، وقوة إيمانه وحبه لله ورسوله، وهو أول من صلى الجمعة في الإسلام بمن آمن من أهل المدينة بإذن رسول الله ﷺ، كتب إليه النبي ﷺ يأمره بذلك، وكان عدد المصلين كما روى عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنهما أربعين.

ومن أبرع وأجل وأشجع مواقف مصعب بن عمير رضي الله عنه الخالدة في الدعوة إلى الله، وكانت سبباً في دخول كثير من أهل يثرب في الإسلام، ما حدث به كثير من الثقات قالوا: خرج أسعد بن زارة بمصعب بن عمير يوماً إلى دار بني عبد الأشهل، فدخل به حائطاً أى بستاناً من حوائط بني ظفر، فجلس فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا بهما قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما، وانهما من أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن سعد بن زاره مني حيث قد علمت كفتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

وأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رأى أسعد بن زاره أسيد بن حضير مقبلاً إليهما قال لصاحبه مصعب: هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه، فقال مصعب في هدوء وثقة: إن

يجلس هذا أكلمه، فوقف عليها أسيد بن حضير متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟
إعترلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع إن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره،
قال أسيد متعقلاً: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه
القرآن فقالا: أي مصعب وأسعد بن زراره - والله قد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم،
ثم تكلم أسيد فقال: ما أحسن هذا وأجمله!! كيف يصنع من أراد الدخول في هذا الدين؟ قال
له: تغتسل فتطهَّر، وتُطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام أسيد بن حضير
فأغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً
إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ
أسيد حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديمهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ
مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بوجه غير الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على
النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما
فقالا نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثُ أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زراره ليقتلوه. وذلك
أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له،
من أمر بني حارثة، فأخذ الحربة من يده وقال: والله ما أراك أغنيت عنا شيئاً.

ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين، عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منها، فوقف
عليها مبتسماً، ثم قال لأسعد بن زراره يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما
رُمت هذا مني، (أفتأتينا في دارنا بما نكره؟).

وكان أسعد بن زراره قال لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيِّدٌ من وراءه من قومه،
إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم إثنان، فقال مصعب لسعد بن معاذ أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً
قبلته، وأن كرهته عزل عنك ما تكره: قال سعد بن معاذ: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فعرض
عليه مصعب بن عمير الإسلام، وقرأ عليه القرآن قالاً: فعرنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم،

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: نغتسل فتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين. ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن خضير، فلما وقف عليهم قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما أمسى في دار بني عبد أشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

قال أبو عمر بن عبد البر: حاشا الأصرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد، ولم يسجد لله سجده، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة. ثم لبني النجار أخرجوا مصعب بن عمير، واشتدوا على أسعد بن زرارة، فانتقل مصعب بن عمير إلى سعد بن معاذ، فلم يزل عنده يدعو آمناً ويهدي الله على يديه حتى لم تبق دارٌ من دور الأنصار إلا وقد أسلم أشرافها، وأسلم عمرو بن الجموح وكسر أصنامهم، وكان المسلمون أعز أهل المدينة.

بيعة العقبة الكبرى (الثانية):

انتشر الإسلام في يثرب على يدي مصعب بن عمير والذين بايعوا رسول الله ﷺ، وخاصة أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي كان ساعد مصعب الأيمن وعضده القوي الذي نزل عليه فأحسن نزل، وكان ينتقل به بين دور الأنصار فيدعو إلى الله من لم يكن قد أسلم، ويقرى القرآن، ويعلم الشرائع والأحكام من كان قد أسلم حتى أصبحت يثرب دار الإسلام، المهية لتلقى أعظم حدث، رسول الله هو ومن آمن معه.

وكان رسول الله ﷺ لا يزال في بطاح مكة، يتبع الناس في منازلهم ومجتمعاتهم الموسمية يقول لهم: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة، فلا يجد أحداً يؤويه أو ينصره. ورجع مصعب بن عمير في العام القابل، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، فلما فرغوا من الحج ومضى ثلث الليل، اجتمعوا في الشعب عند العقبة وهم ثلاث وسبعون رجلاً

وامراتان، اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر رجلاً من الأوس، وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم متى قدمت إليكم فقال له الهيثم بن التيهان، يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهداً وإنا قاطعوها - يعني إاليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

قال: فتبسم عليه السلام، وقال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم، وحينذاك ابتدأت المبايعة الثانية قال كعب بن مالك وقد كان قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم أحد عشر نقيباً فأخرجوا فبايعه الرجال على ما طلب. وأول من بايع أسعد بن زرارة، وقيل البراء بن معرور، منهم اثنا عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

ثم قال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي^(١).

وقد بلغ خبر هذه البيعة مشرقي قريش، فجاءوا ودخلوا شعب الأنصار وقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا لتستخرجوه من أرضنا وتبايعوه على حربنا؟ فأنكروا ذلك، وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يملفون لهم أنهم لم يحصل منهم شيء في ليلتهم، وعبد الله بن أبي كبير الخزرج يقول: ما كان قومي ليفتأتوا عليّ بشيء من ذلك.

قال ابن هشام: وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله في القتال شروطاً سوى شرطه عليهم في بيعة العقبة الأولى. كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج٧ ص٢٢١، رقم الحديث ٣٨٨٩.

على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة. قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه في وصف هذه البيعة: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم.

والفارق بين العقبة الأولى والعقبة الثانية سوى عدد من بايع: أن بيعة العقبة الأولى خالية من الإشارة إلى الجهاد بالقوة، ولكن البيعة الثانية تضمنت التصريح بضرورة الجهاد والدفاع عن رسول الله ﷺ ودعوته بكل وسيلة. لذلك سميت البيعة الأولى ببيعة النساء.

نقول: وليس كما يفهم من كلام بن هشام في سيرته أنه إنما شرع الجهاد قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية، إنما أخذ بعض أهل المدينة عهد الجهاد نظراً للمستقبل عندما سيهاجر إليهم، وقيم بينهم في المدينة. يدل على ذلك، ما رواه بن هشام نفسه إن العباس بن عبادة قال لرسول الله ﷺ بعد البيعة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فإنا؟ فقال رسول الله ﷺ، لم نؤمر بذلك، ولكن أرجعوا إلى رحالكم، قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا. ولكن يفهم من البيعة أن الله عز وجل قد ألهم رسول الله ﷺ أن الجهاد سيشرع في المستقبل القريب.

ولقد كانت هذه البيعة العظيمة والكبرى بداياتها وبواعثها وآثارها ودافعها التاريخي (فتح الفتوح). لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تابعت حلقاتها في صور متدرجة مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق، على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم. وكانوا أكثر الناس وفاءً، بما عاهدوا الله ورسوله عليه، من التضحية مهما بلغت متطلباتها، من الأرواح والدماء رجالاً ونساءً. وكان منهم من النساء، نُسبية بنت كعب، وهي أم عمارة كانت شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ وشهدت معها أختها وكانت شهدت بيعة العقبة مع رسول الله

ﷺ، وشهدت بيعة الرضوان، وشهد بيعة العقبة أسماء بنت عمرو (أم منيع) من بني سلمة^(١).
وشهد مع نُسبية زوجها زيد بن عاصم بن كعب، وابناؤها حبيب بن زيد، وعبد الله بن زيد،
وابنها حبيب الذي أخذه مسيلمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة، فجعل يقول له: أتشهد أن
محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول لا أسمع. فجعل يقطعه
عضواً عضواً حتى مات في يده لا يزيد على ذلك، إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه،
وإذا ذكر له مسيلمة قال: لا أسمع. فخرجت أمه إلى اليمامة مع المسلمين، فباشرت الحرب بنفسها
حتى قتل الله مسيلمة فرجعت وبها اثنا عشر جرحاً بين طعنة وضربة.

وكانت هذه البيعة حجر الأساس في بناء صرح دولة الإسلام على دعائم القوة المؤيدة
للحق، الناشرة لنور الهداية في الدعوة إلى الله تعالى، المقيمة لمنابر التوحيد في الأرض، المقوضة
لركائز الظلم والاستبداد، الحاملة لألوية العدالة الاجتماعية الداعمة إلى التآخي بين الأمم
والشعوب، والجماعات والأفراد، المنادية بالمواساة والتراحم بين الناس.

هجرة الصحابة من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة:

لما تمت بيعة الثلاث والسبعين من الرجال والمرأتين من أهل المدينة، طابت نفس رسول
الله ﷺ للهجرة حيث جعل الله له منعه ونجدة أهل حرب. وجعل البلاء يشتد على المسلمين
من المشركين لما علموا بهذه البيعة، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ ونالوا منهم ما لم
يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا إلى النبي ﷺ فقال لهم: «لقد أخبرت بدار هجرتكم
وهي يثرب فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها». فجعلوا يتجهزون ويتراقون ويتواسون
ويخفون ذلك. فخرجوا أرسالاً، وفرادى، فاستقبلهم إخوانهم الأنصار أطيب استقبال
وأكرم موهم وأنزلوهم من أنفسهم منازل الحب والإيثار والوفاء والتكريم. وقد خلد الله تعالى
هذا الموقف الكريم للأنصار فأنزل فيه قرآناً يتلى ويتعبد به، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢ صفحة ٨٤.

وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿١﴾.

أول المهاجرين إلى المدينة المنورة:

كان في صدر هؤلاء المهاجرين الأبوة الشجعان أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي أحد السابقين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وأحد ذوي الهجرتين: هجرة الحبشة وهجرة المدينة المنورة، أبت عليه شجاعته ورسوخ إيمانه أن يسرَّ هجرته ويستخفي بها، بل هاجر مستعلنًا تحت سمع وبصر قومه، الذين كانوا ينالون منه ويؤذونه، ويمنعه إسلامه أن يرد عليهم عدوانهم عليه، لأن السابقين إلى الإسلام ممنوعون من الاقتصاص من خصومهم ورد إعتدائهم، مأجورين بالصبر والعفو والاحتمال، وعدم رد الإعتداء، ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة وهجرة زوجه أم سلمة التي شرفها النبي ﷺ بعد استشهاده أبي سلمة، فصارت أما للمؤمنين بأن تزوجها رسول الله ﷺ مثلاً مضرورياً ونموذجاً يحتدى به، وأسوة في موقف الشجاعة وقوة العقيدة والوفاء، وقد نقل إلينا ابن إسحق قصة هجرة أبي سلمة وزوجه.

قال ابن هشام، قال ابن إسحق: فحدثني أبو إسحق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها. أرأيت صاحبك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد قالت فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة. فقالوا: لا والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو أسد، وحسبني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى

(١) سورة الحشر آية (٩).

مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي ورحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة!! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: قالوا لي إلهي بزواجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني ووضعتة في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: أتبّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم^(١) لقيت عثمان بن أبي طلحة فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟.

قالت: فقلت أريد زوجي بالمدينة. قال: أو معك أحد؟ قالت: فقلت لا والله إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله مالك من مترك، فأخذ بحطام البعير فانطلق يهوي بي والله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل، أناخ بي ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر بعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة. ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه فرحله ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، وقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية. وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخلها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة. وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن أبي طلحة^(٢).

وقد من الله تعالى على عثمان بن أبي طلحة بنعمة الإسلام، فقد أسلم بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، وهاجر مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فلما رأهما رسول الله ﷺ قادمين عليه مسلمين قال: رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها.

قال ابن هشام: قال ابن إسحق: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلي بنت أبي حثمة بن غانم بن عوف. ثم عبد الله بن

(١) موضع يقع خارج حرم مكة في الطريق إلى المدينة.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٢ صفحة ١١٣ (مصدر سابق).

جحش احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، ثم قدم المهاجرون أرسالاً ثم جاءت هجرة القوي الأمين فاروق الإسلام وعز المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرين راكباً فيهم أخوه زيد بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر، وعياش بن أبي ربيعة، الملقب بذي الرمحين لشجاعته.

قال الزرقاني في شرح المواهب^(١) أخرج ابن عساكر وابن السمان في الموافقة عن علي رضي الله عنه، قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه، وانفض يده - أي أخرج أسهماً من كنانته - وجعلها في يده للرمي بها. وأختصر عنزته أي حملها مضمومة إلى خاصرته، ومضى قِبَل الكعبة فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق حلقة حلقة واحدة واحدة فقال لهم: شأهت الوجوه، لا أرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تشكله أمه أو يؤتم ولده أو ترمل زوجته، فليلحقني وراء هذا الوادي. فما تبعه أحد من الخلق.

وأقام رسول الله بمكة ينتظر الأذن من الله في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

ولم تكن هجرة المسلمين من مكة هيئة سهلة، تسمح بها قريش وتطيب بها نفساً، بل كانوا يصنعون العراقيل في طريق من يريد الهجرة إلى المدينة، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المحن، وكان المهاجرون لا يعدلون عن فكرة الهجرة، ولا يؤثرون البقاء في مكة مهما دفعوه من فدية فمنهم من كان يضطر إلى أن يترك امرأته وابنه في مكة ويسافر وحده، كما فعل أبو سلمة، وقد ذكرنا قصته، ومنهم من كان يضطر أن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته وجمعه من ماله، كما فعل صهيب رضي الله عنه.

قال ابن هشام وذكر لي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: (بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش، أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثير مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بهالك ونفسك، والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟

(١) الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمية، ج ٢، ص ٩٢، دار الكتب العلمية، طبعة أولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

قالوا نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب ربح صهيب»^(١).

وممن اعتدي عليهم وحبسوا ومنعوا من الهجرة من قبل أهاليهم عياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وكان رسول الله ﷺ كما في الصحيحين عن أبي هريرة يدعو لعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام في فنوت صلاة العتمة يقول: اللهم انج الوليد بن الوليد بن المغيرة، اللهم انج سلمة بن هشام، اللهم انج عياش بن أبي ربيعة، اللهم انج المستضعفين من المؤمنين^(٢)، وقد استجاب الله أولاً للوليد بن الوليد بن المغيرة فأنجاه قبل أخويه، ثم ذهب في إنجائهما. قال ابن هشام «وحدثني عن أن رسول الله ﷺ وهو بالمدينة: من لي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص؟ فقال الوليد بن المغيرة: أنا لك بهما يا رسول الله، فخرج الوليد إلى مكة مستخفياً. فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله، قالت أريد هذين المحبوسين (تعنيهما) ثم تبعها حتى عرف موضعها، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له. فلما أمسى تسور عليهما، ثم أخذ مروة (حجرا) فوضعها تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه «ذو المروءه» لذلك، ثم حملها على بعيره وساق بهما، فعثر فدميت أصبعه، فقال:

هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما إلى رسول الله ﷺ في المدينة^(٣).

وقد تابعت الهجرة من مكة إلى المدينة ولم يتخلف مع رسول الله ﷺ غير من حبس بمكة وفتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما.

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ١٢١.

(٢) البخاري، الصحيح، ج٢، ص٢٦، رقم الحديث (١٠٠٦)، دار طوق النجاة (١٤٢٢هـ)، تحقيق احمد زهير.

(٣) ابن هشام ج٢ ص ١٢٣-١٢٤.

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة:

أقام رسول الله ﷺ بمكة، بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له بالهجرة ولم يتخلف معه بمكة أحدٌ من المهاجرين إلا من حُبس أو فتن وعلي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة (الصديق) رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ بالهجرة، فيقول رسول الله ﷺ، لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونه^(١).

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب في المدينة، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم والانتقام منهم، وأن يقطع عليهم المهاجرون وأهل يثرب طريق تجارتهم إلى الشام. فاجتمعوا في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون ماذا يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه. فقال قائل منهم احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا حتى يهلك كغيره ممن حبسوا وماتوا في محبسهم. فقال قائل: ما هذا برأي، والله لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينزعه من أيديكم، ثم يحاربوكم معه. ثم قال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، ثم لا نبالي بعد ذلك أين ذهب، لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة ويقع ما كانوا يخافون منه. وانتهوا إلى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا وأن يعطوا كل فتى سيفاً صارماً بتاراً فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً، فيرضوا فيه بالدية. وتستريح قريش من هذا الذي بدد شملهم وفرق قبائلهم شيعاً. وأعجبهم هذا الرأي فاطمأنوا إليه، واختاروا فتيانهم، وباتوا يحسبون أن أمر محمد ﷺ قد فرغ منه، وأنه بعد أيام سيواري وستواري دعوته في التراب، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم، وإلى دينهم وأهلتهم، وتعود بذلك لقريش وبلاد العرب وحدثها التي

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ١٢٠.

تمزقت، ومكانتها التي تضعضعت على رأيهم. فأتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فقال: لا تبيت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام ليشوا عليه ويقتلوه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب، نم على فراشي وتسجع^(١) ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فتم فيه، فإنه لن يخلص إليك سوء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

قال ابن إسحق: فحدثني يزيد بن زياد: عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم إنكم إن تابعتموه على أمره كتتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنات كجنات الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها^(٢).

وأخذ الله على أبصارهم عنه. فلا يروونه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من سورة يس: ﴿يَسَّ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤ نَزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾^(٣). حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا محمداً. قال: خيكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه، تراباً وانطلق لحاجته، أما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب. ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ.

(١) تسجع بالثوب: غطى به جسده ووجهه.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٩١، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية.

(٣) سورة يس الآيات (١-٩).

فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمٌ عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد صدقنا الذي حدثنا^(١). قال ابن إسحق: وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا اجتمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٢).
 وقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾^(٣).

قال ابن هشام، المنون: الموت، وريب المنون: ما يريب ويعرض منها. والمراد (صروف الدهر المهلكة).

وكان رسول الله ﷺ قد جاء إلى أبي بكر فقال له: إن الله قد أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول. قال: الصحبة، وبكى أبو بكر رضي الله عنه من الفرح^(٤). فخطط أبو بكر رضي الله عنه لهجرتها، فاشتري راحلتين لذلك واستأجر عبد الله بن أبي أرقط - وكان مشركاً - يدلها على الطريق فدفعها إليه راحلتيهما فكانت عنده يرعاهما لميعادهما.
 فقال ابن إسحق:

فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر، فخرجا من خوخة (فتحة) لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار ثور فدخلاه - وهو يقع في الجهة الجنوبية الغربية من مكة بعكس طريق المدينة. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيها نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار أهل ومكة.
 وأمر عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه يريحها عليهما إذا أمسى ليطعمهما من ألبانها.
 وأمر أساء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلح لها في كل مساء.

(١) ابن هشام، السيرة، ج ٢ ص ١٧٢.

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٠.

(٣) سورة الطور الآية ٣٠.

(٤) الألباني، مختصر صحيح الإمام البخاري، مكتبة المعارف طبعة أولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م) ج ٢ ص ٥٥٤.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ لينظر أفيه سبع أو حية يقبى رسول الله بنفسه، ودخلا الغار وبينهما هي كذلك أخذت قريش تبحث عنهما وتتبع آثارهما، ووصلوا إلى فم الغار ولم يبق بينهما وبين العثور عليهما إلا أن ينظر أحدهم من موضع قدميه فيراهما. ولكن الله حال دون ذلك، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ عندما رأى المشركين على باب الغار لو نظر أحدهم من موضع قدميه لرأنا. فقال له رسول الله ﷺ: «ما ظنك بأثنين الله ثالثهما»^(١). «لا تحزن إن الله معنا» وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٢).

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقه لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأترون به وما يقولون بشأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه - يرعى في رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فحلبا وشربا. فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعنى على أثره. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنها الناس، أتاهما صاحبها الذي استأجراه ببيعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسفرتهم ونسيت أن تجعل لهما عصاماً^(٣). ولما أرتحلا ذهب لتعلق السفره، وليس لها عصام، فشقت نطاقها اثنين وعلقت السفره بواحدة منها وتمنطقت بالثانية فسميت بذلك ذات النطاقين^(٤)..

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٠.

(٢) سورة التوبة آية ٤٠.

(٣) ما يتعلق به السفره وغيرها.

(٤) ابن هشام، السيرة، ج ٢ ص ١٣٠-١٣١.

وكان من أسباب نجاح هجرة رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه إلى المدينة هو دقة التخطيط لها قبل خروجهما من مكة مع رعاية الله تعالى لهما منذ خروجهما، فبالنسبة لدقة التخطيط:

- ١- فقد اشترى أبو بكر راحلتين وأعدهما للهجرة عليهما.
 - ٢- أوعز رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب أن يرتدي بردته وينام على سريره لتضليل قريش.
 - ٣- خروجهما من فتحة خلف بيت أبي بكر، حتى لا يشعر أحد بخروجهما.
 - ٤- اختيار الدليل الذي يدهما على الطريق إلى المدينة.
 - ٥- اختيار الغار الذي لجأوا إليه، فقد كان في الجهة الجنوبية الغربية من مكة، أي في الجهة المعاكسة تقريباً من طريق المدينة، حيث تقع المدينة شمال مكة.
 - ٦- اختيار من يتصل بهما أثناء وجودهما في الغار، فقد اختير عبد الله بن أبي بكر لكي يأتيهما بأخبار قريش، حتى إذا انقطعت ملاحقة قريش لهما بعد ثلاثة أيام من المكث بالغار، سلكا طريق الساحل غير طريق المدينة المعهود.
 - ٧- طلبا من عامر بن فهيرة أن يأتيهما صباحاً بالغنم ليخفي آثار عبد الله بن أبي بكر بعد حضوره لهما، ويحلبا ويشربا من حليبها، وقد اختيرت أسماء بنت أبي بكر لتأتيهما بالطعام.
- أما بالنسبة لرعاية الله تعالى لهما في كل لحظة وفي كل حين، من ذلك.
- أولاً: عند خروجه ﷺ من بيته وقد أحاط به المشركون ليقتلوه فخرج وهو يتلوا قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١).
- فلم يره أحد.
- ثانياً: رعايته لهما وهما في الغار في ذروة جبل ثور، وقد وصل المشركون إلى الغار بعد أن

(١) سورة يس آية ٩.

تدرجوا آثارهما فلم ينظروا إلى داخله، لغلبة ظنهم أن الغار لم يدخله أحد.
ثالثاً: ما حصل لسراقة بن مالك حيث كان يريد قتلها فعثرت به فرسه وسقط عنها
وساخت قدما الحصان في الأرض كما سيأتي بيانه.

فقد كان في الصباح جاهداً في قتلها وعاد في المساء يجرسها ويصرف الناس عنهما.
فلما قرب أبو بكر الراجلي إلى رسول الله ﷺ قدم له أفضلهما ثم قال: أركب فداك أبي
وأمي، فقال رسول الله ﷺ فإني لا أركب بغيراً ليس لي، قال: فهي لك بأبي أنت وأمي، قال: لا،
ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به قال: كذا وكذا، قال: قد أخذتها به، قال: هي لك يا رسول الله
فركب وانطلق، وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمها في
الطريق^(١).

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش
فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا أين أبوك يا بنت أبي
بكر؟ قالت: فقلت: لا أدري والله أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم
خدي لطمه فخرج منها قرطي ثم انصرفوا^(٢).

وروى ابن هشام عن ابن إسحق بسنده أن أسماء بنت أبي بكر قالت لما خرج رسول الله ﷺ
وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها
معه.

قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله أني لأراه قد فجعكم بهاله
مع نفسه قالت: قلت: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في
كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت

(١) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق، ج ٢ ص ١٣١.

ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، قال: لا بأس. إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

وجعلت قريش في رسول الله ﷺ حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم، ومكثا في الغار ثلاث ليالي، ثم انطلقا ومعهما عامر بن فهيرة ودليلهما، فأخذ بهم طريق الساحل في طريق غير مألوفه، حتى بلغوا قباء بعد بضعة عشر يوماً. وهي أول منازل المدينة، فنزلا في بني عمرو بن عوف خير منزل آمنين مطاعين.

وقد تواتت أحداث الرعاية الربانية على رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق منذ خروجهما من بيت أبي بكر رضي الله عنه. ورويت في هذه الرحلة الإيمانية أموراً إعجازية أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ ليربط على قلبه، ويثبت قدمه، ويؤنس فؤاده، ويخفف عنه ما لقي من أثقال السفر. في رحلة كانت الفيصل بين رحلتي الرسالة الخالدة.

مرحلة الكفاح المرير والنضال الصبور في مكة. ومرحلة الفتح المبين، وتأسيس البنيان الشامخ لدولة الإسلام، في نظامها العقدي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والتربوي، والخلقي.
ونزل التشريع المحكم الذي يجمع في اطاره الأوضاع والتنظيمات لخير الإنسانية على هذه الأرض، على أسس العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات، وهذه المرحلة كانت الهجرة النبوية هي حجر الزاوية فيها، واللبنة الأولى في بنائها، لأنها مرحلة بدأ فيها نضال جديد. ضد قوى الشر المادية فردها على أعقابها ودحرها.

ومن الأحداث الربانية التي تواتت على رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق منذ خروجهما من بيت أبي بكر رضي الله عنه ورعايته:

ما حصل لهما في الغار عندما خرجت قريش تبحث عنهما عندما علمت أنه نجى من مكرها وكيدها تبحث عنه حتى وصل بها قاصها وقصاص الأثر لها، حيث وقفوا مذهولين تستحوذ عليهم الحيرة والدهشة على فوهة الغار. وهم يقولون: ما جاء طلبتكم هذا الغار، وهنا انقطع عنا الأثر.

ومحمد وصاحبه في جوف الغار لا يجاوزون بابه لضيقه، ولو نظر أحدهم من موضع قدميه إلى فوهة الغار لرأهما. فرعب أبو بكر رعباً شديداً على رسول الله ﷺ وتفجع وبكى فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ فقال الصديق رضي الله عنه: ما على نفس أبكي، ولكن أخاف أن أرى فيك ما أكره. فقال له رسول الله ﷺ ما حكاه الله تعالى: لا تحزن إن الله معنا فنزلت السكينة من قلب رسول الله ﷺ إلى قلب صاحبه وصديقه فثبت وأطمأن قلب أبي بكر رضي الله عنه (١).

ووقف كفار مكة باب الغار ونظر بعضهم في الغار فرأى نسيج العنكبوت على باب الغار فقال أحد شياطينهم وقادتهم وهو أمية بن خلف، وما أربكم في الغار؟ إن فيه العنكبوت أقدم من ميلاد محمد ﷺ، وقال غيره: لو دخل أحد الغار لتفسخ بيت العنكبوت.

وقصة نسيج العنكبوت على باب الغار عقب دخول الرسول ﷺ إلى جوفه رواها الإمام أبو بكر البزاز في سنده من طريق أبي مصعب المكي عن ثلاثة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم قال: أبو مصعب: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك، يتحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة الغار أمر الله عز وجل العنكبوت ففسخت على وجه الغار.

ورواها الحافظ بن عساكر، وفي هاتين الروايتين ذكر الشجرة والحمامتين البريتين مع نسيج العنكبوت. ورواها الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن العباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠) (٢). وفي هذا الحديث لما بلغوا (أي فتیان قريش) الجبل اختلط عليهم، فتصعدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت فقالوا: لو يدخل ههنا أحد لم يكن نسيج العنكبوت على بابه.

(١) مسلم، الصحيح، ج ٤، ص ٢٣٠٩، رقم الحديث (٢٠٠٩)، طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق محمد فؤاد.

(٢) سورة الأنفال آية ٣٠.

قال الأمام بن كثير في البداية: وهذا إسناد حسن، وهو أجود ما روي في قصة العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية الله ورعايته لرسوله ﷺ.

وروى بن كثير عن الحسن (الحسن البصري): انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت، قالوا: لم يدخل أحد. وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ هؤلاء قومك يطلبوك، أما والله ما على نفسي أخاف ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له النبي ﷺ، يا أبا بكر: لا تخف إن الله معنا^(١).

قال ابن كثير وهذا مرسل عن الحسن وهو حسن.

نقول إن قصة نسيج العنكبوت كما يظهر لنا رواها أربعة من الصحابة، وقد رويت عنهم بإسناد حسن، كما يذكر ابن كثير. وهي قصة مشهورة لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب السيرة النبوية، فلا يستقيم القول بالتشكيك في وقوعها بحجة أن العقل لا يدرك ولا يفهم ذلك. لأن أمرها مخالف ما ألف الناس في مداركهم بحقائق الأشياء وما اعتادته الطبائع البشرية فوجد الله الذين أيد بهم رسوله ﷺ لا يعلمهم إلا هو فلفظ جنود هنا نكرة فهي عامة تدل على أن كل ما حمى الله به نبيه محمداً ﷺ من كيد أعدائه هو من جند الله ومنها العنكبوت.

ومن الأحداث الربانية التي تواتت على رسول الله ﷺ أثناء هجرته، ما رواه البخاري في صحيحه بسنده المتصل عن سراقه بن مالك بن جعشم جاء فيه قوله: «جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدَلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقه أي قد رأيت أنفاً أسوداً بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقه فعرفت أنهم هم فقلت: إنهم ليسوا هم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فركبت فرسي حتى سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا

(١) أحمد، المسند، ج ٥، ص ٣٠٢، تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة.

فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت (سقطت) عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنه سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: ان قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزاني ولم يسألاني إلا أن قال رسول الله ﷺ: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من آدم، ثم مضى رسول الله ﷺ. ثم عاد سراقه أدراجه إلى مكة وهو يصرف أنظار الناس عن رسول الله ﷺ ومن معه، بما يراه من القول، وهكذا أنطلق إليهما في الصباح جاهداً في قتلهما، وعاد في المساء يجرسهما ويصرف الناس عنهما^(١).

ومن الرعاية الربانية التي حصلت لرسول الله ﷺ في هجرته أنها مرا بسيرهما بأمر معبد الخزاعية، وكان عندها شاة خلفها الجهد عن الغنم فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا فدرت فسقاها وسقا أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ثم حلبها ثانية وحلب في الوعاء حتى ملاً الإناه، فلما رجع أبو معبد سأل عما حدث فقالت: لا والله أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ووصفته له وصفاً جميلاً قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه لو رأيت لا تبعته^(٢).

ولم يزل يسلك بهم الدليل حتى قارب أن يصل بهم قباء، وهي الآن أصبحت ضاحية من ضواحي المدينة. وكان رجال من أهل يثرب يخرجون شوقاً إلى مقدم النبي ﷺ، إلى ضواحي المدينة، بعد أن علموا بهجرته من مكة، فكانوا يخرجون شوقاً بعد صلاتهم الصبح يلتمسون رؤيته، حتى يردهم حرُّ الظهر، فأنقلبوا يوماً بعد أن أطلوا إنتظارهم، فلما آووا إلى بيوتهم، فإذا

(١) البخاري، الصحيح، ج ٥، ص ٦٠، رقم الحديث (٣٩٠٦)، طبعة دار طوق النجاة (١٤٢٢هـ) المحقق محمد زهير.

(٢) الحاكم، المستدرک، ج ٣، ص ١٠، رقم الحديث (٤٢٧٤)، وقال عنه إسناد صحيح، وعلق عليه الذهبي بأنه صحيح، (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا) دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

رجل من يهود، وقف على تلٍ من تلالهم لأمر ما ينظر منه، فأبصر رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم (أي حظكم) الذي تنتظرونه فثار المسلمون إلى السلاح فلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة وخلف الحرة (وهي حجارة سوداء بركانية كانت في الجهة الشرقية والغربية والجنوبية من المدينة) وعندما وصل بهم الدليل إلى قباء، نزل بهم في بني عمرو بن عوف فكان ذلك في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول يوم الإثنين الموافق ٢٠ سبتمبر ٦٢٢م من ميلاد المسيح عليه السلام.

وهذا تاريخ يعتبر أول تاريخ جديد بظهور الإسلام، بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة، ورسول الله ﷺ يضيّق عليه هو ومن آمن معه، في عبادتهم ودعوتهم إلى عبادة الله. فكانوا قلة مستضعفة تعيش في مكة فهياً الله لهم المدينة مأوى لهم وملجأ، يمنعهم من اضطهاد الكفار، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى ممتناً عليهم: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخْحَفَكُمْ النَّاسُ فَآوَيْنَكُمْ وَآتَيْنَكُمْ بِبَصْرِهِ وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) ونزل رسول الله على كلثوم بن الهدم، وقيل على سعد بن خيثمه والأول أثبت. فأقام رسول الله في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس في الإسلام بعد النبوة، وهو المسجد الذي وصفه الله بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَآلَهُ حُجُبًا وَمُطَهَّرِينَ﴾ (٢) ثم واصل سيره إلى المدينة ودخلها فالتفت من حوله الأنصار كل يمسك زمام راحلته يرجوه النزول عنده ورسول الله ﷺ يقول لهم دعوها فإنها مأموره، فلم تزل راحلته تسير في فجاج المدينة وسككها حتى اتت بفناء بني عدي بن النجار وهم أحوال جده عبد المطلب حيث تزوج جده هاشم منهم ووصلت إلى مربد (٣) لغلامين يتيمين من بني النجار أمام دار أبي أيوب الأنصاري.

(١) سورة الأنفال آية ٢٦.

(٢) سورة التوبة آية ١٠٨.

(٣) أرض يجف فيها الثمر.

فقال النبي ﷺ: ها هنا المنزل إن شاء الله، ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٢٩).
وجاء أبو أيوب فاحتمل رحله إلى بيته، وخرج ولائد من بني النجار فرحين بمقدم النبي ﷺ وجواره لهم، وهم يشدون:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام لهم، أحبوني فقلن نعم فقال الله يعلم أن قلبي يحبكن.

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الأنصار، فحكموا القرعة بينهم، فما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة.

من عبر وعظات الهجرة:

١- كانت فتنة المسلمين - وهم في مكة - ما كانوا يتعرضون إليه من الإيذاء والتعذيب من مشركي قريش فلما أذن لهم رسول الله بالهجرة كانت فتنتهم من ترك وطنهم ودورهم وأموالهم وأمتعتهم.

٢- إن الله عز وجل جعل قداسة الدين والعقيدة فوق كل شيء، فوق الوطن والآباء والابناء حيث ضحوا بالوطن والأهل والمال ليسلم لهم دينهم.

٣- إن إخوة الدين والعقيدة أقوى من أخوة النسب.

٤- وجوب الهجرة إلى دار الإسلام إذا لم يتمكن المسلم أن يعيش حراً كريماً في وطنه يقيم شعائر الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك من شعائر الإسلام، فلا قيمة للأرض والوطن والمال والجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب أو الزوال.

٥- على جميع المسلمين أن يسعوا لإنقاذ المستضعفين والمضطهدين والمأسورين والمظلومين كما سعى رسول الله ﷺ في إنقاذ المحبوسين والممنوعين من الهجرة وإن لم يفعلوا فهم آثمون ومعاقبون على ذلك يوم القيامة.

(١) سورة المؤمنون آية ٢٩.

٦- يجب موالاتة المسلمين ونصرتهم لبعضهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾^(١). كما أن الذين كفروا أولياء بعض ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾^(٢).

٧- ضرورة الإعداد والتخطيط لكل أمر ذي بال كما فعل رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق. حيث خططوا للهجرة، فأختار رسول الله ﷺ الرفيق وتم إعداد ناقتين للهجرة واختار الغار والدليل ومن يحضر لهم الطعام ومن يأتي لهم بالأخبار إثناء إقامتهما في الغار.

وضع المدينة المنورة عند الهجرة النبوية:

كان يسكن المدينة المنورة قبل قدوم رسول الله ﷺ قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج، وهما من القبائل الأسيديّة اليمنية وقد هاجرتا إليها بعد خراب سد مأرب، وهما ينسبان إلى أخوين أحدهما أسمة أوس والثاني خزرج، كما كان يسكنها ثلاث قبائل من اليهود وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة.

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية من المدينة وهو ما يعرف اليوم بمنطقة العوالي وقباء، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى والشمالية الشرقية من المدينة. وكان يجد المدينة حجارة سوداء تقع في جنوب المدينة وفي شرقها وغربها وتسمى احدهما بالحرّة الشرقية والثانية بالحرّة الغربية وكانتا متصلتين ببعضهما من الجهة الجنوبية وكانت كل قبيلة من اليهود تعيش في أحياء وحصون خاصة بها.

فبنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلة خاصة بهم قرب مسجد الغمامة، وذلك بعد أن طردهم أخوانهم بنو النضير وبنو قريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة. وكانت مساكن بني النضير بالعالية ووادي بطحان خلف قباء على بُعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وكان بنو قريظة

(١) سورة الأنفال آية ٧٢.

(٢) سورة الأنفال آية ٧٣.

يسكنون الجهة الشمالية من المدينة وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة وقد يكون بعضهم حرباً على بعض.

وهناك عداوة بين بني قينقاع وبقية يهود سبها: أن بني قينقاع كانوا أشركو مع الخزرج في يوم بعات (يوم إنتصرت فيه قبيلة الأوس على الخزرج) وقد أثن بنو النضير وقریظة في بني قينقاع ومزقوهم شرمزق مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود. واستمرت هذه العداوة إلى ما بعد يوم بعات، حتى وقعت الحرب بين رسول الله ﷺ وبين بني قينقاع، فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة رسول الله ﷺ حين حاصرهم وأجلاهم عن المدينة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى عداوة إلیهود فیما بینهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَّ لِأَوْلَادِكُمْ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْهَتُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴿٨٥﴾ ۝ (١).

وكانت معظم معاملات إلیهود مع غيرهم تقوم على الرهن والربا، وساعدهم على ذلك أن المدينة منطقة زراعية يحتاج المزارع لاقتراض الأموال لحين الحصاد ومواسم الإنتاج. وكانت علاقة إلیهود بالأوس والخزرج خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية، فهم يعملون على إثارة الحرب، بين الفريقين حتى وجدوا في إثارتها منفعة كبيرة لهم، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج، وكان يهتمهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة.

كان العرب من الأوس والخزرج في المدينة، أصحاب الكلمة العليا ويدهم توجيه الأمور حينها هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ولم يستطع إلیهود أن يقفوا صفاً واحداً ويجمعوا كلمتهم للعداوة القائمة بينهم.

(١) سورة البقر الآيتان ٨٤-٨٥.

وقد تحالف بنو النضير وبنو قينقاع مع الخزرج وتحالف بنو قريظة مع الأوس. فاستحکم العداء بين قبائل إيهود في المدينة مما أضطر بني قينقاع ترك أرضهم وزراعتهم والتوجه إلى الصناعة وخاصة صياغة الذهب والفضة.

ومما ساعد ومهد لقبول الدعوة الإسلامية من قبل الأوس والخزرج ما كان إيهود يتواردونه عن محيي نبي، فقالوا إنه للنبي الذي كانت تعدكم به إيهود، فلا يسبقونكم إليه، فأمنوا به وصدقوه، بينما أنكر إيهود دعوة الإسلام. فلعنهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١).

بناء الدولة الإسلامية في المدينة في زمن الرسول ﷺ:

بعد وصول الرسول ﷺ يثرب أنتهت المرحلة الأولى وبدأت المرحلة الثانية فالمرحلة الأولى وهي المكية، مرحلة الدعوه والصبر.

أما المرحلة الثانية في المدنية فكانت مرحلة بناء أمة وتأسيس دولة.

الأسس والدعائم الأولى التي أقام عليها رسول الله ﷺ الأمة الإسلامية والدولة بعد هجرته إلى المدينة:

فقد أسسها على ثلاث دعائم:

الدعامة الأولى: بناء المسجد النبوي وذلك في المكان الذي بركت فيه ناقته أمام بيت أبي أيوب خالد بن زيد النجاري الخزرجي (الأنصاري). وكان هذا المكان مربداً للثمر لسهل وصهيب ابني عمرو، فساومها عليه رسول الله ﷺ ليتخذها مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منها هبة، حتى أبتاعه منها بعشرة دنانير أداهما من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وعمل رسول الله ﷺ في بناء المسجد، فكان ينقل اللبن،

(١) سورة البقرة آية ٨٩.

وأقتدى به المسلمون، وكان عليه السلام يقول: اللهم إن الأجر أجر الأخره، فأرحم الأنصار والمهاجرة^(١).

وكان المسلمون مسرورين سعداء ينشدون الشعر ويحمدون الله تعالى. وما كان بناء المسجد ليرهق أحداً وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم الإسلام، كان المسجد بناءً فسيحاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب، وسقف جزء منه بسعف النخيل، وترك الجزء الآخر مكشوفاً، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً.

وأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب الأنصاري حتى بُني مسجده ومسكنه، فانتقل إلى مسكنه.

وكان المسجد مربعاً مئة ذراع طولاً، ومئة ذراع عرضاً أو أقل قليلاً.

واهتمام النبي ﷺ ببناء المسجد بمجرد وصوله المدينة المنورة، لأنه الركن والدعامة الأولى في بناء الأمة الإسلامية، فهو المكان الذي يجتمع فيه المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة، يقفون متساوين فيه أمام ربهم، فيزدادون الفه ومحبة فيما بينهم، كما كانوا يتلقون فيه تعاليم الإسلام والقرآن الكريم من قبل رسول الله ﷺ كما كان المسجد مركزاً للشورى فيما بينهم، ويتلقى رسول الله فيه الوفود التي تأتي للمدينة.

الدعامة الثانية: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينهم على المواساة فكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع، فكانوا يحكمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكرومهم، ويؤثرونهم على أنفسهم. وقد قدر المهاجرون هذا البذل الخالص، فما استغلوه ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الشريف.

(١) البخاري، الصحيح، ج ٥، ص ٦٠، رقم الحديث ١٤٤١، طبعة دار طوق النجاة (١٤٥٢ هـ) تحقيق محمد زهير.

روى البخاري في صحيحه أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع. فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فأنظر أعجبها إليك! فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك أين السوق؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما أنقلب إلا ومعه فضل من أقط (جميد) وسمن، ثم تابع الغدو... ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة (زينة) فقال النبي ﷺ: مهيم؟ يسأله عن حاله: قال: تزوجت، قال له الرسول ﷺ كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب^(١).

وإعجاب المرء بساحة سعد لا يعدله سوى إعجابه بنبل عبد الرحمن.

فقد زاحم عبد الرحمن إاليهود في سوقهم، وبزهم في ميدانهم، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما ينفق به على نفسه ويحصن به فرجه، ففعلوا الهمة من خلائق الإيوان فقد وصف الله هؤلاء الأنصار بالنسبة لإيثارهم على أنفسهم لاخوانهم المهاجرين في سورة الحشر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ وهذا أعلى درجات الأخوة. كل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة للواجب عليهم لإخوانهم.

فإن رسول الله ﷺ ليتمكن بينهم الإخاء، آخى بين المهاجرين والأنصار، فكان كل أنصاري ونزيلة أخوين في الله. وقد كانت هذه الأخوة أرقى بكثير من الأخوة العصبية، فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة وبذلك قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ

(١) البخاري، الصحيح، ج ٥، ص ٣١، رقم الحديث ٣٧٨٠، طبعة دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد زهير.

(٢) تباؤا: توطنوا المدينة - حاجة: حزازة وحسداً.

(٣) سورة الحشر آية ٩.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾^(١). فلذلك تمكنوا من الهيمنة على مكة المكرمة، ثم على الجزيرة العربية في أقل من عشر سنوات من هجرة رسول الله ﷺ، فدكوا قاعدة الكفر في مكة. ثم أزالوا دولتي الفرس والروم في أقل من عشرين عاماً، وعسى الله أن يعيد هذا الإخاء بين المسلمين حتى يعود للمسلمين مجدهم وكرامتهم ويُنصرون على أعدائهم.

الدعامة الثالثة: كتابة المودعة والمعاهدة بين المسلمين وإلهود الذين كانوا يسكنون في المدينة، في دولة الإسلام، التي أقامها رسول الله ﷺ، وقد ضمنه تبعية إلهود للمؤمنين في النصر والأسوة، وهي معاهدة الند بالند، على أن لهم دينهم وله دينه.

وقد جاء في هذه المعاهدة: أن المسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض. وأن يكون محمد ﷺ هو الرسول والسياسي والمجاهد والقائد... كل ذلك في سبيل الله وكلمة الحق التي بعث بها رسوله ليؤمن الرسول بأن لا ينضموا إلى قريش إذا حصل قتال بينه وبينهم. وهذا هو نص الوثيقة:-

«بسم الله الرحمن الرحيم، -هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، ولحق بهم، وجاهد معهم، -أنهم أمة واحدة من دون الناس، -المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بيتهم، وهم يقدون عانيهم^(٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم^(٣) يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار، وأهل كل دار بني الحارث وبني ساعدة وبني جُشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت إلى أن قال: وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً^(٤) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء

(١) سورة الأنفال آية ٦٣.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) ربعتهم: استقامتهم.

(٤) مفرحاً: المثقل بالدين والعيال.

أو عقل (دية)، - ولا يحالف مؤمناً مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم؛ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم؛ وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

وإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه؛ وإن لا يجير مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل؛ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وموإليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعده ويهود بني جشم ويهود بني أوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد عليه الصلاة والسلام، ولا يتحجز^(١) على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا

(١) أي لا يلتزم جرح على ثأر.

من ظلم، وإن الله على أبر هذا^(١)؛ وإن على إلهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة وأبره وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن الله جار لمن بر وأتقى^(٢).

هذه هي الوثيقة السياسية التي وضعها رسول الله ﷺ منذ ألف وأربعمائة سنة ونيف، والتي تقرر حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة المدينة، وحق الحياة، وحرمة المال، وتحريم الجريمة. وهي فتح جديد في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذ الذي كانت تعبت به يد الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فساداً.

ولئن لم يشترك في توقيع هذه الاتفاقية من إلهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة... أنهم ما لبثوا بعد قليل إلا أن وقعوا بينهم وبين النبي ﷺ صحفاً مثلها.

وبذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها، عليهم أن ينضحوا عنها ويدافعوا كل عادية عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة من الحقوق، ومن صور الحرية. وقد سكن المسلمون إلى دينهم، وأصبحوا يقيمون فرائضه مجتمعين وفرادى لا يخافون أذى ولا يخشون فتنة، فهذه الوثيقة تتضمن رغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها والضرب على أيدي العادين والمدبري الفتن أياً كان دينهم. وقد نصت بوضوح على أن حرية الدين مكفولة، وفيها اتفاق المسلمين وإلهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو، وقررت حرية الخروج لمن يبغى تركها، والعودة لمن يحفظ حرمتها وفيها الإشارة إلى العداوة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة وإعلان الرفض الحاسم لموالاتهم وتحريم أي عون لهم بسبب بغيتهم على رسول الله ﷺ وعلى من آمن معه من المهاجرين.

ومما ينبغي بيانه بعد ذكر هذه الدعامات الثلاث التي أقام عليها رسول الله ﷺ الأمة

(١) على أبر هذا: أي على الرضا.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ١٤٧-١٥٠، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وآخرون.

والدولة الإسلامية: أن مفهوم الأمة يتجاوز القبيلة ويعلو عليها، لكنه مع ذلك لا يلغيها، إذ ليس من شروط قيام الأمة انتفاء القبيلة، فكما تتكون الأمة من المسلمين بوصفهم أفراداً متضامنين فإنه لا شيء يمنع من أن يظل هؤلاء الأفراد مرتبطين بالقبيلة كإطار اجتماعي داخلي، فالصحيفة التي كتبها رسول الله ﷺ لتنظيم علاقة الأمة الإسلامية باليهود تتكون من مجموعات قبلية: المهاجرين وهم من قريش، والأنصار وهم من قبائل وعشائر حرصت الصحيفة على ذكر أسماؤها مثلما حرصت على ذكر قبائل اليهود الطرف الثاني في العقد.

وعندما بدأ الإسلام في الانتشار السريع بعد صلح الحديبية ثم بعد فتح مكة أخذ الانتماء إلى الأمة الإسلامية يتم على مستوى القبيلة.

فالقبيلة ككل هي التي كانت تعلن إسلامها، أي ولاءها السياسي ودخولها في الدين الجديد وكان شيخ القبيلة أو ساداتها هم الذين ينوبون عنها في ذلك، بعد هذا يأتي الإنتماء الفردي للأمة وذلك من خلال عمل من كان يبعثهم الرسول ﷺ دعاة إلى القبائل يعلمونهم أمور دينهم، ولم يكن هذا العمل التعليمي لعقائد الإسلام وتعاليمه يمارس ضد القبيلة والعشيرة.

والقرآن الكريم يقرر تقسيم الميراث على أكثر الناس قرابة للميت يقول الله تعالى: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(١). كما يوجب الوصية للأقربين الذين هم غير وارثين بسبب الحجب لاختلاف الدين أو ممن هم أقرب منهم فيقول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْقِنِينَ ﴾^(٢).

فالترابط العائلي والعشائري والقبلي لا يلغيه الإسلام، بل يدعمه ويؤيده كإطار اجتماعي تضامني في بناء الدولة.

وقد كان رسول الله ﷺ يأمر عماله بأخذ الزكاة من أغنياء من يرسله إليهم فيردونها إلى

(١) سورة الأحزاب آية ٦.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٠.

فقرائهم وما زاد يرسلونه إلى المدينة ليوزع على غيرهم من فقراء الأمة.
وعندما نزل قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١). قال أبو طلحة
الأنصاري: أحب مالي إلى بيرحاء وأنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى. فقال
ﷺ: بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وأني أرى أن تجعلها في الأقربين
فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسما أبو طلحة على أقاربه وبنو عمه. وقد حرم الإسلام
قطيعة الرحم واعتبرها كالفساد في الأرض قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٢). نعم لقد شجب الإسلام العصبية القبلية وأمر بمحاربتها، وذلك
إذا كانت قائمة على الحمية الجاهلية قال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»^(٣).

وقد حصل من بعض إثارته بين الأوس والخزرج حيث مر أحدهم وهو شاس بن
قيس على نفر من الأوس والخزرج، في مجلس جمعهم، فغاضه صلاح ذات بينهم، فأمر فتى من
إليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بعث وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج.
وتكلم الغلام فذكر القوم ذلك اليوم، فتفاخروا وتنازعوا واختصموا، وقال بعضهم
لبعض: إن شئتم عدنا لمثلها. وبلغ ذلك النبي ﷺ فخرج إليهم ومَنْ معه من الصحابة
فذكرهم بما أَلف الإسلام بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً متحابين وما زال بهم حتى بكى
القوم، وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً^(٤).

فقد غاظ إليهود انتشار الإسلام في مدينة يثرب وحتى أصبح اسمها المدينة المنورة بنور
الإسلام حيث تركت تعاليمه السمحة ومثله وقودته محمد عليه الصلاة والسلام أعمق الأثر
في نفوس كثير من أهل المدينة.

(١) سورة آل عمران آية ٩٢.

(٢) سورة محمد آية ٢٢.

(٣) البخاري، الصحيح، ج ٦، ص ١٥٤، رقم الحديث ٤٩٠٥، طبعة دار طوق النجاة، تحقيق محمد زهير.

(٤) البخاري، الصحيح، ج ٦، ص ١٥٤.

مشروعية الجهاد في الإسلام:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بالقتال في الإسلام وهي على كثرتها لم ينزل منها شيء قبل الهجرة النبوية، وقد كان أول تلك الآيات نزولاً قوله تبارك وتعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنِّهِمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذَا نِعْمٍ ﴿٤٠﴾﴾ (١).

أي أن الله أذن للمسلمين بقتال الكافرين بسبب قتالهم لهم وذلك لما حصل لهم من أذى واضطهاد وظلم، ومحاولة فتنهم عن دينهم، مما اضطروا للخروج من مكة، بلا جرم فعلوه، إلا أن يقولوا ربنا الله وحده، ولولا أن الله أمر بدفع الظالم وصاحب الباطل بالجهاد، لساد الباطل وعلا الكفر وأهله، وذل الأبرار وهدمت مواطن العبادة من صوامع للربهان، وكنائس للنصارى، ومعابد لليهود، ومساجد للمسلمين المعدة للصلاة وذكر الله تعالى، ومن نصر دين الله، وجاهد في سبيله بلسانه أو قلمه أو بأداة الحرب، أو غير ذلك، نصره الله وأعزه في الدنيا والآخرة فإن الله قوي لا يغلبه عزير لا يُدَل.

ففي هاتين الآيتين بيان لحكمة مشروعية القتال في الإسلام، مع التعهد بنصر من يقاتل في سبيل الله.

ثم نزل بعد ذلك في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَرَغُوا فَرِحُوا بِاللَّهِ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَرَغُوا فَرِحُوا بِاللَّهِ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾﴾

(١) سورة الحج الآيات ٣٩-٤٠.

عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾^(١). يأمر الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى من هذه الآيات بالقتال لإعلاء كلمته، وليس لأغراض دنيوية ودعاوى جاهلية. وأمرهم بقتال من يعتدي عليهم ولا يجوز لهم أن يعتدوا بقتال من لا يقاتلهم، لأن ذلك يعتبر تعدياً وعدواناً على الآخرين، والله سبحانه لا يحب المعتدين، وهم الذين يبدأون غيرهم بالقتال دون سبب موجب لذلك.

فهذه الآية ترد وتدحض قول من يقول إن الإسلام انتشر بحد السيف والإكراه. لأن هذه الآية فيها إخبار عن الله بأنه لا يحب المعتدين أي أنه سوف يعاقبهم يوم القيامة وإدعاء بعض المفسرين بأن هذه الآية منسوخة غير صحيح، لأن هذه الآية من قبيل الإخبار والنسخ لا يجوز للإخبار، وإنما يدخل على الأوامر والنواهي عند من يقول به، وذلك كما نص عليه علماء الأصول وهو ادعاء من غير دليل، كما أن هناك آيات كثيرة تدل على عدم جواز الإكراه في الدين منها قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمُ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾^(٥) وكثير غيرها.

وبالنسبة لقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ فَفَنُّوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ﴾^(٦). فالمراد: أقتلوا أولئك الذين بدأوكم بالقتال حيث وجدتموهم. وأخرجوهم من حيث أخرجوكم (من

(١) سورة البقرة الآيات ١٩٠-١٩٣.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٣) سورة يونس الآية ٩٩.

(٤) سورة الكهف ٢٩.

(٥) سورة الكافرون.

(٦) سورة يونس الآية ٩٩.

مكة) ووطنكم الذي حملوكم على الخروج منه، ولا تتخرجوا من ذلك، فقد فعلوا ما هو أشد من القتل في المسجد الحرام، إذ حاولوا فتنة المؤمنين عن دينهم بالتعذيب في مكة حتى فروا من وطنهم بدينهم مع أن للمسجد الحرام حرمة.

فلا تنتهكوها إلا إذا إنتهكوها هم بقتالكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم وأنتم الغالبون المنتصرون وذلك جزاء الكافرين.

وجاء في سورة النساء بعد الأمر بالقتال: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (١).

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا أَسَاخِرًا لَّهُمْ فَأَلَّ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢). وبذلك لم يكن الرسول ﷺ يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب، فلما تمألاً على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب وأتحدوا ضدهم مع قريش أمر الله تعالى بقتال المشركين كافة، بقوله في سورة التوبة أيضاً: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣). وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من مشركي الجزيرة العربية وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا الله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (٤).

(١) سورة النساء آية ٧٥.

(٢) سورة التوبة الآيات ١٣-١٥.

(٣) سورة التوبة آية ٣٦.

(٤) البخاري، الصحيح، ج ١، ص ١٤، رقم الحديث ٢٥، طبعة دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد زهير..

فالمراد بالناس المشركون الذين كانوا في الجزيرة العربية لأنهم هم الذين قاتلوا رسول الله ﷺ، ولما وجد المسلمون من إيهود خيانة للعهد ونقضهم لها ومساعدة المشركين في حروبهم أمر الله تعالى بقتالهم بقوله في سورة الأنفال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝٥٨ ﴾^(١). وقاتلهم واجب حتى يدينوا ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ليأمن المسلمون جانبهم قال تعالى في حقهم في سورة التوبة: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩ ﴾^(٢).

وبذلك صار قتال رسول الله ﷺ للأعداء على المبادئ الآتية:

- ١- اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدأوا بالعدوان، فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله تعالى بفتح مكة أو تعقد هدنة مؤقتة بين الفريقين.
 - ٢- إن تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالإسلام.
 - ٣- متى رؤي من إيهود خيانة وتحيزٌ للمشركين عوقبوا بالنفي أو القتل أو الإسلام حتى يؤمن جانبهم.
 - ٤- كل من بادر بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يدعن بالإسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر.
 - ٥- كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه والإسلام يقطع ويحب ما قبله.
- وقد أنزل الله تعالى في القرآن الكريم كثيراً من الآيات تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء، وتحذيراً من الفرار وقت الزحف.

(١) سورة الأنفال آية ٥٨.

(٢) سورة التوبة آية ٢٩.

فقال سبحانه في التحريض على الإقدام: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤) (١).

وقال في التحذير من التولي يوم الزحف: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ (١٥) وَمَنْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَنِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَكَبَّأً يُغَضِّبُ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ (٢).

بدء القتال:

بعد أن استقر رسول الله ﷺ، في مدينة يثرب، وبعد نزول الآيات من سورة الحج التي يأذن الله له فيها بقتال قريش، التي أضرت به وآذته ومن آمن معه واضطرتهم إلى الهجرة، وصادرت أموالهم ومنعت المستضعفين منهم من الخروج بعد أن آذتهم وسجنتهم من قبل أوليائهم قادة الكفر، أخذ عليه الصلاة والسلام يرسل السرايا، ويخرج أحياناً بنفسه للتصدي لقوافل قريش، حيث كانت عادة قريش أن تذهب بتجارها إلى الشام لتبيع وتبتاع، ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشرف القوم وسراهم، ولا بد لوصولهم إلى الشام من مرورهم بالقرب من يثرب، حيث تقع في طريق القوافل الذاهبة والأتية إليها، وهي تبعد عن مكة ما يزيد على (٤٠٠) كم، فرأى رسول الله ﷺ أن يصادر تجارتهم ليكون في ذلك عقاباً لهم وتعويضاً للمهاجرين على ما تركوه في مكة من أموالهم، وحتى تضعف قوة قريش المالية، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال، الذي لا بد من حصوله بينهم، لأن قريش لم تكن لتسكت عن تسفيه أحلامها وتحقير ألفتها، وخصوصاً وهم قادة العرب في ديانتهم، وفيها الكعبة التي يحج إليها سائر العرب فهي مركز رزقهم وعبادتهم.

(١) سورة النساء آية ٧٤.

(٢) سورة الأنفال آية ١٥-١٦.

وبعد ثمانية أشهر من مقام الرسول ﷺ والمهاجرين بالمدينة، بعث عمه حمزه بن عبد المطلب رضي الله عنه، في ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطئ البحر، ليعترض عيراً لقريش آتية من الشام، فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين من ناحية العيص (مكان يقع قرب المدينة المنورة) فصادف العير هناك، فلما تصافوا للقتال، حجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين، وعلى صلة طيبة بهما، فأطاعوه، فأنصرف بعض القوم عن بعض دون قتال.

ثم بعد شهر بعث ابن عمه عبيدة بن الحارث في ثمانين راكباً من المهاجرين، ليعترض عيراً أخرى لقريش، عدد رجالها مائتان وعليهم أبو سفيان، فوافوا العير في بطن رابغ، فكان بينهم الرمي بالنبال، ويقال أن أول من رمى من المسلمين سعد بن أبي وقاص، وخاف المشركون أن يكون المسلمون أعدوا لهم كميناً، فانهزموا، ولم يتبعهم المسلمون، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبه بن غزوان، وكانا قد أسلما وخرجا ليلتحقا بالمسلمين.

غزوة ودان:

ولاثنتي عشرة ليلة خَلَّتْ من السنة الثانية خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عباد، لعله يجد عيراً لقريش، فسار حتى بلغ ودان، (قرية بين مكة والمدينة)، فلم يلق حرباً، لأن العير كانت قد سبقته، وفي هذه الغزوة صالح عليه السلام بني ضمرة وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

غزوة بواط:

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آتية من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فسار إليها في مائتين من المهاجرين، وذلك في ربيع الأول، فسار حتى بلغ بواط، فلم يدركها إذ أتخذت طريقاً آخر، فقد كان المشركون يأخذون بالغ الحذر على أنفسهم ويجتهدون في تسمية أخبارهم عن أهل المدينة.

غزوة العُشيرة:

وأعقب رجوعه عليه الصلاة والسلام خروج قريش بأعظم عير لها فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية إلا أشتك في تجارة تلك العير، وكان رأسها أبو سفيان بن حرب.

فخرج لها رسول الله ﷺ حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ووقف ينتظر القافلة ففاته، وقد حالف رسول الله ﷺ بني مدلج وحلفائهم ثم رجع إلى المدينة.

غزوة بدر الأولى:-

وبعد رجوعه عليه الصلاة والسلام، بقليل جاء كُرُزُ بن جابر الفهري، إلى المدينة وهو من المتصلين بمكة وبقريش، فأغار على سرح المدينة وأغنامها وهرب، فخرج الرسول ﷺ في طلبه، فسار حتى بلغ سَفَوَانَ (واد في ناحية بدر) وفاته كرز ولم يلق حرباً، وتُسمى هذه الغزوة بدر الأولى.

سرية عبد الله بن جحش:

في رجب من هذه السنة الثانية للهجرة أرسل رسول الله ﷺ سرية عدتها ثمانية رجال، يرأسها عبد الله بن جحش، وأعطاه كتاباً مختوماً لا يُقْضَى إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه، فسار عبدُ الله يومين، ثم فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت كتابي هذا فانظر حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارهم»^(١). ولم يخبرهم رسول الله ﷺ بمقصدهم وهم بالمدينة حذراً من شيوع الخبر، فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود وترصد لهم قريش.

ثم سار عبد الله رضي الله عنه ومن معه، حتى وصلوا نخلة فمَرَّت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان، فحمل عليهم في آخر يوم من رجب، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان والحكم، وهرب نوفل،

(١) الغيتابي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ٢٧، رقم الحديث (٦٤).

واستاقوا العير، وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا، فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم، عابتهم قريش وإيهود بذلك، وعَنَّفَهُم المسلمون، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم»^(١). فندموا، فأنزل الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢). فَسَرَّيْ عَنْهُمْ وَأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً، بعد أن دفع المشركون فداءه.

وفي هذه الآية يتبين أن القتال في الشهر الحرام فيه اثم كبير، ولكن أكبر منه ما حدث من الأعداء من صد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وإخراج المسلمين من مكة. وقد كان إيذاؤهم للمسلمين لإخراجهم من دينهم أكبر من كل فعل. ولذلك أبيض القتال في الشهر الحرام لقمع هذه الشرور فهو عمل كبير يتقى به ما هو أكبر منه، واعلموا أيها المسلمون أن سبيل هؤلاء معكم سبيل التجني والظلم وأنهم لا يقبلون منكم العدل والمنطق، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطعوا، ومن يضعف أمام هجماتهم ويرتد عن دينه حتى يموت على الكفر، فأولئك بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا والآخرة وأولئك أهل النار هم فيها خالدون.

نلاحظ أن من خرج للقتال في هذه السرايا والغزوات التي حصلت قبل غزوة بدر هم من المهاجرين ولم يخرج فيها أحد من الأنصار.

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢١٧.

غزوة بدر الكبرى ٢هـ

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج بها أبو سفيان إلى بلاد الشام، وخرج بها رسول الله ﷺ في غزوة العشيرة فلم يدركها، فلم يزل مترقباً رجوعها، فلما سمع برجوعها ندب إليها أصحابه، وقال: «هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها»، فأجاب قوم، وثقل آخرون، لظنهم أن الرسول ﷺ لم يُرِدْ حرباً، فإنه لم يحتفل بها بل قال: «من كان ظهره حاضراً فليركب معنا». ولم ينتظر من كان ظهره غائباً. فخرج لثلاث ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان في السنة الثانية للهجرة وجعل ابن أم مكتوم للصلاة، ثم ولّى عليها أبا لبابه ورد من كان ليس أهلاً للقتال، وكان عدد من معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين، وواحد وستون من الأوس، والباقي من الخزرج، ومعهم فرسان، وسبعون بعيراً يعقبونها^(١). كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة يعقبون بعيراً، وكان رسول الله هو وعلي ومرثد الغنوي يعقبون بعيراً، وحامل اللواء مصعب بن عمير. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر ركباً ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر، فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم، وخافوا على تجارتهم، فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب، فإنه أرسل بدله العاص بن هشام مقابل دين له عليه وهذا أجمعت رجال قريش على الخروج، فخرجوا على الصعب والذلول، أمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين قال الله تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾^(٢). وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير.

أما رسول الله ﷺ فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للعير، فأرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير. ولما بلغ الرّوحاء^(٣). جاءه الخبر بمسير قريش لحماية عيرها، وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدرأ غداً أو بعد غد، فجمع عليه الصلاة

(١) الاعتقاد: ان يركب الواحد البعير مدة ثم ينزل ويركب غيره.

(٢) سورة الأنفال آية ٤٨.

(٣) الروحاء: موضع على بعد ٣٠-٤٠ ميلاً جنوب غرب المدينة.

والسلام كبراء الجيش وقال لهم: «أيها الناس إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم: العير أو النفير»^(١). فتبين له عليه الصلاة والسلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهي العير ليستعينوا بما فيها من الأموال، فقد قالوا: هلاً ذكرت لنا القتال فنستعد؟ وقد ذكر القرآن موقف هذه الفئة فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾^(٢).

ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد^(٣) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له بخير، ثم قال عليه السلام: أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تحب عليهم نصرته إلا ما دام بين أظهرهم. فإن فيها: يا رسول الله إنا برآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه ابناؤنا ونساءنا. فقال سعد بن معاذ، سيد الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «أجل» فقال سعد: قد آمنا بك وصدقناك، وأعطيناك على ذلك عهدنا، فامض لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله. فأشرق وجهه عليه السلام،

(١) الغيتابي، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ج ١٧، ص ٧٨ باب قصة غزوة بدر، دار إحياء التراث العربي.

(٢) سورة الأنفال الآيات ٥-٧.

(٣) برك الغماد: مكان قريب من مكة.

وسرّ بذلك، وقال كما في رواية البخاري: «أبشروا والله كأني أنظر إلى مصارع القوم»^(١). فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بدّ حاصلة، وحقيقةً حصلت، فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة، وسار متّبِعاً ساحل البحر فنجا، وأرسل إلى قريش يُعلّمهم بذلك، ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نحضر بدرًا فنقيم فيه ثلاثاً: ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً. فقال الأحنس بن شريق الثقفي لبني زهرة - وكان حليفاً لهم - ارجعوا يا قوم فقد نجّى الله أموالكم، فرجعوا، ولم يشهد بدرًا زهري ولا عدوي، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر^(٢) فنزلوا عدوته القصوى عن المدينة في أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين، فإنه لما قارب بدرًا أرسل عليه السلام عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار، فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص، فأتيا بهما، والرسول عليه السلام قائم يصلي، ثم سألاه عن أنفسهما، فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما لأنها ظنا أن الغلامين لغير أبي سفيان. فقال الغلامان: نحن لأبي سفيان فتركاهما. ولما أتمّ الرسول عليه السلام صلاته، قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكما تركتموهما؟ صدقا والله إنها لقريش». ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش؟» قالوا: هم وراء هذا الكثيب، فقال لهما: «كم هم؟» فقالا: لا ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟». قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. قال: «القوم ما بين التسعمائة والألف»، ثم سألهما عمّن في النفير من أشرف قريش فذكرا له عدداً عظيماً، فقال عليه السلام لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها»^(٣)، ثم ساروا حتى نزلوا بحدوة الوادي الدنيا من

(١) الهيثمي، جمع الزوائد منبع الفوائد، تحقيق الدين المقدسي، مكتبة القدس القاهرة (١٩٩٤م)، ج ٤، ص ٨٢، رقم الحديث (٩٩٧٨). قال رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) بدر: مكان يبعد عن المدينة المنورة ١٤٥ كيلو متر.

(٣) السقاف، تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن، دار الهجرة، (١٩٩٥) ج ١، ص ٢٠٩، رقم الحديث (٤١١)، وقال عنه صحيح.

المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جُنب وبعضهم مُجْدَثٌ.

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي، فشربوا واتخذوا الحياض على عُدوة الوادي، واغتسلوا وتوضأوا وملاؤا الأسقية، ولبدت الأرض، حتى ثبتت عليها الأقدام، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين، فإنه وَحَلَّ الأرض حتى لم يعودوا يقدرّون على الارتحال. ومصداق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(١). وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدد كي لا يفشل المسلمون، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَبْتَ كُفْرَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ وَلَتُنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُم فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٣).

ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء بدر، فقال له الحباب بن المنذر الأنصاري وكان مشهوراً بجودة الرأي: يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانفض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فإني أعرف غزارة مائه وكثرته، فتنزله وتغور ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماءً فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول ﷺ: لقد أشرت بالرأي، ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغورت، لينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه. ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم

(١) سورة الأنفال آية ١١.

(٢) سورة الأنفال آية ٤٣-٤٤.

نلقى عدونا، فإن أعزنا الله تعالى وظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وأن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا، وقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن أشد حبالاً لك منهم، ولا أطوع لك منهم راغبة في الجهاد، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، إنما ظنوا أنها العير، يمنعك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك فقال عليه السلام: أو يقضي الله خيراً من ذلك. ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب. ولما اجتمعوا عدل عليه السلام صفوفهم، فجعل مناكبهم متلاصقه وصاروا كأنهم بنيان مرصوص. ثم نظر لقريش وقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم نصرك الذي وعدتني به»^(١).

وفي هذا الوقت وقع خلاف بين عسكر المشركين، فإن عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب، ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش، ويحمل ما أصيب من غيره، ودعا الناس إلى ذلك. فلما بلغ أبا جهل الخبر وسمه بالجبن وقال: والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

وقبل أن تقوم الحرب على ساقها، خرج من صفوف الكفار الأسود بن عبد الأسد المخزومي وقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمته، أو لأموتن دونه. فخرج إليه حمزه بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه، فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحمه لير قسمه، فتبعه حمزه فقتله.

ثم وقف عليه السلام يجرض الناس على الثبات والصبر، وكان فيما قال: «وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به لهم، وينجي به من الغم» ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر... عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبه وابنه الوليد، فطلبوا أكفاءهم، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فقالوا: لا حاجة لنا بكم، إنما نريد أكفاءنا من بني عمنا. فأخرج لهم عليه السلام عبيدة بن

(١) حمزة محمد، منار القارئ شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة البيان، دمشق، ١٩٩٠م، ج ٤، ص ٣٢١، كتاب المغازي، رقم الحديث (٨٤٢).

الحارث بن عبد المطلب للأول، وحمزه بن عبد المطلب للثاني، وعلي بن أبي طالب للثالث. فأما حمزه وعلي فقتلا صاحبيهما، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضررتين كلاهما جرح صاحبه، فحمل رفيق عبيدة على عتبة فأجهز عليه، وحمل عبيدة بين الصفوف جريماً يسيل منح ساقه وأضجعوه إلى جانب موقفه ﷺ، فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة ووضع خده عليها وبشره عليه السلام بالشهادة فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمة حتى نُصَّرَع دونه ونذهل عن ابنائنا والحلائل^(١)

وبعد انقطاع هذه المبارزة، وقف عليه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب في يده، فمرّ بسواد بن غزيرة حليف بني النجار وهو خارج من الصف، فضربه بالقضيب في بطنه، وقال: «استقم يا سواد»، فقال أوجعتني يا رسول الله وقد بُعثت بالحق والعدل، فأقْدني من نفسك. فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه، وقال: «استقد يا سواد»، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه. فقال عليه الصلاة والسلام: «ما حملك على ذلك؟» فقال يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمَسَّ جلدي جلدك، فدعا له بخير، ثم ابتداء عليه السلام يوصي الجيش فقال: «لا تحملوا حتى أمركم، وإن اكتنّفكم القوم فانضحوهم بالنبل، ولا تَسْلُوا السيوف حتى يَغْشَوْكم»^(٢). ثم حضّمهم على الصبر والثبات، ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشحاً سيفه، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخاري: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد»^(٣) فقال أبو بكر: حَسْبُكَ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَنْجِزُ لَكَ وَعْدَهُ.

(١) أورده ابن كثير، وقال رواه الشافعي. ومعناه: نلتف حول رسول الله ﷺ لحمايته، حتى لو أدى ذلك إلى استشهادنا، ونغفل عن ابنائنا وزوجاتنا.

(٢) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، طبعة أولى، ج٦، ص٨٠٨، رقم الحديث (٢٨٣٥)، وقال عنه اسناده حسن.

(٣) البخاري، الصحيح، تحقيق محمد زهير، دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، ج٤، ص٤١، رقم الحديث ٢٩١٥.

لك وعده. فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾



ثم قام عليه السلام - يجرض الجيش «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ومقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلاً فله سلبه^(١). فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها: بخ بخ!، ما بيني وبين أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل.

واشتد القتال، وحمي الوطيس، وأيد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم فلم تكن إلا ساعة حتى هُزم الجمع، وولّوا الدُّبُرَ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتل من المشركين نحو السبعين، منهم من قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، قُتلوا أول القتال، وأبو البختر بن هشام: والجراح والد أبي عبيدة قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه، فلم يزدجر. وقتل أمية بن خلف جماعة من الأنصار، مع بلال بن رباح وعمّار بن ياسر، وقد سعي في ذلك لما كان يفعلها بها أمية في مكة. وقد حاول بعض الأنصار أسره، فصرخ بلال بأعلى صوته: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا. وقتل أبو جهل بن هشام على يد فتيان صغيران من الأنصار، وهما معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن جموح، لما كانا يسمعا منه أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله. وأجهز عليه عبد الله بن مسعود، وكان قد سأله لمن الدائرة اليوم فقال الله ورسوله، فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقا صعباً يا راعي الغنم، خذ سيفي وأستل رأسي وأرحني من هذه الحياة وأخبر صاحبك بأني ما زلت له أشد عداوة مما كنت، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «إن فرعون هذه الأمة أشد عداوة لله ورسوله من فرعون موسى، فإن فرعون موسى لما أدركه الغرق قال آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل أما أبو جهل فقد أعلن شدة عداوته لله

(١) المرجع السابق، ج ٤، ص ٩٢، رقم الحديث ٣١٤٢، باب من لم يخمس الأسلاب.

ورسوله^(١) ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان، وقُتل نوفل بن خويلد، قتله علي بن أبي طالب، وقُتل كثيرون غيرهم.

أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً، قتل منهم عليه السلام عقبه بن أبي مُعيط، والنضر بن الحارث اللذان كانا بمكة من أشد المستهزئين.

وكانت هذه الواقعة في (١٧) رمضان، وهو اليوم الذي ابتداء فيه نزول القرآن في رواية، وبين التاريخين (١٤) سنة قمرية كاملة.

وقد أخبر الله تعالى بهذا النصر قبل وقوعه في سورة الروم والمسلمون كانوا ما يزالون في مكة بقوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَكِينٌ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴿٢﴾. ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس باجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى^(٣).

ما بعد معركة بدر:

وبعد انتهاء المعركة، ولَّى المشركون من أهل مكة الأدبار صاغرين أذلاء من سوء ما حل بهم، وأقام رسول الله ﷺ ثلاث ليالٍ في بدر قام فيها المسلمون بدفن شهدائهم في هذه الغزوة، وقد اختلفت الروايات في عدد الشهداء، فهم أحد عشر رجلاً عند ابن إسحق، أربعة عشر رجلاً عند جمهور أصحاب المغازي والسير والمحدثين.

(١) وفي رواية: "الحمد لله الذي أخزأك يا عدو الل، فهذا كان فرعون هذه الأمة" الإمام أحمد، المسند تحقيق أحمد شاكر، رقم الحديث ٤٢٤٦.

(٢) سورة الروم الآيات ١-٦.

(٣) دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، طبعة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، ص ٤١، ٤٢.

كذلك أمر عليه الصلاة والسلام بدفن جثث المشركين في قليب بدر، لأنه كان من سننه عليه السلام في مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً، وعندما ألقى عتبة بن ربيعة والد حذيفة أحد السابقين إلى الإسلام، نظر النبي في وجه حذيفة فوجده قد تمعر وتغير لونه، فقال لعلك دخلك من شأن أبيك شيء. فقال: لا والله ولكني كنت أعرف من أبي رايماً وحلماً وفضلاً، وكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام. فلما رأيت ما مات عليه أحزنتني ذلك فدعا له الرسول ﷺ بخير. ثم وقف رسول الله ﷺ على قليب بدر فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم كتمتم أطعمتم الله ورسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(١). وهذه المخاطبة لأهل القليب إنما كانت على سبيل التوبيخ والإغاظة للمشركين كما أن فيه إدخال السرور على قلوب المجاهدين من أهل بدر وشفاء صدور من لحقه أذى من هؤلاء المشركين.

وقبل أن تنكسر شوكة المشركين بكثرة القتل والجراحات، استرخى بعض المسلمين في القتال إيثاراً للغنيمة واستبقاء للرجال طمعاً في فدائهم. فساء هذا الأمر بعض الصحابة. فقد روى ابن إسحق قال: ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنعون. فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال سعد أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك فكان الإثخان أحب إلي من أستبقاء الرجال.

وقد نزل بعد ذلك ما يؤيد رأي سعد رضي الله عنه وعتاب لهؤلاء في إسراعهم بأخذ الأسرى وجمع الغنائم.

(١) البخاري، مرجع سابق، ج ٥ ص ٧٦، رقم الحديث ٣٩٧٦.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) ﴿ لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦٨) (١).

فهذه الآيات لم تنزل لعتاب الرسول ﷺ والمسلمين بسبب قبوله الفداء من الأسرى وعدم قتلهم، كما ذهب إلى ذلك بعض كتاب السيرة، وإنما لما تبين من أنه لا يسوغ لأحد من الأنبياء أن يكون له أسرى يحتجزهم أو يأخذ منهم الفداء حتى يتغلب ويظهر عليهم، ويثقلهم بالقتل والجراح، فلا يستطيعون التحرك لقتال متجدد للمؤمنين، يعيقون به سير الدعوة إلى الله. ولكنكم أيها المسلمون سارعتم لجمع الغنائم وكثرة الأسرى ليكثر لكم فداؤهم، قبل التمكين في الأرض مجدداً، يريدون منافع الدنيا والله يريد لكم ثواب الآخرة، ورسول الله ﷺ لم يأمرهم بذلك ولم ينههم عنه.

وهذه الآية فيها عتاب لمن تعجل نهاية المعركة فأقدم على جمع الغنائم واستبقاء الرجال المقاتلين (أخذهم أسرى) لأخذ فدايتهم طلباً لعرض الدنيا والله يريد لكم الآخرة بقتلكم أعداء الله فتناثروا الثواب العظيم فالله قوي وقادر لا يُغلب ولا يأمر إلا بما فيه منفعتهم. ثم قال تعالى: ﴿ لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦٨) (٢). أي لولا حكم سابق من الله بالعفو عن المجتهد المخطئ لأصابكم فيما أخذتم وجمعتم من الأسرى والغنائم عذاب كبير.

وقد أمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم لتقسيمها بين مستحقيها من المسلمين، وقد حصل خلاف بين المسلمين في من يستحقها فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن حكم الله فيها فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ

(١) سورة الأنفال الآيات ٦٧-٦٨.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٨.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ (١).

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات أن أصحاب رسول الله ﷺ سألوا رسول الله بعد المعركة عن كيفية توزيع الأنفال، والمراد بالأنفال هنا الغنائم التي غنموها في معركة بدر، فقال لهم: إن حكمها خاص بالله ويقسمها الرسول على وفق أمره تعالى فلا رأي لأحد في ذلك، فما على المؤمنين إلا أن يتقوا الله ويزيلوا ما وقع بينهم من خلاف بسببها ويطيعوا الله ورسوله في كل أمر أو نهي إن كانوا آمنوا بالله حقاً.

وإنما عبر في هذه الآية عن الغنائم بالأنفال ليذكرهم ويوضح لهم بأن هذا المال غير مقصود في القتال، وإنما جاء عرضاً زيادة عن الهدف الأسمى والغاية العليا التي شرع الجهاد لأجلها، وهي إعلاء كلمة الله وحماية حوزة الإسلام.

وسبب الاختلاف بين الصحابة في توزيع هذه الغنائم لأنها كانت أول غنيمة في الإسلام ولم يكن قد نزل قبل ذلك أي حكم فيها، وبسبب العوامل الخفية الناتجة عن البيئة التي يعيشون فيها، فإذا استعرضنا جو البيئة العربية يظهر لنا عاملان كان لهما الأثر الكبير في هذا الاختلاف على الغنائم.

الأول: أن نصيب المقاتل من الغنيمة في نظر العربي يقاس به بلاؤه في المعركة وهذا حافز معنوي يحرص كل واحد منهم عليه.

الثاني: ما يشعر به العربي من لذة في الحصول على المال عن طريق الغزو والقتال. وبعد أن ذكر ما يستلزمه الإيمان وهو تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله ذكر لهم الصفات الكاملة لعباده المؤمنين فذكر خمس صفات وهي:

وجل القلب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند الاستماع لآيات القرآن، والتوكل على الله وحده، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزق الله.

(١) سورة الأنفال الآيات ١-٤.

وفي عدول الله سبحانه وتعالى عن الحديث عن حكم الاقتتال إلى الحديث عن الإيمان وجزائه استجاشه لإيمانهم، وذلك ليزهدوا في الغنيمة، وإيحاء لهم بما يجب أن يشغلهم، وإشارة لما يجب أن يتنافسوا فيه حتى ينالوا المراتب التي أعدها الله لعباده المؤمنين.

وقد بين الله بعد ذلك في هذه السورة أحكام غنائم الحرب التي سألوا عنها بعد أن ذكر كثيراً من أحكام القتال، وبواعثه، وأسباب النصر وغير ذلك من الأحكام فيما يتعلق بغزوة بدر وأسبابها فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنَجَّىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١).^(١)

فخطب الله سبحانه وتعالى أهل بدر خاصة والمسلمين عامة بقوله: إعلموا انما ظفرتم به من مال الكفار حكمه أن يقسم خمسة أخماس، خمس منها لله وللرسول يرصد للمصالح العامة التي يقررها رسول الله ﷺ في حياته، والإمام بعد وفاته عليه السلام، وباقي الخمس يصرف للمذكورين في الآية.

وأما الأخماس الأربعة الباقية من الغنيمة فهي للمقاتلين كما ذكرت الآية وسكتت عن كيفية توزيعها بينهم.

وقد قام ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة بتقسيمها بالسوية، وقيل أنه أعطى الفارس سهمين سهم له وآخر لفرسه وهذا ما صح عند الحنفية، وروي أنه أعطى الفارس ثلاثة أسهم سهم له واثنين لفرسه وهو مذهب الشافعية.

وكذلك أسهم لمن استشهد في بدر بسهم لكل شهيد، كما أسهم لبعض من لم يحضر بداراً لأمر كلف به.

أما بالنسبة لأسرى بدر كان عددهم سبعين رجلاً كعدد قتلى المشركين.

وقد أمر رسول الله ﷺ بقتل اثنين منهم وهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث فقد

(١) سورة الأنفال الآية ٤١.

كانا في مكة من أخبث شياطين الفجور في عداوتها لرسول الله عليه الصلاة والسلام واعتى طواغيت قريش في الوقوف أمام سير الدعوة الإسلامية. كما ذكرت كتب السيرة، وقد عاب بعض المستشرقين والمبشرين على رسول الله ﷺ قتل هؤلاء الاثني عشر من الأسرى مع أن هذا لا يعد بشيء يذكر بجانب ما قام به الكاثوليك أتباع البابا من مجازر وحشية ضد أخوانهم البروتستانتين في فرنسا، في مجزرة سانت بارتليمي، حيث قتلوا عدداً لا يحصى باسم المسيحية.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة استشار أصحابه فيما يعمل في الأسرى فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكني من فلان - لقریب له - فأضرب عنقه، وتمكن حمزه من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، وما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صنائدهم وأئمتهم وقادتهم. ووافق على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحه رضي الله عنهما.

وقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن نستبقيهم ونأخذ الفداء منهم، ويكون أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً.

فقال عليه السلام: إن الله ليؤلِّق قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وأن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَعْبَى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٦) (١).

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨) (٢). ومثلك يا عمر مثل نوح إذ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

دَيَّارًا ﴿٦٦﴾^(١). ومثلك يا عمر مثل موسى إذ قال: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿٨٨﴾^(٢).

أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء، وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى، فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم ألا يفعلوا كيلاً يبلغ محمداً وأصحابه حزنهم، فيشمتوا بهم فسكتوا وصمتوا على أن لا ييكونوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم، وتواصوا فيما بينهم أن لا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالي المسلمون فيه.

فداء أسرى بدر

فلم يلتفت إلى قولهم المطلب بن أبي وداعة السهلي، وكان أبوه من الأسرى فخرج خفية حتى أتى المدينة، وفدا أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها، وكان أربعة آلاف درهم.

ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة غلمان من المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه.

ومن الأسرى عمرو بن أبي سفيان، ولما طلب من أبيه فداءه أبي وقال: «والله لا يجمع محمد بين ابني وبين مالي، دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم».

فبينما أبو سفيان بمكة أذ وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً فعدا عليه فحبسه بابه عمرو، فمضى قوم سعد إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فأعطاهم عمراً ففكوا به سعداً.

ومن الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ. وكان عليه السلام قد أنثى عليه خيراً في مصاهرته، فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله في مكة طلبوا من أبي العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب عتبة وعتيبة بابنتي الرسول ﷺ «رقية وأم كلثوم» فأمتنع وقال: والله لا أفارق صاحبتني. ولما أسر أرسلت زينب في فدائه فلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها. فلما

(١) سورة نوح الآية ٢٦.

(٢) سورة يونس الآية ٨٨.

رأى عليه السلام تلك القلادة رَقَّ لها رقة شديدة وقال لأصحابه «إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها قلاذتها فأفعلوا»^(١). فرضي الأصحاب بذلك فأطلقه عليه السلام بشرط أن يترك زينب فتهاجر إلى المدينة. فلما وصل مكة أمرها باللحاق بأبيها، وكان الرسول أرسل لها من يأتي بها فأحتملوها» هذا ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح، رد عليه أمرته بالنكاح الأول.

ومن الأسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب: «دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل ليدلع (يخرج) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً. فقال عليه السلام: «لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، وعسى أن يقوم مقاماً لا تدمه» وَقَدِمَ بفدائه مكرز بن حفص. ولما أرتضى معهم على مقدار، حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء هذا.

وقد حقق الله خبر الرسول في سهيل فإنه لما مات عليه السلام أراد أهل مكة الإرتداد، كما فعل غيرهم من الأعراب، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن، حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(٢). ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣). وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(٤). ثم قال: والله أني أعلم أن هذا الدين سيمتد أمتداد الشمس في طلوعها فلا يغرنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره ومقوِّ دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر). وإن ذلك لم يزد

(١) الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق عبد العزيز الديوندي، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م، ج ٣، ص ٤٠٥.

(٢) صحيح البخاري، ج ٢، ص ٧١، باب الدخول على الميت بعد الموت، طبعة دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد زهير.

(٣) سورة الزمر الآية ٣٠.

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤.

الإسلام إلاً قوة، فمن رأيناه أرتد ضربنا عنقه، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه. وكان هذا الخبر من معجزات نبينا ﷺ^(١).

ومن الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، مر به أخوه فقال للذي أسره: شدد يدك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه، فقال له: يا أخي هذه وصايتك بي، ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم.

ومن الأسرى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً، ولما وقع في الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب فقال: علام ندفع وقد أستكرهنا على الخروج؟ فقال عليه السلام لقد كنت في الظاهر علينا، فأخذت منه فدية عن نفسه وعن ابن أخيه. ثم قال للرسول: لقد تركتني فقير قريش ما بقيت، قال كيف وقد تركت لأم الفضل أموالاً وقلت لها: أن مت فقد تركتك غنية. فقال العباس: والله ما اطلع على ذلك أحد^(٢)، وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فإنه عليه السلام لم يعف عن عمه مع علمه بأنه إنما خرج مكرهاً وقد أعفى غيره ممن تحقق له فقرهم، فهكذا العدل، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(٣). ومن الأسرى أبو عزة الجمحي الشاعر، فإنه كان شديد الأيذاء لرسول الله بمكة فلما أسر قال: يا محمد إني فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامتن، فمنّ عليه فضلاً منه.

ومن الأسرى وهب بن عمير الجمحي كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش، جلس يوماً بعد انتهاء الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر، فقال عمير: والله لولا ديني علي ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الفقر بعدي، كنت آتي محمداً فاقتله، فإن ابني اسير في أيديهم.

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين / تأليف الأستاذ الشيخ محمد الخضري / طبعة المكتبة التجارية الكبرى ص: ١٢١-١٢٢.

(٢) الخضري، نور اليقين، ص ١١١، طبعة دار الفيحاء، طبعة ثانية ١٤٢٥ هـ.

(٣) سورة النساء ١٣٥.

فقال صفوان: دينك علي وعيالك مع عيالي، فأخذ عمير سيفه وشحذه وسنه وانطلق حتى قدم المدينة. فرآه عمر فقال: هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا بشر. فقال للنبي عليه السلام: هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً بسيفه فقال: أدخله علي. فأخذ عمر بحبال سيفه وأدخله. فلما رآه عليه السلام قال: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف؟ قال قبحها الله من سيوف. فهل أغنت عنا شيئاً. قال عليه السلام: كلا بل قعدت أنت وصفوان في الحجر وقتلتما كيت وكيت فأسلم عمير وقال: كنا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان! فقال عليه السلام فقهاوا أحاكم في دينه وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه (١).

ولقد أنزل الله بعد ذلك حكم الأسرى في سورة محمد وفيه موافقة لما فعله رسول الله ﷺ بالنسبة لأسرى بدر. فقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَمِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (٢). فقد ذكرت هذه الآية أن المسلمين إذا التقوا مع الكافرين في القتال فعليهم أن يسارعوا إلى ضرب العدو على الرقاب لأنه أنجع وسيلة للإجهاز السريع على المضروب، حتى إذا أضعفوهم بكثرة القتل والجراح فيهم فعليهم أن يحكموا قيد الأسرى، فأما أن يمنوا بعد انتهاء المعركة بإطلاق سراحهم دون عوض، وإما أن يقدوهم بالمال أو أسرى المؤمنين أو غير ذلك من عوض. وليكن هذا شأنهم مع الكافرين أثناء المعركة وبعدها حتى تنتهي الحرب وتضع الحرب أوزارها وتنتهي بينكم وبين الكافرين. وهذا يدل على صحة ما ذهبنا إليه بأن العتاب كان بسبب المسارعة إلى الأسر قبل الإثخان في العدو بالقتل وكثرة الجراح، وليس بسبب الفداء كما ذهب إليه بعض كتاب السيرة.

(١) الخضري، نور اليقين، ص ١١١، طبعة دار الفيحاء دمشق (١٤٢٥هـ).

(٢) سورة محمد آية ٤.

دروس وعبر من غزوة بدر:

- ١- وجوب استشارة القائد لجيشه على القتال وخوض المعركة، كما فعل رسول الله ﷺ باستشارته للصحابة عندما علم بخروج قريش.
- ٢- وجوب استماع القائد لبعض وجهات النظر من أفراد جيشه كما أستمع رسول الله ﷺ لوجهة نظر الحباب بن منذر، الذي أشار عليه بأن ينزل لأقرب مكان للماء من العدو.
- ٣- وجوب احتياط الجيش لحياة قائدهم، كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم في بناء عريش لرسول الله ﷺ ليحرف على أرض المعركة والقيام بحراسته.
- ٤- إن جميع أفراد الأمة وقادتها سواء أمام القانون، يدل على ذلك قول الرسول ﷺ لمن طلب أن يقتاد لنفسه عندما ضربه بالقضيب ليستقيم في الصف عند القتال.
- ٥- عدم محاباة الأقارب عند لقاء العدو، حيث قدم رسول الله ﷺ في أول المعركة عمه وأولاد عمه للمبارزة دون غيرهم.
- ٦- إن النصر في المعركة لا يكون بكثرة العدد والعدة وإنما يكون بالعتيدة الصادقة والروح المعنوية لدى أفراد الجيش، فكان الأعداد أضعاف المسلمين عدداً وعدة في هذه الغزوة.
- ٧- عناية الإسلام بتعليم أفراد الأمة القراءة والكتابة فقد جعل رسول الله ﷺ فداء بعض الأسرى، تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة.
- ٨- إن قوة الإخوة الإيمانية أقوى من أخوة الدم فحسب - يدل على ذلك موقف مصعب بن عمير ممن أسر أخيه.
- ٩- إن الجهاد في سبيل الله يوجب قتال المسلم لكل من يقف في سبيل الدعوة ولو كان أباً أو أخاً أو أحد عشيرته، فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه المشرك عندما تصدى له ولدعوة الإسلام.

١٠ - على المسلمين أن لا يجعلوا المصالح الدنيوية مجالاً لإيقاع الخلاف والتفرقة بينهم كما حصل في إختلاف بعضهم حول توزيع الغنائم، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله عند أي خلاف بينهم.

١١ - على المسلمين أن يعدوا العدة لقتال أعدائهم وثم يتوجهوا إلى الله بخالص الدعاء طلباً للنصر كما فعل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة.

١٢ - ينبغي على المسلمين عند قتال أعدائهم، أن لا يسارعوا إلى أخذ الأسرى قبل أن يكثروا فيهم القتلى والجراح، ليضعفوا قوتهم ويلقوا الرعب في قلوب أعدائهم.

١٣ - إن حكم الأسرى في الإسلام هو المن عليهم بدون فداء أو مفاداتهم بالمال أو بأسرى المسلمين عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوا فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَتَابَعَدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ﴾ (١).

١٤ - كانت غزوة بدر فرقاناً وفتحة لنصر المسلمين على أعدائهم بقتل صنائدهم وبث الرعب في قلوب المشركين والمنافقين واليهود في أنحاء الجزيرة العربية.

غزوة السويق:

لم يطق أبو سفيان البقاء في مكة قابلاً تحت خزي هزيمة بدر دون أن يعيد إلى أذهان العرب شبه الجزيرة إن قريشاً ما تزال لها قوتها وعصبيتها ومقدرتها على الغزو والقتال، وحلف أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً، وليبر بقسمه جمع عدداً من رجال مكة وخرج فيهم مستخفين حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة خرجوا سحراً، فأتوا ناحية يقال لها العريض ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما وحرقوا بيته بالعريض ونخيلاً، ثم رأى أبو سفيان أن يمينه بغزو محمد برّت، فأنكفاً هارباً خائفاً أن يطلبه النبي وأصحابه.

(١) سورة محمد آية ٤.

ونذب النبي ﷺ أصحابه فخرجوا في أثره وهو على رأسهم، وأبو سفيان ومن معه جادون في الفرار يتزايد خوفهم، فيلقون ما يحملون من زادهم من السوق (الدقيق)، فإذا مر المسلمون به أخذوه، ولما رأى النبي ﷺ أن القوم أجمعوا الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة، وقد إنقلب فرار أبي سفيان وبالا عليه بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر، وبسبب السوق الذي ألقته قريش سميت هذه الغزوة من غزوات النبي ﷺ بهذا الاسم.

غزوة بني قينقاع:

بعد أنتصار المسلمين في غزوة بدر شعر إيهود والمنافقون في المدينة بتزايد قوة المسلمين، ورأوا أن النبي ﷺ الذي جاء إلى المدينة مهاجراً إليها منذ أقل من عامين يزداد سلطاناً وبأساً، ويكاد يكون صاحب الكلمة في أهل المدينة جميعاً لا في أصحابه وحدهم، فأخذوا يتآمرون على المسلمين.

وأول هذا التآمر، ظهر من يهود بني قينقاع الذين كانوا يسكنون داخل المدينة، فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه، وأظهروا مكنون ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، وأنتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار، قدمت إلى سوق بني قينقاع ومعها حلية. جلست إلى صائغ منهم، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها وهي تأبى، فجاء يهودي من خلفها خفية عنها، فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت أنكشفت ساقها، فضحكوا منها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله، واجتمعت إيهود على المسلم فقتلوه. فأستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود بني قينقاع فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. فطلب النبي ﷺ من بني قينقاع أن يكفوا أذاهم عن المسلمين، وأن يحفظوا عهد المودعة، أو ينزل بهم ما نزل بقريش. فقالوا: يا محمد، لا يغرنك ما لقيت من قومك، فإنهم لا علم لهم بالحرب، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس وكانوا أشجع إيهود، وقد أنزل الله تعالى فيهم في سورة آل عمران: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتَابُونَ وَهُمْ حَشْرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْإِهَادُ ۝١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ

كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ، مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ (١).

كما أمر رسول الله ﷺ في سورة الأنفال أن يعلن لبني قريظة نبذ عهدهم الذي بينه وبينهم ولا يناجزهم الحرب على توهم منهم من بقاء العهد. لأن ذلك خيانة وذلك بقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ (٥٨).^(٢) ونتيجة لعدم استجابتهم لتحذير الله ورسوله، أعلن رسول الله لهم الغاء العهد الذي بينه وبينهم، بحيث لا تعتبر مهاجمته لهم أو قتالهم خيانة للعهد. وكان بينهم وبين الخزرج قبل الإسلام عهد فتبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبد الله بن أبي وقال: أني رجل أخشى الدوائر فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) فترى الذين في قلوبهم مرض يسرُّ عيونهم فيقولون نخشئ أن نصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبيحوا على ما أسروا في أنفسهم نديمين ﴿٥٢﴾ (٣). وبعد ذلك أعلن يهود بني قينقاع، عداوتهم وتحصنوا بحصونهم فسار إليهم عليه السلام في النصف من شوال من السنة الثانية للهجرة بعد شهر من غزوة بدر يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وخلف على المدينة أبا لبابه الأنصاري. فحاصروهم خمس عشرة ليلة متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل أحد عليهم بطعام، ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين الأموال. فقبل ذلك عليه السلام، ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليالٍ، فذهبوا إلى أذرع على حدود بلاد الشام وبها أقاموا. وقد يقول البعض، إن قصة المسلمة التي كانت سبب الشجار بين المسلمين واليهود كان من

(١) سورة آل عمران الآيات ١٢-١٣.

(٢) سورة الأنفال آية ٥٨.

(٣) سورة المائدة الآيات ٥١-٥٢.

اليسير أنهاؤها، ذلك بأن قتل من يهود رجل ومن المسلمين رجل كذلك. ويجاب على ذلك بأن قتل إيهودي والمسلم لم يمخ ما لحق المسلم من أهانة في شخص تلك المرأة المسلمة. فكان في ذلك دلالة أن يهود بني قينقاع لا عهد لهم ولا ذمة، وكذلك إيهود إلى يوم الدين لا عهد لهم ولا ذمة كما هو الحال في فلسطين.

مصراع كعب بن الأشرف إيهودي:

لما رأى كعب بن الأشرف الأسرى مقرنين في الجبال، وعلم بمقتل سادات قريش من المشركين في معركة بدر قال: «هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها».

ثم ذهب إلى مكة يحرص على قتال النبي ﷺ، وينشد الأشعار ويكي أصحاب القليب، ثم رجع إلى المدينة فجعل يتشعب بنساء المسلمين، فأثار بذلك ثورة المسلمين وأجمعوا على قتله. وكان يعيش في حصن له يقع جنوب قباء، فقال رسول الله ﷺ: من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي أحب أن أقتله؟ قال: نعم قال: أنا لك به، فذهب ومعه أربعة من الأوس وفيهم أبو نائلة فضربوه بأسيا فمهم حتى مات (١).

غزوة غطفان:

بلغ رسول الله ﷺ أن بني ثعلبة ومحارب من قبيلة غطفان، تجمعوا برئاسة أحدهم اسمه دعثور يريدون الغارة على المدينة فأراد رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يهاجمهم في عقر دارهم قبل أن يهاجموه، كي لا يتمكنوا من هذا الإعتداء، فخرج إليهم من المدينة بأربعماية وخمسين رجلاً (٤٥٠) وذلك في ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة، وخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما سمعوا بمسير رسول الله عليه الصلاة والسلام إليهم هربوا إلى رؤوس الجبال. ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا نبع ماء يسمى ذا أمر، فعسكروا عنده وحدث أنه

(١) صحيح البخاري، طبعة دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، ج ٥، ص ٩٠، رقم الحديث (٤٠٣٧).

عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله، وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون، فأبصره دعثور، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال: الله. فادركت الرجل هيبة ورعباً أسقط السيف من يده، فتناولته عليه السلام وقال لدعثور: من يمنعك مني؟ قال لا أحد فعفى عنه، فأسلم الرجل ودعا قومه للإسلام، وحول الله تعالى قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه، إلى محبته وجمع الناس له، وذلك بسبب العفو مع المقدرة، وحسن معاملة رسول الله له وهو ما وصفه الله تعالى به حيث قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَیْظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (١).

وهذه الصفات المذكورة في الآية الكريمة ينبغي أن تكون صفات القائد المسلم وكل من يلي أمراً من شؤون المسلمين.

كما يجب على كل داعٍ إلى الله أن يخاطب الناس بالرفق واللين يدل على ذلك أيضاً أن الله تعالى عندما أرسل موسى وهارون إلى الطاغية فرعون الذي ادعى الألوهية قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ (٢).

تحويل القبلة:

مكث عليه الصلاة والسلام ستة عشر شهراً بعد هجرته إلى المدينة، يستقبل في صلاته بيت المقدس، وكان يجب أن تكون قبلته الكعبة، لأن الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله، وقد جدد بناءها أبواه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وليكون المسلمون متميزين بقبلتهم عن قبلة اليهود وغيرهم، كما هم متميزون عنهم في صلاتهم. فكان يقلب وجهه في السماء داعياً الله، أن تكون قبلته في صلاته هو ومن آمن معه الكعبة، فبينما كان هو في صلاته مع المسلمين في مسجده، إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة، حيث نزل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي

(١) سورة آل عمران ١٥٩.

(٢) سورة طه آية ٤٤.

السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ ﴿١﴾. فتحول وتحول المسلمون الذين كانوا وراءه نحو الكعبة.

وقد أكثر إيهود من التنديد بالمسلمين بهذا التحول، ورد الله عليهم في سورة البقرة في كثير من
الآيات منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ
لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴿٢﴾.

(١) سورة البقرة آية ١٤٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٢.

فرض صوم رمضان:

وفي شعبان من السنة الثانية للهجرة، أوجب الله على المسلمين صوم شهر رمضان وذلك بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر.

وذهب بعض العلماء إلى القول أن صوم ثلاثة أيام من كل شهر كان فرضاً على التخيير قبل فرض صوم شهر رمضان، وأستدلوا على ذلك بالآيتين اللتين قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُنْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۖ وَأَن نَّصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤) (٢).

وهو ما ذهب إليه معاذ وقتادة وعطاء، والمروي عن ابن العباس رضي الله عنه قالوا: فقد خاطب الله المؤمنين في هاتين الآيتين قبل فرض صوم شهر رمضان بأن الله فرض عليهم الصوم كما فرضه على الأمم الذين كانوا قبلهم وبين الحكمة من فرضية الصوم عليهم، وهي أن يحصل لهم في هذا الصيام تقوى الله وذلك لأن قلة الطعام تكسر قوة الشهوة الجنسية كما أن المسلم أثناء الصيام من طلوع الفجر إلى مغيب الشمس يكون في عبادة مستمرة توجد عنده ملكة المراقبة لله تعالى في أقواله وأفعاله، فيلتزم بطاعة الله واجتناب نواهيه، فتحصل له بذلك تقوى الله سبحانه وتعالى، وذكر أن هذا الصيام الذي فرض عليهم هو أيام معدودات وهي ثلاثة أيام من كل شهر، وذلك كقوله تبارك وتعالى عن أيام التشريق الثلاثة التي يقضيها الحاج في منى إذ يقول: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ

(١) سورة البقرة آية ١٨٥.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٨٣-١٨٤.

مَعْدُودَاتٍ ﴿١﴾. وشهر رمضان ليس أياماً معدودة وذكر أن من كان مريضاً أو مسافراً وأفطر فعليه أن يقضي الأيام التي أفطرها وأن على الذين يستطيعون الصيام مع بعض المشقة ويريدون أن يفطروا فعليهم أن يخرج أحدهم عن كل يوم يفطره إطعام مسكين من أوسط ما يطعم به أهله، وإن تطوع وأطعم أكثر فهو خير له. وإن الصيام خير له إن كان يدرك ذلك، وقالوا إن صوم ثلاثة أيام من كل شهر كان على التخيير وإن ذلك كان من قبيل التدرج في التشريع كما حصل بالنسبة لتحريم الربا والخمر رحمة بالعباد.

وبعد أن كان فرض الصوم ثلاثة أيام من كل شهر إن شاء صام وإن شاء أفطر، فُرض صيام شهر رمضان بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٨٥﴾ (٢).

وأستدلوا على ذلك بما يلي:

- ١- ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن صوم رمضان نسخ كل صوم قبله» (٣). وهذا يدل على وجود صوم قبل صوم شهر رمضان.
- ٢- إن الله ذكر حكم المريض والمسافر في الآيتين اللتين ذكر فيهما فرض الصيام كما ذكر حكم المريض والمسافر في آية فرض صوم شهر رمضان، فإن لم تكن آية فرض صوم شهر رمضان ناسخة لما ورد في الآيتين السابقتين لها كان ذلك تكراراً ينزه عنه القرآن الكريم.

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٣.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٣) الزيلعي، نصب الراية، المحقق محمد عوامة، صححه ووضع حواشيه عبد العزيز الديوبندي، ط ١، ج ٤، ص ٢٠٨، وقال اسناده ضعيف طبعة ١٩٩٧ م.

٣- إن في الآيات الأولى ما يدل على أن الصوم كان على التخيير، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأخرج فدية وإن صام فهو خير له، أما صوم رمضان فهو واجب على التعيين لا على التخيير. فهذا يدل على أن صوم الأيام المعدودات غير صوم شهر رمضان.

بيان مقادير الزكاة:

كانت الزكاة مفروضة في مكة قبل الهجرة من غير تحديد قدر، وكان الأمر متروكاً لرغبة المزكي في زيادة الأجر يدل على ذلك في سورة لقمان قوله تعالى: ﴿الْمَرَّ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾^(١). وهي آيات مكة. وبعد الهجرة وقبل غزوة بدر، حددت مقادير الزكاة في الإسلام، والأموال التي تجب فيها الزكاة، ومن يستحقها وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء منهم الأستاذ عبد الجليل عيسى في تفسيره^(٢) كما يدل على أن الزكاة كانت قد فرضت في مكة ورود الأمر بها في كثير من السور المكية منها قول الله تعالى في سورة المزمل آية ٢٠: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي سورة مكية نزلت في السنة الأولى من البعثة. فالإسلام هو النظام الوحيد الذي أوجب في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للفقراء والمساكين والمحتاجين.

وكان رسول الله ﷺ يقوم بجمعها وتوزيعها على مستحقيها، فلو قامت الحكومات المسلمة بجمع زكاة الأموال التي أوجب الله فيها الزكاة، وقامت بإسثمارها وتوزيعها على مستحقيها كما أمر الله لما بقي فقير ولا محتاج في المجتمع المسلم.

ففرضية الزكاة بمقاديرها التي حددها الشرع، وأصناف الأموال التي تجب فيها وتوزيعها على مستحقيها من أهم الدعامات في بناء الأمة والدولة الإسلامية بعد الدعامات الثلاث التي سبق ذكرها، في إقامة الدولة الإسلامية في زمن رسول الله ﷺ.

(١) سورة لقمان الآيات ١-٤.

(٢) عبد الجليل عيسى (شيخ كلية اللغة العربية صول الدين بالأزهر سابقاً) تفسير القرآن الكريم للقراء والفهم المستقيم في (تفسير بداية سورة لقمان) الجزء الثالث، ط ٣، ص ٥٣٩.

ولمعرفة تفصيلات الزكاة وأحكامها يرجع لها في أبوابها في كتب الفقه.

كذلك من أهم الدعامات والأسس التي وضعها الإسلام لإقامة المجتمع والدولة الإسلامية وحدة العقيدة والتي أساسها الإيمان ووحداية الله والتي يتبعها الإيمان باليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين. وكذلك ما أنزله الله من تشريع ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١). وعلاقته بأسرته وهو ما يعرف بنظام الأحوال الشخصية بمجتمعه بوضع نظام المعاملات والعقوبات وعلاقته بأخيه الإنسان.

غزوة أحد ٣هـ

بعد غزوة بدر وقتل من قتل فيها من صناديد قريش ونجاة القافلة، اجتمعت قريش لتوظيف أرباح هذه القافلة في حرب رسول الله ﷺ والثأر لقتلهم في بدر، وجمعوا لذلك الرجال، فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مئتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وكان معهم بعض حلفائهم من الأعراب، وأبو عامر الراهب الأوسي وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ، ومعه عدد ممن هم على شاكلته، وقد حرض الشعراء الناس بشعرهم وأثاروا فيهم الغيرة والحمية. ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشياً له اسمه وحشي، وكان رامياً قلماً يخطئ وقال له: أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزه بعمي طعيمة فأنت حر.

وقد خرجت قريش في منتصف شهر شوال سنة ٣هـ، ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب الأشراف منهم نساءهم كي لا ينهزموا، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة.

وأما رسول الله عليه السلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمه العباس بن عبد المطلب، الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب، محتجاً بما أصابه يوم بدر.

ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين، جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال: إن

(١) سورة الشمس الآية ٩.

رأيتهم أن تقيموا بالمدينة وندعوهم حيث نزلوا، فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبي أحد زعماء الخزرج. أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدرأ منهم فأشاروا عليه بالخروج، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب.

وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم، لأنهم الأكثر عدداً والأقوى جلدأً، فصلى الجمعة بالناس، وحضهم على الثبات والصبر، وقال: «إن النصر مع الصبر»^(١)، ثم دخل حجرته ولبس لامته وتقلد سيفه. ولما رأى ذوا الرأي من الأنصار، أن الأحداث أكرهوا رسول الله على الخروج لاموهم، وندم الذين اقترحوا الخروج فقالوا: استكرهناك يا رسول الله، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد، فقال رسول الله ﷺ: (ما ينبغي لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)^(٢)، ثم عقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين مصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن الخضير.

وخرج من المدينة بألف رجل، ثم استعرض الجيش، فرد من استصغره، وكان ممن رد رافع بن خديج وسمرة بن جندب، ثم أجاز رافعاً لما قيل له إنه رام، فبكى سمره وقال لزوج أمه: أجاز رسول الله رافعاً وردني مع أنى أصرعه، فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرة، فأجازه.

ثم بات عليه الصلاة والسلام محله، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة. وفي السر، سار الجيش حتى إذا كان في بستان بين المدينة وأحد، رجع عبد الله بن أبي سلول

(١) المستدرک، الحاكم، ج ٣، ص ٦٢٤، رقم الحديث ٦٣٠٤. الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، تحقيق د. محمد إسحق، مكتبة دار السلام، ٢٠١١م، ج ١١، ص ٨٥، رقم الحديث ٩٧١٩.

(٢) رواه ابن هشام، ج ٢، ص ١٢٦، عن ابن إسحق عن الزهري وغي ره رسلاً وقد وصله الإمام أحمد ج ٣، ص ٣٥١، عن طريق أبي الزبير عن جابر ونحوه وسنده عن شرط مسلم، وقال الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة إن هذا الحديث صحيح، رواه البخاري بلفظ لا ينبغي لنبى يلبس لامته فيضعها حتى يحكم الله، دار طوق النجاة، ج ٩، ص ١١٢، باب قوله تعالى: "وأمرهم شورى بينهم".

بثلاثمائة من أصحابه، وقال عصاني وأطاع الولدان، فعلام تقتل أنفسنا.

ولما فعل ذلك عبد الله بن أبي وأصحابه، همت طائفتان من المؤمنين بالرجوع معه لأنه لم يكن قد ظهر نفاقه ولما كانوا صادقي الإيمان صرف الله سبحانه عنهم الفشل وثبتهم، وبذلك بقي من جيش المسلمين سبعمائة مقاتل، معهم مائة درع وفرس أو فرسان، وهم خلاصة صفوة المجاهدين، فصفهم رسول الله ﷺ وهو يرى أعداءه وهم يرونه.

وجعل على جبل قريب من أحد خمسين من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير، ويعرف هذا المكان اليوم بجبل الرماة، وكانوا على ظهر الجبل خلف الجيش، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا (لا تغادروا مكانكم) وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تبرحوا»^(١) ثم ابتداء القتال بالمبارزة فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله، ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة، فقتله علي، فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزه، فحملة أخ لها اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها ينضحها المسلمون بالنبل فيتقهرون.

ولما التقت الصفوف وحميت الحرب، ابتداء نساء المشركين يضر بن بالدفوف وينشدن الأشعار تهبجاً لعواطف الرجال، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل حسبي الله ونعم الوكيل»^(٢).

وفي هذه الأثناء قتل حمزه بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء غافله وحشي وهو يجول بين الصفوف وضربه بحربة لم تخطيء ثنايا بطنه.

هذا ولما قتل حملة اللواء من المشركين، ولم يقدر أحد على الدنو من اللواء، فولوا الأدبار، ونسأؤهم يبيكين، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم. فلما رأى ذلك الرماة والذين يجمعون ظهر

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٩٤، رقم الحديث (٤٠٤٣)، دار طوق النجاة ١٤٢٢ هـ.

(٢) الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، المحقق د. محمد إسحق، دار السلام بالرياض سنة ٢٠١١ م، ج ٢، ص ٤٢٦، رقم الحديث (٦٧٣٢) وقال المحقق بصحته.

المسلمين قالوا: ما لنا في الوقوف حاجة، ونسوا أمر رسول الله، وذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا، أما رئيسهم فثبت ومعه قليل منهم.

فالتف خالد بن الوليد على جبل أحد، ووصل إلى جبل الرماة من خلف من بقي منهم فقتل من ثبت من الرماة، وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بالغنائم.

فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وأنتفضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً وأعمل المشركون في صفوف المسلمين قتلاً، واجتمع المشركون حول لوائهم الذي قامت برفعه إحدى نسائهم، وقام ابن حميثة أحد المشركين بقتل مصعب بن عمير حامل لواء رسول الله ﷺ، وأشيع أن رسول الله ﷺ قد قتل. فراجع المسلمون، وكر المشركون عليهم، وأنتهزوا الفرصة وكان يوم بلاء وتمحيص، وخلص العدو إلى رسول الله، وأصابته حجارتهم حتى وقع لشقه وأصيبت ربايعيته، وشج رأسه وجرحت شفته، وسال الدم على وجهه ﷺ.

وكان من نتيجة تراجع المسلمين أن انهزم جماعة من بينهم الوليد بن عقبه، وخارجة بن زيد، ورفاعة بن المعلا، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم وتوجهوا إلى المدينة، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا.

وثبت رسول الله ﷺ ومعه جماعة من مشاهير الرماة، منهم أبو طلحة الأنصاري وكان رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله وهو يقول، وجهي لوجهك فداء. وكل من كان يمر معه كنانته يقول له عليه الصلاة والسلام أنثرها لأبي طلحة، وكان أنس بن مالك ربيب أبي طلحة زوج أمه أم سليم ومن ثبت سعد بن أبي وقاص وكان عليه السلام يقول له: «أرم سعد فذاك أبي وأمي»^(١) وسهل بن حنيف الذي نضح عن رسول الله بالنبيل، حتى انفرج عنه الناس، ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشه الأنصاري تترس على رسول الله فصار النبيل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه.

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٩٧، رقم الحديث ٤٠٥٩، طبعة دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

وقد أقبل أبي بن خلف يريد قتل رسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ حربة ممن كانوا معه وقال: خلوا طريقه فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه أثناء عودته، ولم يقتل رسول الله ﷺ أحداً غيره.

وكان أبو عامر الراهب الذي خرج مع قريش قد حفر حفراً غطاها ليقع فيها المسلمون، فوقع رسول الله ﷺ في واحدة منها، فاعمى عليه وخذشت ركبته، فأخذ علي بيده هو وطلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر ربايعيته، وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص وقتله.

كما جرحت وجنتا رسول الله ﷺ بسبب دخول حلقتي المخفر^(١) فيهما، وذلك من ضربة ضربه بها ابن قميئة، وكان أبو بكر حاول إخراج الحلقتين من وجه رسول الله، فمنعه أبو عبيدة وقام بها أبو عبيدة. وقد كره أبو عبيدة تناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزم عليها بأسنانه واستخرج أحد الحلقتين، ووقعت ثنيتة مع الحلقة الأولى، وفعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقع ثنيتة الأخرى مع الحلقة الثانية رضي الله عنه. وكان أبو عبيدة من أحسن الناس مهتماً، كما قال أبو بكر الصديق.

ومن أبلى في هذه المعركة بلاءً حسناً دفاعاً عن دين الله ورسوله أبو دجانة (سماك بن خرشه). الذي أخذ بالسيف الذي عرضه رسول الله ﷺ بقوله: من يأخذ هذا السيف بحقه. فقال أبو دجانة: فما حقه؟... قال رسول الله ﷺ، أن تضرب به العدو حتى ينحني فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه فأخرج عصابته الحمراء (عصابة الموت) وعصب بها رأسه وراح يتبختر بين الصفوف. فقال رسول الله ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن. فاندفع أبو دجانة يشق صفوف المشركين لا يلقى أحداً إلا قتله، وفي هذه الأثناء رأى أحدهم يخمش الناس خمشاً شديداً فحمل عليه فولول فإذا هي هند بنت عتبة فارتد عنها إكراماً لسيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة. ومن أبلى كذلك بلاءً حسناً، حمزة بن عبد المطلب أعظم شجعان المسلمين

(١) المخفر: هو ما يستر به المقاتل وجهه.

المعروف بأسد الله، حيث قتل عدداً من المشركين، إلا أن هند بنت عتبة كانت قد وعدت وحشياً الحبشي خيراً كثيراً أن هو قتل لها حمزة ثأراً لوالدها ولمن قتل من الأعمام عليها في بدر، كما كان جبير بن مطعم قد وعد وحشياً كذلك بالحرية إن هو قتل حمزة، فقد قصد وحشي سيدنا حمزة بحربته وضربه في أسفل بطنه فأهلكته.

وكذلك أنس بن النضر، كان ممن ثبتوا وأبلاوا بلاء حسناً حين انهزم الناس، وتقدم يقاتل فلقي جماعة تركوا القتال فقال لهم: ما يجلسكم؟ قالوا قتل رسول الله ﷺ قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا وموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القوم فقاتل حتى استشهد. قال أنس بن مالك: لقد وجدنا بابن النضر (أنس) يومئذ سبعين ضربة ما عرفته إلا أخته من بنانه (أطراف أصابعه).

ومن أبلى كذلك بلاء حسناً، سعد بن الربيع، يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد، أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجددك؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى فوجدته وهو بأخر رمق وفيه سبعون ضربة، ما بين طعنة من رمح، وضربة بسيف، ورمية سهم، فقلت: يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجددك؟ فقال: وعلى رسول الله السلام، وقل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة وقل لقومي الأنصار، لا عذر لكم عند الله أن خلص إلى رسول الله وفيكم طرفة عين. وفاضت نفسه من وقتها^(١).

ومن النساء المجاهدات في هذه الغزوة أم عمارة الأنصارية، خرجت أول النهار ومعها سقاء تدور به على المجاهدين، تسقي من استسقى، فلما انهزم المسلمون ألقوا سقائها واستلت سيفاً تباشر القتال، تذب عن رسول الله ﷺ حتى أصيبت. فقال عنها رسول الله ﷺ: ما التفت يوم

(١) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة الأوقاف (١٣٨٧هـ)، ج ٤، ص ٩٥، رقم الحديث ٧٠.

أحد يميناً ولا شمالاً إلا أراها تقاتل عني. كما كانت عائشة، وأم سليم تنقلان قرب الماء على ظهريهما، وتفرغانها في أفواه القوم ثم ترجعان فتملأها ثانية، ثم تحيثان تفرغانها في أفواه القوم^(١).
وخرج علي بن أبي طالب فملاً درقته ماء، وغسل وجه رسول الله ﷺ من الدم، وكانت فاطمة بنت رسول الله تغسله، وعلي يسكب الماء في المجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من الحصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم^(٢).
ووقعت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين يجعدن الآذان والأنوف، يجعلن منها قلائد لهن!! وبقرت هند كبذ حمزة رضي الله عنه فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها.

وكان عدد القتلى من المسلمين نيفاً وسبعين شهيداً. ستة من المهاجرين والباقيون من الأنصار، وقد قتل من المشركين عشرون رجلاً.

ومن قتلى الأنصار غير الذي سبق ذكرهم. حنظلة بن عامر، والذي عرف بحنظلة الغسيل وكان ليلة المعركة مُعرساً، فخرج جنباً إلى المعركة فقاتل وقتل شهيداً وراه النبي ﷺ والملائكة تغسله، وهو ابن أبي عامر الفاسق الذي كان مشهوراً في الجاهلية بالراهب وكان يقاتل مع قريش. وممن استشهد في هذه الغزوة عمرو بن أقيش من الأوس من بني أشهل، فقد قاتل ونال الشهادة ولم يصلل لله صلاة! فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن عمرو بن أقيش كان له رباً في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد، قال أين فلان؟ قالوا بأحد، فلبس لامته وركب فرسه ثم توجه قبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله

(١) ابن حجر، الفتح، باب مداواة النساء الجرحى، ج ٦ ص ٨٠.

(٢) رواه البخاري في غزوة أحد باب ما أصاب النبي من جراح يوم أحد، ومسلم في غزوة أحد بأختلاف يسير.

عنه، فقال لأخته: سليه (إسأليه) حمية لقومك أو غضباً لهم أم غضباً لله؟، قال: بل غضباً لله ورسوله. فمات فدخل الجنة وما صلى لله صلاة^(١).

وكان أبو هريرة يقول: خبروني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط. فيسكت الناس. فيقول أبو هريرة: هو أخو بني الأشهل.

ومن الأنصار الذين استشهدوا في أحد، عمرو بن الجموح، وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجته والد جابر بن عبد الله، فأنت زوج عمرو هند بنت حرام، وحملتهم (زوجها وابنها وأخاها) على بعير لتدفنهم بالمدينة فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أحد فرجعوا.

وبعد ما أصيب عليه الصلاة والسلام بتلك الإصابات، سار بين سعد بن أبي وقاص، وسعد بن عباد، يريد الشعب داخل أحد، تاركاً ميدان المعركة التي أصيب بها المسلمون، بعد أن انتصر في أولها، ومعه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير، والحارث بن الصمة، وكعب بن مالك، وكانوا قد أصيبوا بكثير من الجراحات، وجعل طرف الشعب من الجهة اليمنى، وهي الجهة الشمالية من جبل أحد خلف ظهره، ولحق بهم المشركون وجعلوا طرف الشعب من الجهة الجنوبية من الجبل خلف ظهرهم، فأصبح الجيشان متقابلين داخل شعب جبل أحد، وبينهما ساحة تضيق وقد تتسع، ومعدل المسافة بينهما بعض مئات الأمتار. ثم إن أبا سفيان صعد على مكان عالٍ من الجبل، وخاطب المسلمين الذين أمامه، ونادى بأعلى صوته، هل محمد حي؟ فأجاب عمر وإنه ليسمع كلامك الآن، فقال أبو سفيان أنت عندي أصدق من أبي قميئة - وهو الذي زعم أنه قتل النبي - ثم قال «إن الحرب سجل يوم بيوم» فقال النبي ﷺ: قم يا عمر فأجبه فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء قتلتنا في الجنة وقتلتكم في النار قال أبو سفيان، لنا العزى ولا عزى لكم. فقال عمر، الله مولانا ولا مولى لكم^(٢).

ثم قال: إنكم ستجدون في قتلكم مثلى ولم أسر بها ولم تسؤني وما نهيت ولا أمرت.

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله تعالى.

(٢) صحيح البخاري، طوق النجاة، مرجع سابق ج ٥، ص ٩٤ رقم الحديث ٤٠٣٤ باب غزوة أحد.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ما حصل في هذه الغزوة قال الله تعالى:
﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ^(١) بِإِذْنِهِ ^ط حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ
فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ^ع مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ
يُرِيدُ الْآخِرَةَ ^ع ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ^ط وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ^ط وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ^ق إِذْ تَصْعَدُونَ ^(٢) وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ ^ط وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي
أَحْرَابِكُمْ فَأَتَابَكُمُ عَمَّا بَغَرْتُمْ لِكَيْلًا ^ط تَحْزِنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ^ط
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ^ق . ^(٣)

لقد ذكر الله في هاتين الآيتين: ما حصل للمسلمين في غزوة أحد، وأسباب ذلك حين بين الله
تعالى صدقهم وعده بتحقيق النصر لهم، إذ أخذوا يقتلون المشركين بشدة فولوا الأدبار بإذن الله
وتوفيقه، فلما خالف معظم الرماة أمر رسول الله وتركوا أماكنهم طمعاً في الغنيمة بعدما أراهم الله ما
يجبون وهو النصر على الأعداء، فمنهم من كان يريد في قتاله الدنيا بالحصول على الغنيمة، ومنهم من
كان يريد بقتاله ثواب الآخرة.

لما كان ذلك، صرفكم الله عنهم، بأن منعكم النصر عليهم، وأن ما حصل لكم من جراح وقتل
ليمتحنكم، فيظهر للناس المخلص والمؤمن الصادق الذي ثبت في ميدان القتال من غيره، ولقد عفا الله
عمن رجع وتاب، والله ذو الفضل على المؤمنين.

واذكروا ما حصل من بعضكم إذ يهربون بعيداً عن ميدان المعركة فراراً من القتال ولا يميلون
على أحد ممن ثبت مع النبي ﷺ في ميدان القتال بنجدة أو مساعدة، مع أن النبي ﷺ كان يدعوهم
أن يرجعوا، فجازاهم الله غمّاً بالهزيمة بسبب غمهم له عليه السلام بمخالفة أمره ليبتيهم وقد

(١) تحسونهم: تقتلونهم.

(٢) تصعدون: تذهبون بعيداً في صعيد الأرض فراراً من القتال.

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٥٢-١٥٣.

عفى عنهم، وقد بين الله ذلك حتى لا يجزنوا على ما فاتهم من الغنيمة وما أصابهم من الهزيمة والله عليهم بمقاصدكم وأعمالكم.

وقد دل قوله تعالى بعد هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَفِيئُ قَدَّ أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسَهُمْ يَظُنُّوْنَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾^(١).

على أنه كان في صفوف المسلمين بعض المنافقين لم ينخلدوا أو ينسحبوا مع عبد الله بن أبي سلول، طمعاً بالغنيمة والإرجاف بالمؤمنين.

وقد ذكر القرطبي عند تفسيره لهذه الآية أسماء بعضهم^(٢).

وقد ذكرت هذه الآية أيضاً أن هناك طائفة مع المسلمين في المعركة كان همهم أنفسهم، وظنوا بالله غير ظن الحق، بأن الله لن ينصر رسوله كظن أهل الجاهلية، يقولون مستكبرين هل كان لنا من أمر النصر الذي وعدنا به شيء؟ قل لهم أيها النبي الأمر كله لله في النصر والهزيمة يصرف الأمر في عباده إن أتخذوا أسباب النصر نصرهم وإلا فلا.

وبعد أن انسحب المشركون وتوجهوا إلى مكة ذهب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى أرض المعركة، يتفقد القتلى، ولما رأى عمه حمزه قد بقر بطنه وقُتِلَ حزن أشد الحزن، وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، فقال عليه السلام لابنها الزبير ارجعها حتى لا تفجع بأخيها، فقال لها يا أمه أن رسول الله يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم، قد بلغني أن قد مُتَّلت بأخي وذلك في سبيل الله، لأحسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله، وأتته فنظرت إليه وصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر رسول الله بدفنه، ودفن باقي الشهداء بدمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصل عليهم.

وبعد أن دفن المسلمون قتلاهم رجع عليه الصلاة والسلام ومن كان معه إلى المدينة تاركين

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٤.

(٢) تفسير القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م ج ٤، ص ٢٤١-٢٤٣.

وراءهم سبعين من الشهداء، ويجز في نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة بعد النصر وفي طريق عودتهم مروا بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها، وأبوها مع رسول الله ﷺ فلما نعوها لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ فأشير إليها بوجوده، فلما رآته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَل! تريد صغيرة^(١).

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة رأى اليهود والمشركين والمنافقين فيها يظهرن السرور لما حل بالمسلمين في هذه الغزوة، فرأى أنه لا بد من عمل يخفف ما وقع بهم، ويرد إلى المسلمين قوتهم المعنوية، وتدخل الروح في قلوب اليهود والمشركين والمنافقين. وتعيد عليه ولأصحابه سلطانهم بيثرب كما كان.

فلما كان الغد من يوم أُحُد وكان يوم الأحد في ست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بالخروج في طلب العدو، وأذّن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. وكان المسلمون مثخنون بالجراح، فخرجوا مع رسول الله ﷺ لمطاردة قريش، ولم يتخلف منهم أحد!! وأنتهوا إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال. وكان أبو سفيان ومن معه بالرَّوْحَاء، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لم تفعلوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم ثم تركتموهم ولم تبتروهم وبينما هم يفكرون بالرجوع لمقابلة الرسول ومن معه في المدينة مر بهم معبد الخزاعي وكان قد مر بالنبي ﷺ وهو بحمراء الأسد، فسأله أبو سفيان عن شأن محمد فأجابه معبد - وكان لا يزال على الشرك - «إن محمداً قد خرج في أصحابه في جمع لم أر مثله قط، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً، ومنكم للثار طلباً». ففكر أبو سفيان في عاقبة الرجوع إن رجع، فقد لا ينتصر، كما فكر بالفرار وعدم مواجهته للمسلمين بعد انتصاره، فتقول العرب في قريش ما كان يود أن تقوله في محمد وصحبه، فلجأ إلى الحيلة، فبعث مع ركب عبد قيس أن يبلغوا محمداً وصحبه أنه قد أجمع السير إليهم ليستأصل بقيتهم.

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٠٥.

فلما أبلغ الركب الرسالة إلى النبي بحمراء الأسد، لم تتزعزع عزيمته وعزيمتهم ولم تن قوتهم، بل ظل رسول الله مع المسلمين في مكانتهم يوقدون النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة، ليدل رسول الله قريشاً على أنه على عزمه وأنه منتظر رجوعهم، ثم تزعزعت همة أبو سفيان وقريش بالنسبة للرجوع للقتال. وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد، وعادوا أدراجهم متجهين نحو مكة.

وفي أثناء قيام رسول الله في حمراء الأسد، ظفر عليه السلام بأبي عزة الشاعر الذي من عليه ببدر وعفا عنه، بعد أن تعهد أن لا يكون على المسلمين، فأمر بقتله.

فقال: يا محمد أقلني وامن علي، ودعني لبناتي وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت، فقال عليه السلام: «لا والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين. لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين. أضرب عنقه يا زيد»^(١).

فضرب عنقه، وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف، لمن أراد أن يخادع المسلمين، فلا بد من الحزم لإقامة دعائم الدولة، فرجع رسول الله إلى المدينة، وقد أسترده كثيراً من مكانته التي كانت قد تزعزعت أمام أعدائه إثر غزوة أحد.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على موقف المسلمين هذا وخلد ذكره وقال في سورة آل عمران:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّل لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾^(٢) وقد أنزل
الله في هذه الغزوة عدة آيات من سورة آل عمران يضمدها بها جراح المؤمنين، وينبهم إلى سبب

(١) سنن البيهقي، ج ٩، ص ١١١، رقم الحديث ١٨٢٩، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، سنة ٢٠٠٣ م.

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٧٢-١٧٥.

الهزيمة التي حلت بهم، وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣١). إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥). (٢).

ما يستفاد من غزوة أحد:

- ١- تقرير مبدأ الشورى في الإسلام ووجوب الأخذ برأي الأكثرية، كما فعل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة.
- ٢- عدم السماح لمن لم يبلغ سن البلوغ في القتال، فقد ذكر الإمام الشافعي أن الرسول ﷺ رد في هذه الغزوة سبعة عشر شاباً كانوا في سن الرابعة عشر.
- ٣- وجوب طاعة الله ورسوله، فمخالفة أوامر رسول الله ﷺ كانت من أكثر أسباب ما وقع بالمسلمين من بلاء في هذه الغزوة.
- ٤- ان عقاب الله لعباده عام اذا نزل، فإنه يشمل الجميع، يؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (٣).
- ٥- الحذر من المنافقين المندسين والمرجفين بين صفوف المسلمين.
- ٦- التمثيل في القتلى ليس من أخلاق المسلمين.
- ٧- تمحيص المؤمنين عمّن خالطهم من المنافقين في هذه الغزوة.
- ٨- إن من أثر دنياه أضر بآخرته، وقد لا تحصل له دنياه.
- ٩- الشائعات الكاذبة أثناء الحروب، مدمرة. إشاعة وفاة الرسول ﷺ من أسباب تخاذل المسلمين عن القتال.
- ١٠- حب الأنصار لرسول الله ﷺ والتفافهم حوله والاستماتة في الدفاع عنه مثال يحتذى في الدفاع عن القائد.

(١) سورة آل عمران الآيات ١٢١.

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٧٥.

(٣) سورة آل عمران الآية .

١١ - للمرأة المسلمة دور فاعل في الجهاد في سبيل الله.

١٢ - ضرورة حرص القائد على رفع معنويات جنده أمام أعدائهم بكل ما يستطيع به

من وسائل.

١٣ - على المؤمن أن يحترز من أن يخدع من قبل أعدائه.

ما بعد غزوة أحد:

بعد أن عاد رسول الله ﷺ من حمراء الأسد التي أعقبت غزوة أحد إلى المدينة، رأى تنكر المنافقين واليهود له على الرغم من مطاردته لقريش، وثباته ثلاثة أيام من غير أن يجترئ أبو سفيان للرجوع لمقابلتها، وبقي سلطانه فيها هو السلطان الأعلى.

وقد حرص على أن يقف على كل ما يجري حوله من أخبار المنافقين وإيهود الذين كانوا في المدينة، وأخبار الأعراب الذين كانوا يسكنون خارج المدينة، وأخبار قريش. وبعد شهرين من غزوة أحد، وفي السنة الرابعة من الهجرة، بلغ النبي ﷺ أن طلحة وسلمة ابني خويلد - وكانا على رأس بني أسد - يخرسان قومها على مهاجمة المدينة، لإعتقادهما أن النبي وأصحابه لا يزالون مضعضعين من أثر أحد.

فأرسل عليه السلام لقتال بني أسد سرية بقيادة أبي سلمة ابن عبد أسد المخزومي، فأغار عليهم فهربوا من منازلهم، ووجد إبلاً وشاة فأخذها ولم يلق حرباً، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه. وقد أعادة هذه السرية إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما لحق بهم من أحد، على أن أبا سلمة لم يعيش طويلاً بعد هذه السرية، فقد كان جرح بأحد ولم يكن التئام جرحه إلا ظاهراً، فلما أجهد نفسه انفتح الجرح وسال الدم منه، وظل به حتى قضى عليه.

وبلغ النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً أن سفيان بن خالد الهذلي يجمع الجموع لحربه، فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهني، ولما وصل إليه قال له سفيان: ممن الرجل؟ قال من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك، فقال له: أجل إني لفي الجمع له.

فمشى عبد الله معه وحادثه وسفيان يستحلي حديثه، فلما انتهى إلى خبائه تفرق الناس عنه

فجلس معه عبد الله حتى نام، فقام وحمل عليه بالسيف وقتله ثم رحل حتى أتى المدينة ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال.

يوم الرجيع:

وفي صفر في السنة الرابعة من الهجرة أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش مع رهط من قبيلة عضل والقارة الذين جاءوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقههم في الدين، حيث ادعوا أن فيهم مسلمين. وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، حتى إذا كانوا بالرجيع (ماء لهذيل بين مكة وعسفان) غدر بهم أولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهلالي الذي قتله عبد الله بن أنيس، فنفروا إليهم مما يقارب مائتي رام، واقتنوا آثارهم حتى اقتربوا منهم.

فلما أحس به رجال السرية لجأوا إلى جبل هناك، فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد ألا نقتلكم، فنزل إليهم ثلاثة انخدعوا بعهدهم، وقتلهم الباقون، ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك، وانبروا لقتالهم وهم يعلمون أنهم في قلة عددهم يفوقونهم فقتلوا جميعاً.

وأما الثلاثة الذين استسلموا أخذوهم أسرى وخرجوا بهم إلى مكة يبيعونهم فيها، فلما كانوا في الطريق انتزع عبد الله بن طارق (أحد المسلمين الثلاثة) يده من غل الأسر واستل سيفه فاستأخر عنه القوم وطفقوا يرمونه بالحجارة حتى قتل، وأما الآخران فباعوهما في مكة ممن كان له ثأر عند المسلمين، وهناك قتلا، وقد قال أحدهم وهو خبيب بن عدي حين أرادوا قتله:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع^(١).

وأما الآخر فهو زيد بن الدثنة، ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه (أمية بن خلف)، وأخرجوا زيدا من الحرم ليقتلوه، اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان انشدك الله يا زيد! أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنت في أهلك قال: ما أحب أن محمداً

(١) البخاري، كتاب المغازي باب التوحيد والجهاد. والسيرة النبوية، لأبي حسن الندوي، ص ٢٧٤.

الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي^(١). قال أبو سفيان ما رأيت أحداً من الناس يجب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتل.

بئر معونة:

وفي نفس شهر صفر وفد على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو من رؤوس بني عامر فدعاه إلى الإسلام فلم يقدم ولم يحجم ولعله إنما تريت بنفسه عن الدخول في الإسلام قبل قومه مع إدراكه شرف هذا الدين وحسنه ورجاءه في قومه إذا وفد إليهم بعض المسلمين وعرضوا مكارم أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ودعوته إلى الله أن يستجيبوا ويسلموا.

فلذلك قال له كما روى ابن سعد: لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فتدعوهم إلى أمرك لرجوت أن يسلموا.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: إني أخاف عليهم أهل نجد فقال أبو براء أنا لهم جار إن عرض لهم أحد، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله عليه الصلاة والسلام سبعين من شباب الأنصار يسمون القراء، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي، وهذا العدد هو رواية الصحيحين، وقال بعض كتاب السيرة أنهم أربعون.

فساروا حتى وصلوا إلى ماء يقال له بئر معونة (بين أرض بني عامر وحررة بني سليم) أرسلت أحد رجالها هو حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن طفيل ابن أخي أبي براء، فلم ينظر عامر في كتاب رسول الله بالدعوة إلى الإسلام وعدا عليه وقتله غدراً، ثم أستصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه، وقالوا: لن نخفر ذمة أبي البراء وننقض عهده مع رسول الله، فاستصرخ عليهم بعض بطون بني سليم ورعل وذكوان، فأجابوا، وخرجوا حتى غشوا القوم وأحاطوا بهم في رجالهم، فلما رأوهم قاموا إلى سيوفهم، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً، غير كعب بن زيد كان بين القتلى فظنوه قد مات فتركوه، وعاش حتى استشهد يوم الخندق، ومنهم عمرو بن أمية المضري

(١) السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص ٢٧٣.

والمندر بن محمد بن عقبة لم يشهدا هذه الموقعة الغادرة فلما أقبلتا تشاورا ماذا يصنعان. فرأى المضري أن يلحقا رسول الله ليخبراه، فأبى المنذر وقال له: ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو بن أمية (أمير السرية). ثم قاتل حتى قتل، وأسر عمرو المضري وقد أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن عرف أنه من مضر، وجزَّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فلما بلغ النبي ﷺ خبرهم حزن عليهم حزناً شديداً وقال: «هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ أبا براء قول النبي ﷺ فمات قهراً وكيداً مما صنع ابن أخوه الذي أخفر ذمته ونقض عهده، وحط منزلته بين العرب.

وكان وصول خبر سرية بئر معونة وخبر الرجيع في يوم واحد، فحزن ﷺ حزناً شديداً وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة^(١). وتأثر المسلمون جميعاً لما حل بالمسلمين في هاتين الكارثتين، إلا أن هذه الخسائر في هاتين الموقعتين وما سبقهما في غزوة أحد لم تغل من عزيمة المسلمين ويقينهم بنصر الله لهم.

وفي طريق عودة عمرو بن أمية لقي رجلين ظن أنها ممن غدر بهم، فقتلها ثأراً لأصحابه، ثم تبين أنها من بني كلاب وأنها معاهدين للمسلمين.

ولما قدم على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر قال له النبي ﷺ: قتلت قتيلين، لأدينهما (أدفع ديتهما).

وهناك بعض العبر يمكن ستنتاجها من هاتين الحادثتين:

- ١- ضرورة قيام المسلمين بالدعوة إلى الله وتبصير الناس بحقيقة الإسلام وأحكامه.
- ٢- إن جواب زيد بن الدثنة لأبي سفيان قبيل قتله يدل على مدى محبة أصحاب رسول الله له، والتي يجب أن تكون في قلب كل مسلم. وقد عبر عن هذه الحقيقة رسول الله في قوله عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون له أحب إليه من ماله وولده ووالده والناس أجمعين»^(٢).

(١) نور اليقين، الخضري، ص ١٤٧، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

(٢) مسلم، الصحيح، باب وجوب محبة الرسول، رقم الحديث ٤٤.

٣- صبرُ المسلمين وثباتهم وأصرارهم على القيام بالدعوة إلى الله، رغم شدة ما لاقوه من كُرهٍ وعداءٍ وغدرٍ من المشركين.

٤- للمسلم أن يمتنع عن قبول الأمان من الأعداء، ولا يمكن الأعداء من نفسه ولو أدى ذلك إلى استشهاده كما فعل عاصم رضي الله عنه. وله أن يقبل الأمان مترقباً فرصة الخلاص والنجاة كما فعل زيد وحيب.

٥- للأسير أن يهرب ويفك نفسه من الأسر إن استطاع، ولا يظل مقهوراً ذليلاً في يد الأعداء.

إجلاء بني النضير:

لقد رأى المنافقون وإيهود الذين في المدينة ما أصاب المسلمين بالرجيع، وبئر معونة، وأحد، مما أضعف هيبة المسلمين في نفوسهم، فأخذوا يظهرن عدوتهم لرسول الله ﷺ ولمن آمن معه، وحاولوا أن يثيروا الفتن بين المسلمين فأخذوا يتربصون بهم الدوائر لإزالة سلطان النبي ﷺ. فرأى رسول الله ﷺ أنه لا شيء خير له من أن يستدرجهم ليظهر حقيقة ما في أنفسهم ولتتضح نياتهم. فخرج يوم السبت في شهر ربيع الأول مع نفر من أصحابه إلى قباء على مقربة من محلهم، فصلى في مسجد قباء ثم أتى بني النضير، فكلّمهم أن يعينوه في دية القتيلين الذين قتلها عمرو بن أمية المضري، وكان لهما من رسول الله ﷺ جوار وعهد، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف وذلك على ما رواه ابن إسحق وغيره. فقالوا نفعل يا أبا القاسم ما أحببت. وخلا بعضهم ببعض وهموا بالغدر. وقال عمرو بن جحاش النضري: أن أظهر على البيت فأطرح صخرة عليه، ودخل البيت الذي كان النبي ﷺ مستنداً إلى جواره. إذ ذاك راب رسول الله ﷺ أمرهم وزاد ريبة ما كان يبلغه من حديثهم عنه وتآمرهم عليه، لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه مظهرًا كأنه يريد حاجة. وتوجه إلى المدينة تاركًا أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره. أما إيهود فقد أختلط عليهم الأمر، ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب النبي ولا ما يصنعون بهم. فإن هم غدروا بهم فالنبي محمد لا ريب منتقم منهم شر انتقام، وإن هم تركوهم

فلعل تأمرهم بقتل النبي محمداً لا يكون قد أفتضح، فيظل ما بينهم وبين المسلمين من عهد قائماً، وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين ما قد يكون راہم من غير أن يشيروا إلى شيء منه.

لكن أصحاب النبي ﷺ استبطؤوه، فقاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن النبي ﷺ دخلها، وأنه قصد توأ إلى مسجد فيها. فذهبوا إليه، فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود. ومن اعتزامهم الغدر به، تنبهوا إلى ما كانوا رأوه أدركوا قوة بصيرة الرسول ﷺ. وأعلمهم رسول الله ﷺ بقوله: «هَمَّتْ يَهُودُ بِالْغَدْرِ وَأَخْبَرَنِي اللَّهُ بِذَلِكَ فَقَمْتُ»^(١).

ثم أرسل لهم رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة، وقال له: إذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: «إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، فقد همتم من الغدر، وقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم، بما همتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشراً فمن روي بعد ذلك ضربت عنقه»^(٢).

وأبلست^(٣) بنو النضير فلم يجدوا لهذا الكلام دفعاً، ولم يجدوا له جواباً، إلا أن قالوا لابن مسلمة: يا محمد، ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس. وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل في حرب الخزرج. فكان كل ما أجاب به مسلمة: تغيرت القلوب.

ومكث القوم أياماً يتجهزون للخروج وإنهم على ذلك، إذ جاءهم رسولان من عبد الله بن أبي يقولان: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم ونحن معكم. ﴿لَيْنَ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١١) لَيْنَ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ لِيُوَلِّبَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا

(١) حمزة محمد، منار القارئ شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق (١٩٩٠م)، ح ٤، ص ٣٢٨، باب قوله حديث بني النضير، طبعة دار المعرفة ١٣٧٩هـ رقمه محمد فؤاد.

(٢) ابن حجر، الفتح، باب حديث بني النضير، ج ٧ ص ٣٣٢.

(٣) يئست وتحيرت.

يُصْرُونَ ﴿١٣﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١﴾ .
ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء. فأمر عليه السلام بالتهيؤ لقتالهم، فلما
اجتمع الناس خرج بهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى رايته علياً، وأما بنو النضير
فتحصنوا في حصونهم، وظنوا أنهم مانعتهم من الله.

فحاصرهم عليه السلام ست ليالٍ، ثم أمر بقطع نخلمهم ليكون أدهى إلى استسلامهم.
وقذف الله في قلوبهم الرعب، ولم يروا دعماً من عبد الله بن أبي بل خذلهم كما خذل بني قينقاع من
قبلهم. فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفوا عن دمائهم، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم
إلا آلة الحرب. ففعل فصار إلهود يخربون بيوتهم بأيديهم كي لا يسكنها المسلمون، وفي ذلك
يقول الله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ
مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ .

ولما سار اليهود نزل بعضهم بخير، ومنهم أكابرهم حبي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق.
ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام، وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو، وأبو سعد بن وهب
وتركوا وراءهم للمسلمين مغنم كثيرة، من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين
سيفاً. ثم كان ما خلّت إلهود من الأرض التي كانوا يملكون خير ما غنم المسلمون. ولم يخمس
رسول الله ﷺ ما أخذ من بني النضير لأنه في، لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب^(٣)، ومثل هذا
يكون لمعدات الحرب، وللرسول أن يطعم منه أهله، وذا القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
كما قال تعالى في سورة الحشر: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

(١) سورة الحشر الآيات ١١-١٣.

(٢) سورة الحشر الآية ٢.

(٣) لم يسرع له بخيل ولا إبل.

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَعْيَانِ مِنْكُمْ ﴿١﴾.

فأعطى عليه السلام من هذا الفئ فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم. وبذلك أصبح المهاجرون في غنى عن معونة الأنصار، وأصبح لهم ثروة قريبة من ثروتهم، ولم يشترك في القسمة من الأنصار إلا أبو دجانة وسهل بن حنيف فإنه أعطاهم لفقيرهم، وأخذ عليه السلام أرضاً يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً.

وبعد جلاء بني النضير لم يعد المسلمون يخشون المنافقين واليهود فيها، لأن رسول الله ﷺ أعطى درساً لمن بقي منهم في المدينة وهم بنو قريظة بمعاقبته لكل من ينقض العهد منهم بإجلالهم عن المدينة، كما فعل بني النضير وقبل ذلك بما فعله بني قينقاع.

والواقع أن بقاءهم في المدينة كان من عوامل الفتنة ومن دعوة المنافقين ليرفعوا رؤوسهم كلما أصاب المسلمين شرٌّ أو مكروه.

وهناك بعض العبر والعظات للمسلمين في هذه الغزوة منها:

- ١- إن ما صدر من بني النضير من غدر ونقض للعهد هي صورة متأصلة في نفس إيهود وحتى يومنا هذا، وقد سبقهم في ذلك أخوانهم بنو قينقاع فعاقبهم بمثل ما عاقبهم به.
- ٢- إباحة قطع شجر أعداء الإسلام إذا اقتضت المصلحة في ذلك.
- ٣- إن ما غنمه المسلمون من أعدائهم دون قتال يطلق عليه فيء وليس غنيمة ويعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه أمام المسلمين من المصلحة ولا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب.
- ٤- أن إيهود والمنافقين من أشد الناس عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين في كل عصر وزمان.
- ٥- على الحاكم المسلم أن يسعى إلى تحقيق التوازن بالتصرف بالأموال، بحيث لا يكون المال

(١) سورة الحشر الآية ٧.

متداولاً بين طائفة معينة من الأمة ويحرم منه باقي الأمة.

٦- إن إلهود المنافقين يخافون من المؤمنين الصادقين المتقين أكثر من خوفهم من الله.

٧- على المسلم ألا يتهاون مع من عرف بالعدو ونقض العهود، فإن نقض عهده لأول مرة فعليه

أن يعجل له العقوبة كما فعل رسول الله ﷺ مع بني النضير وبني قينقاع.

غزوة بني المصطلق:

في شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة، بلغ النبي ﷺ أن بني المصطلق وهم فرع من قبيلة خزاعة بقيادة سيدهم الحارث بن ضرار يجمع الجموع لحرب رسول الله ﷺ وهم على مقربة من مكة وكانوا قد ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أحد، فخرج له عليه السلام في جمع كثير، وولى على المدينة زيد بن حارثة وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر الصديق، ولواء الأنصار لسعد بن عباد.

وكان النبي ﷺ إذا غزا أقرع بين نسائه فأيمهم خرج سهمها خرج بها معه، وخرج في غزوة المصطلق سهم عائشة فخرج بها، وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا، وفيهم عبد الله بن أبي.

وسار جيش المسلمين حتى نزل على ماء قريب من بني مصطلق يقال له المريسيح. وتصافى الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم رسول الله الإسلام فلم يقبلوا. فتراموا بالنبل ساعة، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب، بل قتلوا عشرة منهم، وأسروا باقيهم من النساء والذرية، واستاقوا من الإبل ألفي بعير، ومن الشياه خمسة آلاف. وكان في نساء المشركين بريرة بنت الحارث سيد القوم، وقد أخذ من قومها مئتي بيت أسرى وزعت على المسلمين، وكان بنو المصطلق من أعز العرب داراً، فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً عليهم، فأراد رسول الله ﷺ أن يجعل المسلمين يمتنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم، فتزوج بريرة بنت زعيمهم الحارث التي سماها جويرية. فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا، فمناوا عليهم بالعتق. فكان هذا من حسن سياسة رسول الله ﷺ ومنتهاى الكرم منه ومن كان معه من المسلمين. وكانت جويرية لما حصل لأهلها أيمن امرأة على قومها، وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

وحصل أثناء رجوع المسلمين إلى المدينة حادثتان:

الحادثة الأولى: أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع أحد رجال الخزرج على ماء، فضرب

الأجير ذلك الرجل حتى سال دمه، واستصرخ بقومه الخزرج، فاستصرخ الأجير بالمهاجرين، فأقبل الذعر بين الفريقين، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية، فأخبر الخبر فقال: دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة، ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه، وبذلك سكنت الفتنة.

ولما بلغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضب، وكان عنده رهط من الخزرج فثار ما في نفسه على المهاجرين وعلى النبي ﷺ وقال لجلسائه وكان معظمهم مثله من المنافقين الذين خرجوا طمعاً في الغنيمة: (ما رأيت كالיום مذلة أو قد فعلوها؟ لقد كاترنا المهاجرون في ديارنا، والله ما نحن والمهاجرين إلا كما قال الأول: «سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل» ثم التفت لمن معه وقال: (هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم عرضة للمنايا دون محمد، فبتمتم أولادكم وقللتم أنفسكم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده).

وكان في مجلسه شاب حديث السن قوي الإيوان اسمه زيد بن أرقم، فأخبر النبي ﷺ الخبر، فتغير وجهه وقال: يا غلام لعلك غضبت عليه وقلت ما قلت؟ فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته، قال: لعله أخطأ سمعك؟ وكان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع، فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أبي أو أن يأمر أحداً غيره يقتله، فنهاه عن ذلك وقال: كيف يا عمر، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه^(١). ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين أشد الحر، يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم بهذا الموضوع فجاء أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت؟ فقال: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن منها الأعرز الأذل. قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

(١) البخاري، الصحيح، ج ٤، ص ١٨٣، باب ما ينهي من دعوة الجاهلية دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد زهير.

وقد أنزل الله ما قاله عبد الله بن أبي في سورة المنافقون: ﴿هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَيَلَّهِ خِزَانُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۗ﴾ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّكَ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ (١) وانطلق رسول الله ﷺ بالناس سيراً حيثاً حتى آذتهم الشمس، فنزل الناس فلم يلبثوا حتى أن وجدوا من الأرض وقعوا من فرط تعبهم نياماً.

وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبي في أن يطلب من الرسول ﷺ الاستغفار فلولى رأسه واستكبر، وقد ذكر الله ذلك أيضاً في سورة المنافقون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۗ﴾ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ (٢). وقد نزلت هذه الآيات بعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة وكانت نفسية عبد الله بن أبي لا تهدأ حسداً للنبي ﷺ وللمسلمين، وإن تظاهر هو وغيره من المنافقين بالإسلام بل بالإيمان.

وهناك حسب قوم أن في هذه الآيات قضاء على بن أبي سلول وأن النبي ﷺ أمر بقتله، وذهب عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان مسلماً، حسن الإسلام - إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله إنه بلغني إنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بالديه مني وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا أطيع أن أرى قاتل أبي دون أن أثار منه، فأقتل مسلماً بكافر فأدخل النار». فقال له النبي ﷺ، أن لا تقتله بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقي معنا (٣). وأمره بالإحسان إليه فقد عفا النبي ﷺ مع المقدرة على أن يعاقبه، بعد أن فضحه القرآن الكريم، وكان عفوه أبعد أثراً من عقوبته.

(١) سورة المنافقون الآيات ٧-٨.

(٢) سورة المنافقون الآيات ٥-٦.

(٣) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، المحقق محمد علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ج ٢، ص ٥٣٢، رقم الحديث (١١١٢).

وقد كان عبد الله بن أبي بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاتبه قومه ويعنفونه، ويشعرونه أن حياته بعض هبات النبي ﷺ له.

فيتذاكر النبي ﷺ مع عمر يوماً شؤون المسلمين، وجاء ذكر عبد الله بن أبي وما يعاتبه قومه وما يعنفونه، فقال النبي ﷺ: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله، لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته^(١). قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

الحادثة الثانية: حديث الإفك:

في عودة المسلمين من غزوة بني المصطلق، حدث ما يسمى بحادثة الإفك، التي افتري بها على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. فكانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ ولما آذن بالرحيل، قامت عائشة لبعض شأنها، وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي ﷺ لقضاء حاجتها، حتى جاوزت الجيش، ولما قضت شأنها، أقبلت إلى رحلها فلمست صدرها، فإذا عقدها قد سقط منها وضاع، فرجعت تلتمسه فأخراها طلبه عن الجيش، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون، فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه، ولم يستنكر القوم خفة الهودج، فجاءت عائشة منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها، فلم تجد أحداً، فغلب عليها النعاس ونامت، وكان صفوان بن المعطل يسير وراء الجيش يتفقد ضائعه، وعندما وصل المكان الذي كان فيه الجيش عرفها، فاسترجع فاستيقظت وسترته وجهها. فأقام صفوان راحلته وأركبها من غير أن يتكلم بكلمة، وانطلق يقودها الراحلة حتى وصل الجيش وأوصلها إلى مكانها عند رسول الله ﷺ. وكان قدومها متأخراً مع صفوان سبباً لحديث أهل الإفك والبهتان، حيث أخذوا يتهامون سرّاً: ما بال عائشة تأخرت عن المعسكر؟.

وقد وجد عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين في ذلك مرتعاً خصباً للطعن في أهل النبي، لإشفاء ما في نفوسهم من غل على رسول الله ﷺ والمسلمين، ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً وهم يفيضون في قول الإفك، وهي لا تشعر بشيء. وبلغت هذه الأخبار رسول الله ﷺ، فأضطرب

(١) السقاف، خريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن، دار الهجرة ١٩٩٥م، ج ١، ص ٤٥٣، رقم الحديث (٨٥٩) وقال إسناده ضعيف.

لها ولم يصدقها لثقتها الكبيرة بزوجته. وأخذ رسول الله ﷺ يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك ولا نعلم عليهم الا خيراً. وقال علي بن أبي طالب: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير. وسل جاريتها تصدقك، فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة وقال لها: هل رأيت من شيء يريبك فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمسه.

وقد ورد في صحيح البخاري حديث الأفك^(١) على لسان عائشة رضي الله عنها، فقد جاء فيه "فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهراً والناس يخوضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وكان الذي يرييني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي. إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيقول كيف تيكم؟- أي كيف حالكم ثم ينصرف، فذلك يرييني، ولا أشعر بالشر، قالت عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث فأخبرتني أم مسطح بقول أهل الإفك، فزددت مرضاً على مرضي، فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقى لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبوأي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقى لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى أني لأظن أن البكاء فائق كبدي، فبينما أبوأي جالسان عندي وأنا أبكي دخل رسول الله ﷺ علينا، فسلم، ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء.

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «يا عائشة إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسبيرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه»، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته خلص دمعي حتى ما أحس منه قطره، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: «إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر

(١) البخاري، الصحيح، طبعة دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد زهير، ج ٥، ص ١١٦، رم الحديث ٤١٤١، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً.

في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت أني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقوني. فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم تحولت واضجعت على فراشي والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببرائتي، ولكن ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحيأ يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله عليه، فأخذه ما كان يتغشاه حين نزول الوحي حتى أنه لينحدر منه العرق مثل الجمان - وهو في يوم شاتٍ - من ثقل القول الذي أنزل عليه، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة إن الله قد برأك».

فقلت لي أومي: قومي إليه (أي أشكريه)، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل برائتي وذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِاللِّسَانِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَلَايَاتٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿١﴾.

(١) سورة النور الآيات ١١-٢٠.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن في ذلك.

قالت: وكان أبي ينفق على مسطح لقرابته منه ولفقره. فقال: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال عن عائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) (١).

وقد اختلفت الروايات اختلافاً واسعاً في أسماء من أفصح بالأفك، ومن سمعه فلم يدفعه ومن تضاحكوا السماعه ولم يخوضوا فيه.

ولو أن أحداً من المحققين عني بالبحث عن أهل الإفك لوصل إلى أن حديث الإفك حبكة من نسج النفاق وخبث المنافقين الذين لم يقع في حبائلهم إلا مرضى القلوب والسماعون المنافقون. ويرشح ما ذهبنا إليه أن العلماء اختلفوا هل حدُّ أحد من أهل الإفك؟ حكى الماوردي في ذلك قولين بالنفي والاثبات. والمسألة حدِّهم لم يثبت فيها حديث صحيح يرفع الشك ويوجب اليقين، والله تعالى أعلم بما كان.

يستفاد من غزوة بني المصطلق عدة أمور منها:

١- على الحاكم المسلم قتال من علم أنه يعد العدة لمهاجمته فيهاجمه في عقر داره، كما فعل رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، وكما هو عادته في معظم غزواته.

٢- وجوب العدل بين الزوجات عند تعددهن حتى أثناء السفر، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بأن يعمل القرعة بينهن.

٣- أسباب تعدد زوجات رسول الله ﷺ التقرب إلى بعض أعدائه بمصاهرتهم كما حصل بالنسبة لزوجته من بريرة بنت زعيم بني المصطلق حيث كانت خيراً وبركةً على قومها.

(١) سورة النور الآية ٢٢.

- ٤ - سعة صدر الرسول ﷺ ومسارحته إلى وأد الفتنة قبل استنحائها بإثارة دعوة الجاهلية.
- ٥ - حكمة الرسول ﷺ عندما أمر بالرحيل في وقت غير مناسب ليصرف الناس عن التحدث في ما يؤدي إلى الفتنة.
- ٦ - من صفات المنافقين محاولة استغلال ما يقع من أخطاء من بعض أفراد الأمة لإشعال الفتنة بينهم، كما فعل عبد الله بن أبي حيث أظهر ما تكن به نفسه على رسول الله ﷺ وعلى المهاجرين.
- ٧ - ينبغي على كل مسلم أن يكون عزيزاً بين أعدائه ولا يذل نفسه أمامهم كما هو واقع مع أكثر المسلمين اليوم، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.
- ٨ - وجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما ولو كانا كافرين وذلك ما أمر به رسول الله ﷺ ابن عبد الله بن أبي مع ظهور كفره ونفاقه.
- ٩ - يجوز للحاكم المسلم عدم معاقبة من ظهر كفره ونفاقه وفساده حقناً لدماء المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ بالنسبة لعبد الله بن أبي مع ظهور كفره ونفاقه.
- ١٠ - إن عفو رسول الله عن عبد الله بن أبي وعدم قتله كان أكثر نكالاً وعقاباً له من قتله، حيث كان قومه يتصدون له حيثما يريد أشعال الفتنة بين المسلمين.
- ١١ - على المسلم والمسلمة أن يتجنبوا مواضع الشبهات ما أمكن ذلك خوفاً من دعاة الفتنة والسوء، كما حصل لعائشة رضي الله عنها.
- ١٢ - على المسلم أن يتحرى صدق ما يسمع من الأخبار ولا يتسرع بتصديقها أو تكذيبها ولو كان واثقاً بعدم صحتها كما فعل رسول الله ﷺ عندما سمع حديث الناس عن عائشة.
- ١٣ - لا يجوز للمسلم أن يتحدث بكل ما يسمع دون أن يتحرى عن صدق ما سمع وإلا وقع في الإثم.

١٤ - أن الذي يتهم المسلمات العفيفات بالزنا إما أن يأتي بأربعة شهداء على صحة ما يقول أو يقام عليه حد القذف وهو ثمانون جلدة وذلك صيانة للمجتمع المسلم أن تشيع فيه الفاحشة.

١٥ - بيان مدى صبر النبي ﷺ وأبي بكر تحت وطأة إشاعة الإفك والافتراء على عائشة رضي الله عنها وعدم التسرع بتكذيب الخبر أو تصديقه وإيقاع العقوبة ظلماً على المفتري.

١٦ - بيان قوة شخصية عائشة ونضج عقلها، بموقفها عندما جابهها رسول الله ﷺ بحديث الإفك وموقفه من صحة هذا الخبر إن حصل ذلك ثم توجهها إلى أبيها ليدافع عنها فلم يدافع وإجابتها لرسول الله ﷺ ولأبويها بالدفاع عن نفسها، وأنها بريئة، وختم دفاعها عن نفسها بقولها بقول أبي يوسف حين قال «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، وقولها لأمها عندما طلبت منها أن تشكر رسول الله بعد أن نزلت الآيات ببراءتها حيث قالت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل».

المنافقون

لقد ابتلى الله المسلمين في مكة بالمشركين، وفي المدينة باليهود، ثم بالمنافقين الذين ادعوا الإسلام والإيمان وأخفوا كفرهم ونفاقهم وكيدهم للإسلام وأهله، وقد نشأت هذه الطائفة بعد دخول الأنصار في الإسلام وظهور قوة المسلمين، وبخاصة بعد غزوة بدر، وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي الذي كان مرشحاً لرئاسة أهل المدينة، قبل انتشار الإسلام فيها وهجرة رسول الله ﷺ إليها، ولا شك أن ضرر المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكافرين، لأن هؤلاء المنافقين يعيشون بين المسلمين ويصلون معهم في مساجدهم وتخفي حقيقتهم على كثير من المسلمين، وقد رأينا كيف انسحب عبد الله بن أبي بثلث الجيش يوم أحد، وكيف شاركوا اليهود الشياطة بالمسلمين والسرور بما لحق بهم في أحد.

ويقولون عن الذين استشهدوا في هذه المعركة لو كانوا معنا ما ماتوا ولا قتلوا. وكذلك موالاتهم ووقوفهم مع بني قينقاع ثم مع بني النضير لما حاصرهم رسول الله ﷺ، واختلافهم حديث الإفك عن عائشة رضي الله عنها، ومحاولتهم الايقاع بين المهاجرين والأنصار في بعض الغزوات عندما تشاجر خادم عمر بن الخطاب مع أحد الأنصار على الماء وغير ذلك من المواقف التي تحاول ايقاع الفرقة والاختلاف بين المسلمين.

وقد حذر الله المسلمين منهم وذكر بعض صفاتهم في أول سورة البقرة حيث قسم الناس إلى ثلاثة أنواع وأصناف وهي صور تتكرر في كل زمان ومكان، للمتقين والكافرين والمنافقين.

الصنف الأول: المتقون: وصفهم الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة بقوله: ﴿الَّذِينَ

ذَكَرُوا كِتَابَ رَبِّهِمْ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴿١﴾

(١) سورة البقرة الآيات ١-٥.

فقد وصفهم الله بخمس صفات هي الإيثار بالغيب، وإقامة الصلاة وإخراج الزكاة والصدقات، والإيمان بالكتب السماوية والرسول واليقين بالبعث والحساب.

الصف الثاني: الكافرون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة^١ ولهم عذاب عظيم^٢ ﴿ (٧) ﴾ (١).

أي أنهم فقدوا الاستعداد لقبول الحق بسبب فساد فطرتهم وإغلاقهم لقلوبهم وسمعهم عن سماع الحق، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يدركون الحق ولا يبصرونه ولهم عذاب عظيم.

الصف الثالث: المنافقون.

لقد أطل الله في وصف صورتهم فذكرها في ثلاث عشرة آية للكشف عن حقيقتهم وتحذير الناس منهم بقوله تعالى: ﴿ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَةَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلِيلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَحِمَتْ جُنُودَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي ءَادَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة الآيات ٦-٧.

(٢) سورة البقرة الآيات ٨-٢٠.

كما ذكر الله تعالى المنافقين في سورة التوبة بصفات متعددة منها التخلف عن الجهاد في سبيل الله والتظاهر بالإيمان والتخلي عن تبعاته وفرائضه وكشف الغطاء عن فتنهم وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق وتسمى سورة التوبة بالفاضحة لأنها كشفت صفات المنافقين ومؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين مع أعدائهم سواء كانوا منافقي الأعراب أو منافقي أهل المدينة.

وقد خصص الله تعالى المنافقين بسورة سميت باسمهم (سورة المنافقون) في كتابه الحكيم وقال الله تعالى في أول هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم خُشْبٌ مُمْسَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ (١).

ولا تكاد تجد سورة مدنية في كتاب الله تخلوا من ذكرهم ولفت الأنظار إلى أوصافهم وتحذير المؤمنين من كيدهم وخداعهم.

وفي هذا العصر كثر المنافقون أضعاف ما كانوا في زمن رسول الله ﷺ وغالبيتهم أصحاب جاه ومال وسلطان وهم يرفضون إقامة شرع الله ويتآمرون على المجاهدين من أجل تحرير الأقصى الذي هو جزء لا يتجزأ من عقيدة كل موحد بالله ويتآمرون على الإسلام وأعوانه. ويظهر ذلك جلياً في عدوان الكيان الصهيوني على أهلنا في غزة والذي تكرر أكثر من مرة خلال خمس سنوات كان أكثرها كشفاً وفضحاً للمنافقين والمتآمرين على تصفية القضية الفلسطينية عام ٢٠١٤ م.

(١) سورة المنافقون الآيات ١-٤.

غزوة الأحزاب (الخنندق)

كانت غزوة الأحزاب آخر هجمة للمشركين على رسول الله ﷺ والمسلمين. وكانت في هذه الغزوة هزيمتهم، كما كانت سبباً في غزوة بني قريظة الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ والذي أدى إلى تطهير المدينة من رجس اليهود.

وقد سميت هذه الغزوة بالأحزاب، لاجتماع المشركين مع مشركي مكة مع ما بقي من اليهود في المدينة لمحاربة المسلمين، ولذلك سماها القرآن بالأحزاب بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾

ويسميتها معظم كتاب السيرة بغزوة الخندق باسم الخندق الذي أقامه المسلمون للدفاع عن أنفسهم، والذي لم تكن العرب تعرفه من قبل.

وقد اختلف المحدثون وأصحاب المغازي والسير في تحديد السنة التي وقعت فيها، فذهب موسى بن عقبة في مغازيه والإمام مالك بن أنس، والشافعي بأنها كانت في السنة الرابعة قال الإمام مالك رحمه الله، إنها كانت سنة أربع من الهجرة، وإلى هذا جنح البخاري في حديثه إذ اقتصر عليه ولم يذكر غيره، وأيده بالحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربعة عشر عاماً فلم يجزه للقتال وعرض يوم الخندق وهو ابن خمسة عشر عاماً فأجازه للقتال مع كتائب المجاهدين^(١) فيكون بين العرضين عام واحد، وغزوة أحد كانت في السنة الثالثة للهجرة، باتفاق جميع المحدثين وكتاب السيرة.

فتكون الأحزاب في السنة الرابعة، وقد صحح هذا القول النووي في الروضة^(٢).

(١) محمد أنور شاه، فيض الباري على صحيح البخاري، المحقق: محمد بدر عالم الميرتبي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م، ج ٤، ص ٨٩، رقم الحديث ٢٦٦٤.

(٢) النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت ط ٣، ١٩٩١م، ج ١٠، ص ٢٠٧، كتاب السير.

وذهب ابن إسحق أنها كانت في شوال من السنة الخامسة للهجرة، وذهب إلى ذلك ابن القيم في كتابه الهدى النبوي، واعتمده ابن حجر^(١).

أسباب غزوة الأحزاب: إن سبب هذه الغزوة هو حقد إيهود وغدرهم وسعيهم لاستئصال شوكة المسلمين والقضاء عليهم.

فقد ذهب زعماء يهود بني النضير الذين عفا عنهم رسول الله ﷺ، واكتفى بجلائهم جزاء نقضهم العهد ومحاوله الغدر برسول الله ﷺ، وذهابهم إلى قريش لحثهم على قتال رسول الله ومهاجمته في داره، لاستئصال المسلمين، وذلك لشدة حقدهم وحسدهم لرسول الله ﷺ لانتشار دعوته وانتصاره على أعدائه وكان من بينهم حبي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانه بن أبي الحقيق وبعض يهود خيبر وغيرهم، فالتقوا بطاغوت قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب وبعض زعمائها، فسألوا حبي بن أخطب عن قومه، فقال: تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه!.

وسألوهم عن قريظة فقال: أقاموا بالمدينة مكرأ بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم.

وترددت قريش، أتقدم أم تحجم، فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التي يدعو إليها وقد أخذت بثأرها الذي حصل لها يوم بدر، بما حصل للمسلمين يوم أحد. أليس من الممكن أن يكون الرسول على حق ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسمواً! وقالت قريش لليهود: «يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالت إيهود بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه! وفي ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۗ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۗ ﴿٥٢﴾﴾^(٢).

(١) محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة بحث وتحقيق، محمد الصادق عرجون، ج ٤ ص ١٤١-١٤٢.

(٢) سورة النساء الآيات ٥١-٥٢.

وفي موقف إيهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنتهم على التوحيد الذي يدعو إليه النبي ﷺ والإسلام يدل على شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وسعيهم لاستئصال الإسلام والقضاء عليه. ولم يكتف حبي بن أخطب والذين معه بهذا الذي قالوا لقريش بتفضيل وثنتها على التوحيد، بل خرج أولئك إيهود إلى غطفان من قيس غيلان ومن بني مُرَّة، ومن بني فزارة ومن أشجع، ومن سُليَمَ ومن بني سعد، ومن أسد، ومن معظم القبائل العربية (ويذكرون لهم استعداد قريش لمحاربة النبي، ويحمدون لهم وثنتهم) حتى تشط لمحاربتة وأن يأخذوا وإياهم لذلك بعد أشهر موعداً لحرب المسلمين، ووعدهم النصر لا محالة. وخرجت الأحزاب التي جمعها إيهود لحرب النبي ﷺ وأصحابه، ومن ضمنها قريش، وعلى رأسها قائد قادة الكفر أبو سفيان بن حرب في أربعة آلاف مجند وثلاثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتطي بعير. وعقد اللواء في دار الندوة لعثمان بن طلحة الذي قتل أبوه وهو يحمل لواء قريش في أحد ووافاهم طليحة بن خويلد الأسدي في من أطاعه من قومه، وخرجت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن وكان معه ألف فارس. وتجمعوا حتى عسكروا بمر الزهران ثم جائتهم سليم أصحاب بئر معونة مدداً في سبعمائة رجل يقودهم سفيان بن عبد شمس وهو أبو أبي الأعور الذي كان مع معاوية في صفين، ثم هوى إليهم الحارث بن عوف المري في أربعمائة مقاتل من قومه بني مره وخرجت مع الأحزاب بنو أشجع في أربعمائة رجل يقودهم مسعود بن رحية.

وقد بلغت عدة تجمعات الأحزاب عشرة آلاف، وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال، تتوافر لهم إلى جانب كثافة أعدادهم البشرية من المقاتلين غزارة المؤن وكثرة السلاح ووفرة المركوب وساروا جميعاً تحت إمرة أبي سفيان قاصدين المدينة، وصل نبأ هذا السير للنبي ﷺ والمسلمين معه وأن معظم مشركي العرب قد جمعت أمرها لتقضي عليهم وتستأصلهم، فاستشار أصحابه فيما يصنع. أيملك في المدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ وكان سلمان الفارسي يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفاً عند العرب، فأشار بحفر الخندق فشرع المسلمون في حفره شمال المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية، وهذه

التي كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها أما باقي الجهات فتوجد الحرة الشرقية مع جبل سلع ومن الجهة الغربية كان يوجد في آخر الحرة بساتين ونخيل بني قريظة، حيث كانت هناك منازلهم وحصونهم، وقد كانت الحرتان متصلتان مع بعضهما تقريباً من الناحية الجنوبية حيث يوجد ممرات لمن يأتي منها من ناحية قباء، كما كان يوجد في هذه البساتين والنخيل مساكن وحصون بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ فلا يستطيع جيش المشركين أن يدخل المدينة منها، ولذلك جاء جيش المشركين من شمال المدينة.

وقد بدأ رسول الله ﷺ في حفر الخندق بجذ ودأب ليكمله قبل وصول الأعداء، فقسمه بين المهاجرين والأنصار ومن معهم من سائر المسلمين، فجعل على كل جزء عشرة رجال. يتنافسون في العمل وكان رسول الله ﷺ يعمل مع أصحابه ليتأسوا به وينشطوا وهم راغبون في ثواب الله عز وجل.

روى البخاري عن البراء بن عازب، لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ، رأته ينقل من تراب الخندق حتى دأرى عنه التراب جلدة بطنه، وأخذ المسلمون آلات الحفر من مساح^(١). وكرازين^(٢). ومكاتل^(٣). من بني قريظة إيهود الذين كانوا ما يزالون باقون على العهد^(٤).

وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق، لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل. ولما رأى رسول الله ﷺ ما بهم من شدة ومن نصب وجوع قال ليهون عليهم شأن الدنيا ويعظم في نفوسهم أمر الآخرة ويجدد صبرهم ويشحذ عزائمهم:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فأغفر للأَنْصار والمهاجرة

(١) المساح: جمع مسحاة وهي المجرف.

(٢) الكرازين: وهي الفؤوس وواحد كرزون.

(٣) المكاتل جمع مكتل وهو ما يعرف اليوم بالقفة.

(٤) صحيح البخاري، طبعة دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، تحقيق محمد زهير، ج ٥، ص ١١٠، رقم الحديث ٤١٠٦، باب غزوة الخندق.

فيجيئه أصحابه رضوان الله عليهم مستهينين بما يلحقهم من النصب والتعب قائلين:
نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
وكانوا ينشدون مع رسول الله ﷺ شعرين رواحه حين كان ينقل معهم التراب:
اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أيينا

وقد تم حفر الخندق في ستة أيام. وفي الأثناء حصنت جدران المنازل التي قد يأتي إليها العدو، وأخلت المساكن التي ظلت فيما وراء الخندق، وجيء بالنساء والأطفال إلى هذه المنازل التي حصنت ووضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة، لتكون سلاحاً يرمى بها عند الحاجة إليها. وكان جيش المسلمين في المكان الذي يعرف اليوم بالمسجد السبعة، حيث يقع أمامهم الخندق، ونصب لرسول الله ﷺ خيمته الحمراء خلف الجيش فوق تلة ما زالت إلى اليوم، ويعرف اليوم مكان الخيمة بمسجد الفتح، وهو يشرف على جيش المسلمين وعلى الخندق وهو يقع اليوم في الطريق المتجهة من المدينة إلى الجامعة الإسلامية. ويقع من الجهة الشرقية من الحرة جبل سلع وهو جبل مطل على المدينة.
وكان عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف، ومقسم لألوية، لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عباد.

أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال، وأما غطفان فنزلت جهة أحد وكان إليهود قد وعدوا غطفان بشمار سنة من مزارع خيبر وفوجئت قريش بالخندق الذي أصبح بينهم وبين جيش المسلمين، ورأت قريش والقبائل العربية التي كانت معها أن لا سبيل للجيش إلى اجتياز الخندق، فاكثفت بتبادل الترامي بالنبال عدة أيام متتابة، ولما طال المطال عليهم رأى فرسانهم مكاناً ضيقاً من الخندق كان المسلمون لم يتبهاوا إليه، فأكرهوا خيولهم على اقتحامه فاقتحمته وأجالوها فيه. ومن اقتحمها بفرسه عمرو بن ود العامري وكان من أشجع وأفخر جموع

الأحزاب وفرسانهم الذين اقتحموا الخندق وهو أحد شجعان العرب المشهورين. فنادى من يبارز؟ وجعل يؤنب المسلمين ويقول: أين جنتكم التي زعمتم أن من قتل دخلها. ثم نادى وجعل يعير المسلمين ويرميهم بالجبن. فقام علي رضي الله عنه وقال: أنا له يا رسول الله. فقال له النبي ﷺ: أنه عمرو فقال علي: وإن كان عمرو! فأذن له النبي ﷺ ودعا له وألبسه عمامة وأعطاه سيفاً، فمشا إليه علي وهو مقنع بالحديد، فقال له عمرو أنت ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال عمرو: يا ابني والله لا أريد أن أهرق دمك^(١).

وروي أن علياً رضي الله عنه قال لعمرو: إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه. فقال له عمرو: بلى فقال له علي إني أدعوك إلى الله ورسوله ﷺ وإلى الإسلام.

فقال له عمرو: لا حاجة لي بذلك، فقال علي: إني أدعوك إلى النزال. فقال له عمرو: يا ابن أخي والله ما أحب أن أقتلك فقال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك فحَمي عمرو عند ذلك، فنزل عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي^(٢). وخرجت خيلهم منهزمة حتى أقتحمت الخندق هاربة وهوى في الخندق نوفل بن عبد الله فاندقت عنقه ورُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع كاحله، (شريان الذراع)، واستمرت المواجهة والمرامة بالنبل يوماً كاملاً، حتى فاتت المسلمين صلاة ذلك اليوم وقضوها فيما بعد، وجعل عليه السلام على الخندق حراساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل، وكان يحرس بنفسه ثلثة فيه مع شدة البرد، وكان عليه السلام يبشر أصحابه بالنصر والظفر ويعدهم بالخير.

(١) الحاكم، المستدرک، تحقیق مصطفی عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة، بیروت، ١٩٩٠م، ج ٣، ص ٣٤، رقم الحدیث (٤٣٢٩) وحديث (٤٣٣)، وقال المحقق مكت الذهبي عنه في التلخيص.

(٢) المرجع السابق.

أما المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنه ضمائرهم، حتى قالوا: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (١). وانسحبوا قائلين إن بيوتنا عورة نخاف أن يغير عليها العدو، ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٢). واشتد الحال بالمسلمين، فإن هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة، والذي زاد الشدة عليهم، ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يسكنونهم في المدينة قد أنتهزوا هذه الفرصة بنقض العهود التي بينهم.

وسبب ذلك، أن الخبيث حبي بن أخطب سيد بني النضير خرج إلى بني قريظة ليضيف إلى فجوره في تجميع الأحزاب وتحريضهم على محاربة رسول الله، فجوراً آخر جديداً، فسار حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم. وكان كعب وادع رسول الله ﷺ وصالحه على قومه حتى إذا أحسَّ بمجيء حبي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال له ويحك يا حبي إنك أمرؤ مشؤوم وإني عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، فإني لم أر منه إلا وفاءً وصدقاً، إلا أن حبي ما زال به حتى أثار حفيظته بأن رماه بالبخل، فقال له: ما أغلقت باب حصنك إلا خوفاً أن أكل معك، ففتح له كعب باب الحصن وأدخله. فقال له حبي لعنه الله: ويلك يا كعب! إني جئت بعز الدهر وبحر طام، جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها وقد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً.

وتردد كعب وخشي مغبة ما يدعو إليه، ولم يزل حبي يلعب بعقله ويخادعه حتى أعطاه عهداً على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبا محمداً أن يدخل معه في حصنه فيشركه بما يصيبه. فأجابه كعب بن أسد ونقض عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ من المودعة والصلح والعهد.

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بطبيعة إيهود الغادرين، لا يطمئن إلى عهودهم، ويخشى غدورهم فبعث في أول الأمر الزبير ليكشف أخبارهم فكشف له غدورهم وخيانتهم.

(١) سورة الأحزاب الآية ١٢.

(٢) سورة الأحزاب الآية ١٣.

فأراد رسول الله ﷺ ليأمن على المسلمين عندما يبلغهم ما بلغه من نقضهم للعهد وهو على يقين من ذلك، فبعث سيدي الأنصار السعديين، سعد بن معاذ وسعد بن عباد ليتعرفا حال بني قريظة ويؤكد له غدرهم ونقضهم العهد، وبعث معها عبد الله بن رواحه وحوات بن جبير، وأسيد بن خضير وقال لهم (انطلقوا لتظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فألحنوا إلي لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء في ما بيننا فأجهروا به للناس).

فذهب بعث رسول الله ﷺ إلى بني قريظة واختبروا حالهم، فوجدوهم على أخصب ما بلغه عنهم، وتكلموا في حق رسول الله ﷺ وتبرؤوا من عقده وعهده، وأراد سعد بن معاذ وكان حليف قريظة أن يقنعها مخافة أن يجل بها ما حل ببني النضير أو ما هو شر منه، فانطلقت إليهود ووقعوا في محمد عليه الصلاة والسلام، وقال كعب من رسول الله!! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، وكاد الفريقان يتشاتمان.

ورجع بعث النبي ﷺ إليه بما رأوا، ولحنوا له لحناً يخبرونه أنهم نقضوا العهد وغدروا، قال الواقدي: قال رسول الله ﷺ: الله أكبر أبشروا بنصر الله وعونه اني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وأخذ المفتاح وليهلكن كسرى وقيصر ولتنفق أموالهما في سبيل الله.

ونزلت حشود الأحزاب وجمعهم منازلهم في ميدان المعركة محيطين بكتائب المسلمين فعظم البلاء واشتد الخوف، ورأى المسلمون طريق بني قريظة قد فتح للأحزاب.

وقد ذهب حبي بن أخطب إلى قريش وغطفان ينبئهم بانضمام قريظة إليهم.

وأرسل رسول الله ﷺ مسلمة بن أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري.

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولما طالت هذه الحال على المسلمين، أراد رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يصلح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة وينصرفا مع قومها، فاستشار السعديين في ذلك، فقالوا: يا رسول الله: إن كان

الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئاً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصب رأيها وقال إنما أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

ثم إن الله عز وجل خذل جموع الأحزاب، فكان ما هبى، من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر رضي الله عنه، جاء إلى النبي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إني قد أسلمت فأمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة»^(١)، فذهب من فوره إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة: تعرفون ودي لكم وخوفي عليكم وإني محدثكم حديثاً فأكتموه عني. قالوا: نعم قال قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير عن إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم وأنكم قد ظاهرتم قريشاً على محمد، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم ومحمداً، فانتقم منكم. قالوا: فما العمل يا نعيم؟! قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى على وجهه إلى قريش، وقال لهم: تعلمون ودي ونصحي لكم قالوا: نعم قال: إن يهود بني قريظة قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وأنهم قد راسلوه على أنهم ياخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم. فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم. ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك، فلما كان ليلة السبت من شوال، بعثوا إلى يهود إنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف^(٢)، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً فارسل إليهم

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢٠٠، رقم الحديث (٣٦١١)، تحقيق محمد زهير، طبعة دار طوق النجاة (١٤٢٢هـ).

(٢) الكراع والخف: هي الخيل والأبل.

إليهود، إن غداً السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن.

فلما جائتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً.

فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان وأرسل الله عز وجل على المشركين جنداً من الريح في ليلة مظلمة شاتية شديدة البرد، فجعلت تقذف خيامهم وقلعت أوتادهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها، وجند الله من الملائكة تقوُّض في قلوبهم الرعب والخوف، وتوقع الأحزاب أن تتفق إليهود مع المسلمين أن يهاجموهم، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح.

ولما سمع عليه السلام الضوضاء في جيش العدو، أرسل حذيفة بن اليمان ياتيه خبرهم فوجدهم على هذا الحال وقد تهبأوا للرحيل فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره رحيل القوم فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد عدوه بغيظه، ولم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين قتالهم، فصدق وعده وأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

وقد أنزل الله تعالى في هذه الغزوة سبع عشرة آية ذكر فيها موقف المنافقين وموقف رسول الله والمؤمنين وقد بدأها بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّتْ بِهَا إِلَّا أَيْسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآدْبُرَ وَكَانَ عَاهِدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٩﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢١﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٥﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾

غزوة بني قريظة:

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مؤيداً منصوراً والمسلمون قد وضعوا سلاحهم كان وقت الظهر، فأتى جبريل للنبي ﷺ فقال: إن الله عز وجل يأمرك بالسير إلى بني قريظة، فأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام مؤذناً بالناس، فاذن بالناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وقدم رسول الله علياً بن أبي طالب برأيته إلى بني قريظة فسار علي حتى إذا دنى من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، وتلاحق الناس فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتي بني قريظة وقال بعضهم بل نصلي، فلم يرد منا رسول الله إلا السرعة فذكروا ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم.

(١) سورة الأحزاب الآيات ٩-٢٥.

فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين تحصنوا في حصونهم، وحاصروهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة فلما أدركوا أن لا مناص من الحرب وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح فلم يقبل عليه الصلاة والسلام.

فطلبوا أن يجلبوا بأنفسهم من غير سلاح ولا أموال فلم يرض أيضاً، بل قال لا بد من النزول والرضى بما يحكم عليكم خيراً كان أم شراً.

فقالوا له أرسل لنا أبا لبابه نستشيره، وكان من الأوس حلفاء قريظة له بينهم أموال، فلما توجه إليهم استشاروه على حكم رسول الله، فقال لهم: انزلوا وأشار بيده إلى حلقه يريد أن الحكم الذبح.

ويقول أبو لبابه: لم أبارح موقفي حتى علمت أني خنت الله ورسوله فنزل من عندهم قاصدا المدينة خجلا من مقابلة رسول الله ﷺ وربط نفسه في سارية من سوارى المسجد حتى يقضي الله فيه، ولما سأل عنه عليه السلام أخبر بما فعل، فقال: لو جئني لاستغفرت له أما وقد فعل ما فعل فتركه حتى يقضي الله فيه^(١).

فلما انصرف أبو لبابه عن بني قريظة عرض كعب بن أسد عليهم أن يتبعوا محمداً على دينه ويسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وبنائهم فرفضوا أمر سيدهم فرفضوا وصاحوا به لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره، فعرض عليهم أن يقتلوا نسائهم وبنائهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف غير تاركين وراءهم ثقلاً، حتى يحكم الله بينهم وبين محمد، فإن هلكوا لم يتركوا ورائهم نسلاً يخافون عليه، وإن ظهروا اتخذوا النساء والابناء فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين: تقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم، قال كعب: لم يبق إذن إلا أن تنزلوا على حكم محمد، ثم إن بني قريظة لما لم يروا بدا من النزول على حكم رسول الله ﷺ

(١) الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، المحقق عبد الحمين السعد، دار ابن خزيمة الرياض (١٤١٤هـ) طبعة أولى، ج٢، ص٢٢، رقم الحديث (٥٠٣).

تشاوروا فيما بينهم وقال قائل منهم: إننا لن نكون أسوأ من بني النضير مصيراً وإن أوليائنا وحلفاءنا من الأوس سيدفعون عنا الشر، وإنهم إن عرضوا على محمد أن يرحلوا إلى أذرعات الشام لم يجد محمد بأساً من قبول عرضهم.

فجاء رجال من الأوس وسألوا رسول الله أن يعامل بني قريظة كما عامل بني النضير وبني قينقاع حلفاء أخوانهم الخزرج، فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجلا منكم؟ فقالوا بلى، قالوا لهم فليختار من شاءوا فاختار إليهود سعد بن معاذ، وكأنا أعماهم القدر كما كتب لهم في لوح حظهم فانسأهم مقدم سعد إليهم أول نقضهم عهدهم وتحذيره إياهم ووقوعهم بالنبي عليه الصلاة والسلام، أمامه وسبهم المسلمين بغير حق.

- وكان سعد بن معاذ جريحا من السهم الذي أصيب به في غزوة الخندق، وكان مقيماً في خيمة داخل المسجد معدة لمعالجة الجرحى - فأرسل إليه، وجاء سعد وأخذ المواثيق على الفريقين أن يسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به، فلما أعطوه المواثيق أمر ببني قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ففعلوا، فحكم سعد فيهم أن يقتل المقاتلة وتقسّم الأموال وتسبى الذرية والنساء.

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الحكم قال: والذي نفسي بيده لقد رضي بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت.

ثم خرج إلى سوق المدينة، فأمر أن يحفر فيها خنادق، ثم جيء باليهود زمرا فضربت أعناقهم وفي هذه الخنادق دفنوا ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم بل كانوا يحسبونه يصنع لهم ما صنع عبد الله بن أبي مع بني النضير.

ولعل سعداً ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لما كان أمام المسلمين إلا أن يستأصلوا ويقتلوا ويمثل بهم فجازاهم بمثل ما عرضوا المسلمين له، وقد اظهر حبي بن أخطب الذي جمع الأحزاب لقتال المسلمين من الصبر والجلد أمام القتل حين قُدم لتضرب عنقه، فقد

نظر إليه النبي ﷺ وقال: ألم يخزك الله يا حيي فأجاب: كل نفس ذائقة الموت، ولي أجل لا أعدوه، ولا ألوم نفسي على عداوتك.

ثم التفت إلى الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله وقدره، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم قتل ستمائة أو سبعمائة منهم ونجا يومئذ أربعة منهم كانوا قد أسلموا.

ويظهر لنا ولكل منصف أن دم بني قريظة معلق في عنق حُيي بن أخطب، وإن كان قد قتل معهم، فهو قد حنث في العهد الذي عاهد وقومه من بني النضير حين أجلاة محمد عليه الصلاة والسلام عن المدينة ولم يقتل منهم أحداً بعد النزول على حكمه.

وهو بتأليهه قريشاً وغطفان وتخزيه العرب كلها لقتال محمد عليه الصلاة والسلام جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه.

وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهودها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شيء.

وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب، ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم.

ولو أنهم نزلوا على حكم النبي منذ اليوم الأول، واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم، لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم، ولكن العداوة بلغت من التأصل في نفس حُيي وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حداً جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم يؤمن بأنهم إن بقوا على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، فيقتلونهم عن آخرهم إن ظفروا بهم، فالحكم الذي أصدره على قسوته وشدته، إنها أصدره متأثراً في الدفاع عن النفس ومعتبراً أن بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين.

ويظهر لنا أيضاً ولكل مسلم ومنصف أن الغدر هو الصفة الأصيلة لليهود جميعاً منذ بدأ المسلمون يجاورونهم في المدينة، وكان غدرهم يجيء في معظم الحالات عقب الغزوات الكبرى، فقد

نقض بنو قينقاع عهدهم مع الرسول عقب غزوة بدر الكبرى، فحاصروهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمة وشفع عبدالله بن أبي فأطلق سراحهم. ثم غدر بنو النضير بعهدهم مع الرسول وهما يالقاء صخرة عليه، وحاصروهم الرسول عليه الصلاة والسلام حتى انتهى الأمر بإجلالهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح وكان ذلك عقب غزوة أحد.

وهكذا يسجل التاريخ الغدر وخيانة العهد على اليهود وبجميع طوائفهم وإن طبعتهم الغالبة في جميع تصرفاتهم حتى اليوم وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ما حدث لبني قريظة بقوله: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (١).

نقول أن في قول حبي بن أخطب لبني إسرائيل عندما قدم لضرب عنقه كأنه تذكر ما ورد في التوراة وذكره القرآن الكريم بأنهم سوف يفسدون في الأرض مرتين، وأن الله تعالى سيعاقبهم على هذا وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلَمَنَّ عُلُوقَ كَيْبَرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ (٢).

فما حصل من اليهود في المدينة وخاصة بني قريظة هو أكبر فساد، فقد نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ وتأمروا على قتله ثم ذهبوا يجرضون قريشاً وغطفان ومعظم القبائل العربية حيث جمعوا الأحزاب لإستصال الإسلام وأهله وتفضيلهم الوثنية على الإسلام الذي يدعو إلى توحيد الله كما كان يدعو نبيهم موسى عليه السلام وجميع الأنبياء من قبله، وألتجأؤهم لعبدة الأصنام وأنضمهم للأحزاب هو الفساد الأول الذي ورد ذكره في التوراة والقرآن الكريم.

فإن رسول الله ﷺ ومن كان معه هم المرادون من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا

(١) سورة الأحزاب ٢٦-٢٧.

(٢) سورة الإسراء ٤-٥.

بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ (١).
فقد دخلوا ديار بني قينقاع والنضير وقریظة وأراضیهم وطهروها من رجسهم
وفسادهم ولم یبق أحد منهم فی المدینة.

ولقد وطد القضاء علیهم بإجلاء فریق منهم وقتل آخر الاستقرار فی المدینة والأمن فلم یبق
للمنافقین فیها صوت قط وذهبت العرب کلها تتحدث عن قوة المسلمین وسلطانهم وعظمة
دولتهم التي كان رئیسها صاحب السلطان والأمر فیها رسول الله ﷺ، فَرهَبَ جانبهم فلم یجرؤ
أحد علی مهاجمتهم بعد ذلك، مما مهد لنشر الإسلام فی الجزيرة العربیة.

أما الفساد الثانی: فهو ما حصل منهم بالنسبة للشعب الفلستانی من تشريد وقيامهم
بالمجازر الوحشیة فی دیر یاسین وكفر قاسم، وقببة وغير ذلك من المدن والقری
الفلستانیة عام ١٩٤٨م.

ثم ما قاموا به من مجازر وحشیة أخرى ضد الشعب الفلستانی بعد عام ١٩٤٨م، مثل مجزرة
صبرا وشاتیلا وقتل عشرات المصلین فی مسجد خلیل الرحمن فی مدینة الخلیل وهم یصلون الفجر فی
شهر رمضان، وكذلك قتلهم المصلین فی المسجد الأقصى ومنعهم من الصلاة فیهِ، وأیضاً ما حصل
منهم فی مدرسة بحر البقر فی مصر وقتلهم آلاف الأسرى المصرین فی حرب ١٩٦٧م، وما حصل
منهم فی قانا فی لبنان وما نشاهده من إطلاق النار علی الشیوخ والنساء والأطفال العزل، وإقتلاع
الأشجار المثمرة فی فلسطين، وهدم البیوت. وخاصة فی مدینة القدس التي بارکها الله وبارک ما
حولها.

وكذلك أحرقهم للمسجد الأقصى ومحاولتهم هدمه لبناء هیكل سلیمان المزعوم الذي یتهمونه
بالكفر والمیل إلى آلهة زوجاته التي بلغ عددهن سبعماية زوجة وثلاثمائة جاریة علی حد زعمهم (٢).

(١) سورة الأحزاب ٢٦-٢٧.

(٢) كتاب العهد القديم، سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر، الفقرات (١-١٠) تحت عنوان
زوجات سلیمان.

ثم قيامهم بضرب لبنان عام ١٩٩٦م حيث هدموا البيوت على أصحابها في جنوب لبنان، وفي جنوب مدينة بيروت، ثم ما حصل منهم بالنسبة لمدينة غزة وما حولها من هدم وتدمير للبيوت ومساجد الله وقتل المصلين وهم راكعون ساجدون بالمدافع والطائرات والقنابل الفسفورية كما حصل في مجزرة غزة عام ٢٠٠٨م. قال تعالى مبيناً عظم ذنب من يمنع الصلاة في مساجد الله ويسعى في خرابها^(١). ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢).

فسادهم زمن رسول الله ﷺ في المدينة المنورة وكذلك فسادهم وما زال يحصل في فلسطين من تشريد وقتل الأطفال والنساء والشيوخ والشباب العزل، وزج الآلاف في السجون والمعتقلات من الشعب الفلسطيني وبعضهم من الأطفال، لأعظم فسادين وقعا من إيهود، بل هما أعظم فسادين وقعا على الأرض وأخرها هذه المجزرة الوحشية الإرهابية بهدم المنازل على من فيها وقتل الأطفال والنساء والشيوخ وإبادة أكثر من سبعين عائلة من مدينة غزة بوساطة الطائرات والمدرعات والمدافع والزوارق البحرية على أيدي هؤلاء القتلة الإرهابيين المجرمين، حيث يهدمون البيوت والمساجد والمدارس على من فيها، فهما أعظم من الفساد الذي وقع منهم في زمن نبوخذ نصر الذي أوقع السبي عليهم بسببه، وأعظم من الفساد الذي وقع منهم زمن الرومان، سواء ما وقع قبل المسيح عليه السلام أو بعد المسيح، والذي زعم بعض المفسرين بأنه المراد بالفساد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، لأنه ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿ تُرَدِّدْنَا لَكُمْ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ لأنه لم يثبت أن إيهود انتصروا بعد ذلك على نبوخذ نصر أو الرومان وإنما انتصروا على المسلمين كما هو حاصل اليوم، كما أن جماعة نبوخذ نصر وجماعة الرومان ليسوا من عباد الله.

(١) أنظر كتاب "مجزرة غزة للدكتور محمد رامز عبد الفتاح العزيمي.

(٢) سورة البقرة آية ١١٤.

فيظهر لنا أنه بسبب فسادهم الذي حصل منهم في زمن رسول الله ﷺ، وان الله بعث الصحابة رضوان الله عليهم فأجلوهم من المدينة المنورة وهو ما ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الإسراء التي نزلت في مكة قبل الهجرة: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ فليس هناك أشد بأساً وقوة من أصحاب رسول الله ﷺ والذين استولوا على الجزيرة العربية ودكوا دولتي الفرس والروم بأقل من ثلاثين سنة من قيام دولتهم.

وأما الفساد الثاني فهو ما يحصل اليوم منهم في الأرض وخاصة في فلسطين منذ الانتداب البريطاني عليها وقيام كيانه المزعوم واستيلائهم على المسجد الأقصى الذي سبق أن بينا بعضه^(١).

وقد ذكر القرآن الكريم سبعة شروط لتحقيق زوال كيانه وهي:

١. كثرة فسادهم في الأرض وخاصة في فلسطين وسبق أن بيناه.

٢. تجمع معظم إيهود في فلسطين وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لَبِئْسَ

إِسْرَائِيلَ أَسْكَنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْأَخْرَجَ جُنَابِكُمْ لَفِيضًا ﴿١٠٤﴾﴾

٣-٤- إمداد إيهود الذين كانوا يسكنون في فلسطين بالمال والشباب، فالمال اليوم يتدفق

على إيهود في فلسطين من أوروبا وأمريكا، كذلك الشباب الذين جاءوا إليها من وقت الانتداب البريطاني إلى اليوم يبلغ عشرة أضعاف ما كان سكنها من إيهود قبل الانتداب.

٥- ارتفاع نسبة المقاتلين منهم لأعدائهم وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرِ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ وفي

جميع الحروب التي دارت بينهم وبين الدول العربية والشعب الفلسطيني كانت نسبة المقاتلين منهم أكثر من نسبة جميع المقاتلين من الشعب الفلسطيني والدول العربية سواء في حرب ١٩٤٨ أو حرب ١٩٦٧ أو في

حرب ١٩٧٣ بل أن عددهم أكثر من عدد المقاتلين من جميع الدول العربية كما ذكر بعض الباحثين.

(١) لمزيد من الإطلاع على فساد إيهود، ارجع إلى كتاب تاريخ المسجد الأقصى وتاريخ فساد إيهود وزوال كيانه للدكتور محمد رامن العزيمي.

٦ - أنهم سيعلمون في الأرض وقد علوا وهمينوا على سياسة معظم الدول الأوروبية والأمريكية وغيرها وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَنَ عُلوًا كَبِيرًا﴾ (٤) (١).

٧ - قيام بعض الحكام المسلمين بتطبيق شريعة الله قولاً وعملاً وإقامة حدوده التي أمر الله بها حتى يكون أهلاً لهذا النصر الذي وعد الله بتحقيقه لعباده المتقين على اليهود واسترجاع المسجد الأقصى وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَبَرًّا﴾ (٧) (٢). أي أن المسلمين سوف يدخلون المسجد الأقصى كما دخلوه أول مرة في زمن عمر بن الخطاب وسيدمرون كل ما يظفرون به.

وإن بشائر هذا النصر هو ما نراه اليوم من صمود المقاومة الإسلامية في غزة وإستعدادها لقهر الكيان الإسرائيلي، بما أعدته من سلاح لم يكن قد حصل لها سابقاً كما لم تعدّ الدول العربية لا سابقاً ولا لاحقاً. ما يستفاد من غزوتي الأحزاب وبنبي قريظة :

١ . إن سبب غزوة الأحزاب هم إليهود الذين ألبوا قريشاً والقبائل العربية ضد رسول الله ﷺ ولذلك على المسلمين أن يحذروا إليهود في كل عصر.

٢ . إن شدة عداوة إليهود لرسول الله ﷺ والمسلمين جعلتهم يفضلوا عبّاد الأصنام المشركين على الذين يدعون إلى توحيد الله وهم المسلمون.

٣ . إليهود لا عهد لهم ولا ذمة منذ زمن الرسول عليه السلام وحتى الآن، فقد نقضوا جميع عهودهم مع رسول الله وكان آخرها نقضهم لعهدهم مع رسول الله في غزوة الأحزاب.

٤ . الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها التقطها وأخذ بها، كما أخذ رسول الله ﷺ بحفر الخندق بناء على مشورة سلمان الفارسي.

٥ . على القائد المسلم أن يشارك جنده فيما يقومون به دون استعلاء عليهم أثناء الحرب، كما فعل رسول الله ﷺ في مشاركته لجنده في حفر الخندق.

(١) سورة الإسراء آية ٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧ .

٦. على القائد المسلم أن يرفع معنويات جنده أثناء الحرب خاصة عندما يشعر بضعفهم.
٧. على القائد المسلم أن يستشير أصحابه أثناء الحرب فيما يعرض عليه من أحداث وبما سيقوم به من أعمال، كاستشارته ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عباده بإعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفوا عن تأييد قريش ومن معها ويرجعوا عن حرب المسلمين.
٨. يجوز للمسلمين أن يوقعوا الخلاف بين أعدائهم للتخلص من شرهم، فان الحرب خدعة كما فعل نعيم بن مسعود.

٩. على المسلمين أن يلجأوا إلى الله وقت الشدة، بعد أن يعدّوا العدة للقتال كما فعل رسول

الله ﷺ.

١٠. إن ذهاب الأحزاب بعد حصارهم للمسلمين تعتبر من نعم الله على المسلمين وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾^(١).

١١. وأن نعمة الله ونصره ستنزل على المؤمنين إن توكلوا عليه وقاتلوا في سبيله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا إِن نُّصِرُوا لَنُنصِرَنَّكُمْ وَيُؤَيِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾^(٢).

١٢. إن المشركين وإيهود قد حاصروا المسلمين من جميع الجهات حتى زاغت الأبصار

وبلغت القلوب الحناجر وأخذ المنافقون يظنون بالله الظنون عن ذلك نصرهم الله إذ يقول: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظَرُوا بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾﴾^(٣).

(١) سورة الأحزاب آية ٧.

(٢) سورة محمد آية ٧.

(٣) سورة الأحزاب آية ١٠.

١٣. إن ثبات رسول الله ﷺ رغم شدة حصار إيهود والمشركين له مثال يحتذى عند المسلمين بالصبر والثبات أثناء القتال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

١٤. إن حصار المشركين وإيهود للمسلمين زاد المسلمين إيماناً وتسليماً لأمر الله.

١٥. يجوز للمسلم أثناء القتال أن يؤخر الصلاة عن وقتها، كما حصل للمسلمين في غزوة الأحزاب وفي غزوة بني قريظة.

١٦. يجوز للمسلمين أن يجتهدوا في تأويل وفهم النص، كما حصل من صحابة رسول الله ﷺ عندما أمرهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة فبعضهم صلاها قبل الوصول لأنه فهم أن المقصود بذلك هو الاستعجال في حصار بني قريظة، وبعضهم أخرها وصلها قضاء. ولم ينكر رسول الله ﷺ على أحد منهم ذلك.

١٧. المسلمون لا يقاتلون إلا من قاتلهم قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ (٢). كما حصل في قتال بني قريظة عندما نقضت عهدها وانضمت مع الأحزاب، حاصرها رسول الله ﷺ ثم عرض عليها الإسلام أو القتال.

١٨. على المسلم أن لا تأخذه في الحق لومة لائم، فقد حكم سعد بن معاذ في حلفائه بني قريظة ما يستحقون بسبب غدرهم برسول الله ﷺ والمسلمين وتآمرهم مع الأحزاب، لاستئصال الإسلام والمسلمين، فحكم بقتل مقاتليهم وسبي ذريتهم جزاءً وفاقاً لما كان سوف يقع بالمسلمين إذا انتصر الأحزاب عليهم.

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.

(٢) سورة التوبة آية ٣٦.

غزوة الحديبية ٦ هـ

كان المسجد الحرام وجهة العرب في عبادتهم يحجون إليه كل عام في الأشهر الحرم، فمن دخله كان آمناً، فإذا التقى المرء منهم بأشد الناس له عداوة لم يستطع عنده أن يجرد سيفاً أو يسفك دمًا، كما كانوا يعتمرون فيطوفون ويسعون كل أيام السنة، لكن قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر النبي ﷺ والمسلمون معه أن يصدوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعِدُ بِهِمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٤) (١).

ورأى رسول الله ﷺ في منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين حالقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه حذراً أن تردهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤوا عليه ولم يخرجوا معه لأنهم ظنوا أن لا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً، فخرج رسولا الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، وكان ذلك في شهر ذي القعدة أحد الأشهر الحرم (٢) من السنة السادسة للهجرة، وكان عدد من خرج معه ألفاً وخمسمائة، وأخرج معه زوجته أم سلمة، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في أغمادها، لأن رسول الله ﷺ لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون، وساق معه سبعين بدنه، وأحرم هو والمسلمون بالعمرة، ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً وأنه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام معظماً له، ثم سار رسول الله ﷺ والمسلمون حتى كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: (إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعه فخذوا ذات اليمين) فوالله ما شعر بهم خالد حتى انطلق يركض نذيراً لقريش، فسار النبي ﷺ حتى كان بثنية المرار مهبط الحديبية، فبركت راحلته القصواء أو (القضباء) اسم ناقة النبي ﷺ فزجرها الناس فلم تقم فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن

(١) سورة الأنفال آية ٣٤.

(٢) الأشهر الحرم: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب.

حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا تسألني قريش خصلة فيها تعظيم حرمان الله إلا أجبتهم إليها»، ثم زجرها فوثبت حتى نزل بأقصى الحديبية على حفيرة قليلة الماء فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذا جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانت خزاعة عينة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال بديل: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العود المطافيل وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت، وقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن اظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس وإلا فقد جمعوا (استراحوا)، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذ الله أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فأخبرهم بذلك فلم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده وقالوا: أيريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟، والله لا كان هذا أبداً وفينا عين تطرف، ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحباش فقالوا: اتته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله: هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له، فبعثت له واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت.

ثم أن رسول الله ﷺ اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مقصده وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم، وأمر عليه الصلاة والسلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة، الممنوعون من الهجرة ويشيرهم بقرب الفتح وأن الله مظهر دينه، فدخل عثمان مكة بجوار أبان بن سعيد الأموي، فبلغ ما حُمل فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة

أبداءً، ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع، ثم إنهم حبسوه فشاع عند المسلمين أنه قتل، فقال عليه السلام حين سمع ذلك، لا نبرح حتى نناجزهم الحرب.

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فتوجه إلى رسول الله ﷺ فجعل يكلم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إذا استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهاً، واني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك.

فقال أبو بكر: (وكان قاعداً خلف النبي ﷺ): ... أنحن نفرّ عنه وندعه؟ فقال عروة: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك وجعل عروة يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال له: أخرج يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه.

فقال عروة: ما أفضك وأغلظك من هذا قالوا: ابن أخيك المغيرة بن شعبة قال عروة: أي غدر الست أسعى في غدرتك. وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم غدراً وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ «أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء»^(١).

ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمجون به، وان تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر إليه تعظيماً له، فقال: والله يا معشر قريش جئت كسرى في ملكه وقيصر في عظمتهم فما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه وهم قوم لا يسلمونه أبداً، فانظروا أمركم وإنه قد عرض عليكم خطة راشد، فاقبلوها فاني لكم ناصح، مع أي خائف أن لا تتصروا عليه فقالت قريش: لا تتكلم بهذا ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل.

(١) البخاري، الصحيح، طبعة دار طوق النجاة، تحقق محمد زهير ١٤٢٢هـ، ج ٣، ص ١٩٣، رقم الحديث (٢٧٣١)، باب الشروط في الجهاد.

بيعة الرضوان:

دعا رسول الله ﷺ الناس للبيعة على القتال، فبايعوه تحت شجرة هناك^(١) (سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان) لقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٢).

لقد بايعوه على الموت، فشاع أمر هذه البيعة في قريش فدخلها منها رعب عظيم وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا في معسكر المسلمين عليهم يصيرون منهم غرة، فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدأوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلاً وقتل من المسلمين واحد.

صلح الحديبية:

عند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكاملة في الصلح فلما رآه النبي ﷺ قال: «لقد سهل لكم من أمركم قد أرادت قريش الصلح حيث بعثت هذا» فلما جاء قال: يا محمد إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا فابعث إلينا بمن أسرت، فقال: حتى ترسل من عندكم، عند ذلك أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ثم جرى بينهما القول حتى وقع بينها الاتفاق على الصلح.

ثم قال سهيل: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب وكان الكاتب علياً رضي الله عنه فيما رواه مسلم.

فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم.

قال سهيل: أما الرحمن فو الله ما أدري ما هو ولكن أكتب باسمك اللهم.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

(١) أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه زمن خلافته بقطعها لما رأى الناس أصبحوا يتبركون فيها.

(٢) سورة الفتح آية ١٨.

ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ».

فقال سهيل والله لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك
ولكن اكتب محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتوني، اكتب محمد بن عبد الله».

فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطه ولكن ذلك من العام القادم فكتب.

فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وان كان على دينك إلا رددته إلينا.

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل
مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل والد أبي جندل: هذا يا محمد أول من أفاضيك عليه أن تردوه علي.

فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. قال سهيل: فوالله إذن لم أصالحك على شيء أبدا.

قال النبي ﷺ: فأجزه لي. قال سهيل: ما أنا بمجيزه لك. قال النبي ﷺ: بلى فافعل. قال
سهيل: ما أنا بفاعل.

وسمع ذلك أبو جندل فأخذ يستثير المسلمين: يا معشر المسلمين أورد إلى المشركين وقد جئت
مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت، وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله. فقال عمر بن الخطاب فأتيت
نبي الله ﷺ وقلت: أأنت نبي الله حقاً؟

قال: بلى. قلت: فلم نعط الدنيا في ديننا إذن. قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصر
قلت: أوليس كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: «بلى فأخبرتكم أنا نأتيه العام». قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به. فقال عمر: فأتيت
أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً. قال: بلى. قلت: السننا على حق وعدونا على
باطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعط الدنيا في ديننا.

قال: أيها الرجل انه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعرزاه، فوالله انه على حق. قلت: أليس كان يحدثنا إنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟.

قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به.

فلما فرغ من كتاب الصلح الذي تضمن ما يلي:

١. وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات وروي عشر سنين.
 ٢. من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمونه برده.
 ٣. أن يرجع النبي ﷺ من غير عمرة هذا العام ثم يأتي العام المقبل فيدخلها وأصحابه، بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس.
 ٤. من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، فدخلت خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش.
- قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلم يقيم منهم أحد. فدخل على أم سلمة زوجة ﷺ فذكر لها ما لقي من الناس، وقال: هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا فقالت يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكرويون، ولكن اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلق لك، فخرج ولم يكلم احداً منهم حتى فعل ذلك، فنحر بدنه ودعا حالقه فحلق له، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يلحق بعضها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاء أبو بصير عتبة بن أسيد من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعل لنا؟ فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله أني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال: اجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير: ارني انظر إليه فأمكنه منه

فضر به أبو بصير به حتى مات، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه (لقد رأى هذا رعباً فلما أتى إلى النبي ﷺ قال قتل صاحبي وإني لمقتول).

فجاء أبو بصير فقال يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: «ويل أمة مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم وفاء بالعهد فخرج حتى أتى شط البحر، وبنفتل منهم أبو جندل بن سهيل ويلحق بأبي بصير، فجعلا لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بابي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم.

وقد بين الله أسباب عدم حصول القتال بين المسلمين والمشركين فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ ﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ ﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٢٦ ﴾ (١)

(١) سورة الفتح الآيات ٢٤-٢٥-٢٦.

١ الحمية: الأنفة والغضب والكبرياء.

٢ كف أيديهم عنكم: منعهم من قتالكم.

٣ بطن مكة: الحديبية قرب مكة.

٤ أظفركم عليهم: جعلكم ظاهرين بهم متفوقين.

٥ الهدى: ما يهدي الله في الحرم ليذبح فيه يوزع على الفقراء.

٦ معكوفاً: محبوساً ومخصصاً ليذبح.

بعض الدروس والعبر المستفادة من غزوة الحديبية.

١- أن رؤيا الأنبياء حق وهي من قبل الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧).

٢- على القائد المسلم أن يكون متيقظاً عالماً بحال أعدائه متخذاً كل السبل لحماية جنده كما فعل عليه الصلاة والسلام عندما انتدب محمد بن مسلمة قائداً للحرس على جيش المسلمين فلما حاول بعض المشركين الغارة عليهم أسرهم.

٣- على المسلم أن يرضى بما يرضاه الله ورسوله ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه كما حصل للمسلمين في هذه الغزوة.

٤- جواز قبول انضمام بعض المشركين للمسلمين في حلفهم ضد أعدائهم.

٥- على إمام المسلمين أن يكون قدوة لهم في أقواله وأفعاله.

٦- شدة تحمس واندفاع المسلمين للقتال في غزوة الحديبية.

٧- حسن رأي أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها عندما أشارت على رسول الله ﷺ بأن يبدأ بنفسه بالتحلل من الإحرام حتى يقتدي به المسلمون فلما رآه المسلمون توثبوا على الهدي فذبحوا وحلقوا فذهب عن رسول الله ﷺ الغم الذي أصابه لعدم امتثالهم في أول الأمر.

٨- كان صلح الحديبية أعظم فتح للمسلمين في زمن رسول الله ﷺ فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها بين رسول الله ﷺ وقريش، وأمن الناس بعضهم بعضاً فلم يكلم أحداً

(٧) سورة الفتح الآية ٢٤، ٢٥، ٢٦.

(٨) معرة: مكروه وعيب يوجب الأسف والألم.

(٩) محله: المكان الذي يجوز فيه ذبحه وهو منى؟

(١٠) تطئوهم: أصل الوطاء الضرب بالرجل على الأرض والمراد هنا تهلكوهم (والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا رجالاً ونساءً أبرياء.

(١١) تزيلوا: تميز المؤمنون عن الكافرين في مكة.

بالإسلام يعقل إلا دخل فيه فدخل في الإسلام خلال السنين التي تلت الصلح أضعاف عدد المسلمين قبل ذلك والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ خرج في الف وأربعمائة في الحديبية ثم خرج عام الفتح بعد ذلك بستين، في عشرة آلاف ولذلك سمي القرآن الكريم صلح الحديبية فتحاً.

٩- إن في توقيع الصلح والسماح للمسلمين بأداء العمرة في العام المقبل اعترافاً من قريش أول مرة بقوة المسلمين ودينهم.

١٠- كان من نتائج الصلح أن أمن رسول الله ﷺ والمسلمون شر عداوة مشركي مكة، فتوجه إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، فبعث إلى كسرى ملك الفرس والمقوقس ملك مصر وهرقل ملك الرومان والنجاشي ملك الحبشة وأمراء الغساسنة وعمال كسرى في اليمن وغيرهم.

وهذه دلالة واضحة على أنه ﷺ أرسل للناس كافة من مشركين ونصارى ويهود، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨). وقد دخل بعضهم الإسلام منهم ملك البحرين وملك عمان، كما جاءت بعض القبائل العربية تعلن إسلامها وأسلم ثلاثة من كبار قادة قريش وهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة.

١١- وجوب الوفاء بما تنص عليه العهود والمواثيق حتى مع الأعداء ما داموا لم ينقضوا العهد.

١٢- ذهب بعض العلماء أن مما يستفاد من صلح الحديبية أن الشورى غير ملزمة للحاكم، وهذا غير صحيح والواقع أن صلح الحديبية لم يكن باجتهاد من رسول الله ﷺ إنما هو وحي من الله.

١٣- ضرورة المحافظة على دماء المسلمين إذا كانوا بين الأعداء، فقد ذكر الله تعالى أن عدم حصول القتال بين المسلمين ومشركي مكة بعد أن أظهر المسلمين عليهم وجود رجال مؤمنين

(١) سورة سبأ آية ٢٨.

ونساء مؤمنات بينهم لا يعلمهم المسلمون، فلو حصل القتال لقتلوهم بغير علم فيصيبهم بذلك مكروه وألم وأسف بقتل إخوانهم المسلمين وهو ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيَةِ مَعَكُوفًا أَنْ يُبَلِّغَ مَحَلَّهُمْ، وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمَّا تَعَلَّمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةَ بَعْضِهِمْ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٢٥) (١).

١٤ - جواز التحلل من الإحرام للحج والعمرة قبل أدائها إذا منع الحاج أو المعتمر من الأداء، (وهو المعروف بالإحصار).

(١) سورة الفتح آية ٢٥.

غزوة خيبر

لقد حاول يهود خيبر أن يهيجوا ويدفعوا قبيلة غطفان وبعض القبائل العربية على مهاجمة المدينة المنورة عندما كان ﷺ في الحديبية فخاف رسول الله ﷺ أن يهاجم هؤلاء المدينة أثناء عمرة القضاء.

ففي شهر محرم من السنة السابعة من الهجرة وبعد عودته ﷺ من الحديبية بمدة وجيزة أمر بالتجهز لغزو يهود خيبر وقد استنفر لذلك الأعراب من حوله الذين كانوا معه في الحديبية وجاء المخلفون من الأعراب ليؤذن لهم بالخروج معه طمعا بالغنيمة، فقال لهم ﷺ لن تخرجوا معي في هذه الغزوة لان الله تعالى أمر ألا يخرج معي إلا من خرج معي يوم الحديبية حيث أن الله وعدهم بالنصر على أهل خيبر والاستيلاء على ما فيها من غنائم جزاء لهم على خروجهم مع رسول الله وطاعتهم لله ورسوله.

ولقد أخبر الله تعالى رسوله بموقف هؤلاء الأعراب الذين جاءوا يطلبون الخروج معه في سورة الفتح النبي نزلت عليه وهو عائد من الحديبية قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمَخَلْفُونَ إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوا بِهَا ذُرُونًا نَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (١). كما أخبر سبحانه في هذه السورة أيضا عن اعتذار هؤلاء الأعراب عن الخروج معه ﷺ عندما خرج في غزوة الحديبية فقال: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمَخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢).

وقد أخبر الله كل هذه الأخبار التي حصلت قبل وقوعها في هذه السورة التي نزلت أثناء

(١) سورة الفتح آية ٥.

(٢) سورة الفتح آية ١١-١٢.

رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية وهذا نوع من الإعجاز بالإخبار عن الشيء قبل وقوعه (الإعجاز الغيبي).

وروى ابن هشام عن ابن إسحق قوله أن رسول الله ﷺ حين سار إلى خيبر نزل بواد يقال له الرجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا إليهود عليه حتى إذا ساروا منقله (مرحله) سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساء، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر^(١).

وبدأ رسول الله ﷺ يفتتحها حصنا حصنا، فكان أول حصونهم افتتح حصن بني أبي الحقيق وكان أبو الحقيق ممن خرج مع حبي بن اخطب في إثارة قريش والأعراب على رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب هو واليسير بن رزام وهما من زعماء خيبر. واخذ رسول الله ﷺ منها سبايا منهن صافية بنت حبي بن اخطب وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق. فاصطفها لنفسه ثم اعتقها وبني بها وجعل مهرها عتقها^(٢)، وقد أسلمت وحسن إسلامها ثم فتح رسول الله ﷺ حصن الصَّعْب بن معاذ.

وقال ابن هشام: قال ابن إسحق: ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما أفتتح وحاز من الأموال ما حاز، انتبهوا إلى حصنيهم الوطيح والسلام. وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً فحارهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة قال ابن هشام: كان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم خيبر، يا منصور أمت أمت. قال ابن إسحق حدثني عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل اخو ابن حارثه عن جابر بن عبد الله قال: خرج مرحب إليهودي من حصنهم جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قد علمت خيبرُ أني مَرَحِبُ
شاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مَجْرَبُ

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

اطعنُ أحياناً وحيناً أضربُ
إذا اللُّيُوثُ أقبلَ تحرَّبُ
إن حماي للحمى لا يُقرَّبُ

وهو يقول: من يبارز؟ فقل رسول الله ﷺ: من لهذا قال محمد بن مسلمة أنا له يا رسول الله. أنا والله الموتور النائر قتل أخي بالأمس. فقال قم إليه، اللهم أعنه عليه فأعانه الله عليه فقتله وقيل الذي قتله علي بن أبي طالب.

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول من يبارز؟ فخرج له الزبير فقتله ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتابعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة. وكان إلهود ينهزمون من حصن إلى حصن آخر كلما هاجمهم المسلمون ثم أن إلهود دخلوا حصن قله فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه وفي اليوم الرابع دهم يهودي على جداول الماء التي يستقي منها إلهود فمنعوها عنهم فخرجوا فقاتلوا قتالا شديدا انتهى بهزيمتهم إلى حصون اشق فتبعهم المسلمون وبدأوا بحصن أبي، فخرج أهله وقاتلوا قتالا شديدا أبل في أبو دجانة الأنصاري بلاء حسنا حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ووجد المسلمون فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما وهرب المنهزمون منه إلى حصن البري فتمنعوا به اشد التمتع وكان أهله اشد إلهود رميا بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله ﷺ بعض أنامله، فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوق في قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد وكذلك جعلت الحصون تقع واحدا بعد الآخر بأيدي المسلمين هنالك استولى على نفوسهم اليأس وطلبوا الصلح على أن تحقن دماؤهم، وقيل النبي ابقائهم على أرضهم التي آلت له بحكم الفتح على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم.

ولقد عامل النبي ﷺ يهود خيبر بغير ما عامل به بني قينقاع وبني النضير حين أجلاهم عن أرضهم لأنه أمن بسقوط خيبر بأس إلهود. وأمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبداً. ثم ما كان بخيبر من المزارع والنخيل كان يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة لاستغلاله وحسن القيام على زراعته وسقيه، وكان رسول الله ﷺ يحتاج إلى صحابته لقتال أعدائه لا أن يبقوا في خيبر للزراعة، وكان من إحسان النبي ﷺ معاملة يهود خيبر انه كان من ما غنم المسلمون حين غزاها عدة صحائف من التوراة

فطلب إليهود ردها فأمر النبي ﷺ بتسليمها لهم. ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم (القدس) وأحرقوا الكتب المقدسة عند إليهود وداسوها بأرجلهم، ولا هو صنع صنيع النصارى في الحروب الصليبية عندما دخلوا القدس فداسوا على جميع الكتب العلمية والمقدسة إضافة إلى سفك الدماء ولا هو صنع مثل النصارى أيضا في حروب الاضطهاد الديني في الأندلس حيث احرقوا كذلك صحف التوراة والقرآن.

والذين استشهدوا من المسلمين في خيبر خمسة عشر رجلاً وقتل من إليهود ثلاثة وتسعون رجلاً. ويظهر لنا على أن إليهود على ما ألف منهم في حروبهم مع رسول الله ﷺ كانوا لا يعتمدون على المواجهة في القتال في الفضاء الرحب وهم يكرهون اللقاء في الميادين المكشوفة إلا إذا اضطروا إلى ذلك وديدهم لا ينفكون عنه هو الكفاح من وراء الجدران وفي حصونهم، كما وصفهم القرآن الكريم في سورة الحشر آية ١٤، قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

كما أن دينهم الغدر ونقض العهود والمواثيق لا عهد لهم ولا ذمة.

وبعد أن وقع الصلح بين المسلمين وأهل خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة، وأكثر من السم في ذراع الشاه لما عرفت أن الرسول يؤثرها. وقد تناول النبي ﷺ مضغاً منها فلاكها ثم لفظها وهو يقول: إن هذا العظم ليخبرني انه مسموم وكان معه بشر بن البراء فاستساغ اللحم وازدرده، وجيء بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت وقالت للنبي ﷺ بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت إن كان ملكا استرحت منه وان كان نبيا فسيخبر ثم مات بشر بعد ما سرى السم في جسمه فقيل: اقتص له منها وقيل بل أسلمت وعفا عنها.

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من ناتجها إلا أن بغضاءهم للمسلمين حملتهم على اقرار بعض الجرائم فقد اغتيل رجل من الأنصار ودفعت يد عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه.

(١) سورة الحشر آية ١٤.

فخطب عمر الناس قاتلاً. إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أن نخر جهم إن شئنا وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم كما عدوا على الأنصاري مثله لا نشك أنهم أصحابه ليس هناك عدو غيرهم من كان له مال بخيبر فليلحق به فيأني مخرج يهود فأخرجهم.

وبعد هزيمة إيهود التي أصابتهم في خيبر التي قضت على كيانهم العسكري في الجزيرة العربية جاء يهود فذك يطلبون الأمان فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال.

فكانت خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا حتى انتصروا على أهلها وكانت فذك خالصة للنبي ﷺ لأن المسلمين لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب فهي فيء، وكان ﷺ ينفقها في مصالحه ومصالح المسلمين.

فتح وادي القرى:

مجموعة قرى تقع بين خيبر وتيما في الطريق إلى بلاد الشام وقد استعمرها إيهود وسكنوها بعد بطش الرومان فيهم كغيرهم من إيهود الذين سكنوا بلاد الحجاز.

ودعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام واخبرهم ان أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله، فأبوا وقاتلوا، فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم احد عشر رجلاً فاستسلموا وغنم المسلمون منهم مغنم كثيرة خمسها عليه السلام، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشر ما يخرجون منها كما صنع بأرض خيبر

صلح تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء ما حل بأهل خيبر وأهل واد القرى وما حصل لأهل فذك صالحوا رسول الله ﷺ على دفع الجزية على أن يمكثوا في ديارهم آمنين.

النهي عن نكاح المتعة وأكل لحوم الحمير الأهلية:

ونهى عليه السلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة وهو النكاح لأجل وقد كان حلالاً في الجاهلية واستعمل في بدء الإسلام حتى حرمه الشرع في هذه السنة ونهى عليه السلام أيضاً عن أكل لحوم الحمير الأهلية فأكفأ المسلمون قدورهم بعد أن نضجت ولم يطعموها.

تحريم ربا الفضل:

قال ابن هشام قال ابن السحق: حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط انه حدثه عن عبادة بن الصامت قال: نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين وتبر الفضة بالورق العين وقال ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين وتبر الفضة بالذهب العين، وقد سبق أن حرم الإسلام ربا النسئة^(١).

عودة مهاجري الحبشة الثانية:

عندما عاد المسلمون من خيبر قدم جعفر بن أبي طاب رضي الله عنه ومن بقي معه من مهاجري الحبشة بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين مطمأنين، وهم يومئذ ستة عشر رجلاً وامرأة، وقدام في هذا الوقت أيضاً الدوسيون ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه، فأعطاهم رسول الله ﷺ من غنائم الحصون المفتوحة صلحا، وقد فرح رسول الله ﷺ بمقدمهم فرحاً شديداً بعد أن كانوا قد خرجوا فارين بدينهم من الفتنة، وعندما حلوا بالمدينة قال رسول الله ﷺ مبتهجاً: «والله ما أدري بأيها أفرح بفتح خيبر أم بقدم جعفر»^(٢) وقد روي أنهم قدموا على رسول الله ﷺ وهو في خيبر والله اعلم.

ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وانتظموا في مواكب الجهاد مع من سبقهم، وكان لهؤلاء الفريق الذين هاجروا إلى الحبشة أجر المهجرتين، هجرة الحبشة وهجرة إلى المدينة المنورة.

تأديب الأعراب:

بعد أن خلص عليه الصلاة والسلام من مشكلات يهود وتهديدهم لدولة الإسلام سواء من كان منهم حول المدينة من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة أم كانوا قريباً من دولة الإسلام وهم أهل خيبر

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٤٦.

(٢) الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ٢٣٣، رقم الحديث (٤٩٤١)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت (١٩٩٠).

ووادي القرى وتيماء اتجه إلى الأعراب الذين كانوا قد تحزبوا مع اليهود في غزوة الأحزاب ومن غدر بالدعاة من القراء في بئر معونة فبعث السرايا في فيافي تهامة ونجد لتأديبهم، وذلك لتوطيد الأمن في دولة الإسلام ومنع الغارات عليها، وتمكين الدعاة إلى الله أن يتنقلوا في البلدان لنشر تعاليم الإسلام دون غدر أو خيانة.

ودخل كثير من القبائل في الإسلام طوعاً بعد أن رأوا انتصارا المسلمين وبنیان الكفر قد تضعضع. وأعقب هذا الفتح أن استبان لكل ذي عقل حقيقة الإسلام.

إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وبعد فتح خيبر أسلم ثلاثة لطلالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم خالد بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاص السهمي، وعثمان بن أبي طلحة العبدري.

فقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش وبطل احد يقول في جمع منها: (لقد استبان لكل ذي عقل إن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذي لب أن يتبعه) وقد فزع عكرمة بن أبي جهل لما سمع فرد قائلاً: لقد صبأت يا خالد، فقال له خالد: لم أصباً ولكني أسلمت، فقال عكرمة: والله إن أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت^(١).

قال خالد: ولم؟ قال عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمك وابن عمك بيد فو الله ما كنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد. أما رأيت قريشاً يريدون قتاله؟! قال خالد: هذا أمر الجاهلية وحميتها، ولكني والله أسلمت حين تبين لي الحق.

وبعث خالد إلى النبي بأفراس وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعرفانه وبلغ إسلام خالد أبا سفيان، فبعث في طلبه وسأله أحق ما بلغه؟ ولما أجابه خالد أنه حق غضب وقال: «واللات والعززة لو أعلم أن الذي تقول حق لبدأت بك قبل محمد».

قال خالد: ((فو الله أنه لحق على رغم من رغم، فاندفع أبو سفيان نحوه، فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال: مهلاً يا أبا سفيان فو الله لقد خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رأيته وهذه قريش كلها تبايعه عليه والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم وخرج خالد من مكة إلى المدينة فانضم إلى صفوف المسلمين^(٢)، فسر به رسول الله ﷺ سروراً عظيماً وقال لخالد: «الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا نرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا لخير فقال يا رسول الله: ادع الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهرها عليك فقال ﷺ الإسلام يقطع ما قبله.

(١) إن كان أحد من قريش يحق له أن يتكلم بهذا الكلام فلا يحق لك أن تتكلم به.
(٢) محمد حسن هيكل، حياة محمد ط ٥ ذر النهضة المصرية ١٩٥٢ م ص ٤٠٢-٤٠٣.

مكاتبة الملوك والأمراء:

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ست من الهجرة، وبعد غزوة خيبر حيث أمِنَ عليه الصلاة والسلام من خطر قريش وإيهود، كاتب الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يجتم به خطاباته وكان نقشه محمد رسول الله وقيل أن ذلك كان قبل غزوة خيبر، والصحيح أن مكاتبة الملوك كان بعضها قبل غزوة خيبر وبعضها كان بعدها.

وكان الفرس يحتلون أجزاء من جنوب الجزيرة، وتحتل الرومان أجزاءً أخرى من شمالها، وقد انتشرت ديانتهم في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم، ومن العبث إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة، وعلى أية حال فإن المجوسية سادت الأقاليم التابعة لفرس، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان، وكان أمراء الأقاليم يعينون من قبل الدولة الحاكمة وينصاعون لأوامرها.

وقد رأى النبي ﷺ أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة التي كانت تابعة لهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام ونبذ ما هم عليه من الأديان. فخرج ستة نفر في يوم واحد، وذلك في محرم سنة سبع للهجرة، وكان كل رجل يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم.

روى الإمام مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي - وهو غير النجاشي الذي صلى عليه - وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل، وأرسل رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى قيصر الرومان برسالته.

وسافر بها إلى أرض الروم ووافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انتصاره على الفرس قريبي إلى الله. وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية

الإسلام أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين وفي رويه الأكاديين»^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢). ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال: «انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفیان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفیان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب: ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفیان: أنا لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره، فقال قيصر: ادن مني ثم أمر أصحابه فجعلوا ظهره ثم قال لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وقد جعلتم خلفه كيلاً تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب.

ثم أخذ حديث أبي سفیان حين سأله قيصر عن الرسول ﷺ وعن دعوته: فسأله قيصر كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله؟

قال: لا. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال هل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا. قال فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم قال فهل يزيدون أم ينقصون قال: بل يزيدون. قال هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا. قال هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا، ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سجال، مرة لنا ومرة علينا. قال: فبم يأمركم؟ قال: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهى عما

(١) الأريسيين والأكاديين هم الفلاحيين.

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤.

كان يعبد آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة.
فقال الملك إني سألتك عن نسبه قد زعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث وإن
كان ما كلمتني به حقاً فهو نبي. وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم ولو أعلم أني
أخلص إليه لتكلفت ذلك.

قال أبو سفيان: فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدري ما قالوا. وأمر بنا
فأخرجنا. فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني
الأصفر.

ولكن ملك الروم غلبه حب ملكه على الإسلام. فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه
الصلاة والسلام ولكن رد دحية رداً جميلاً وأعطاه دنانير فقسّمها رسول الله ﷺ على أصحابه.

كتاب كسرى:

وجه عليه السلام عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس وفيه: «بسم
الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى
وآمن بالله ورسوله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله،
أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على
الكافرين أسلم تسلّم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس».

فلما وصل الكتاب مزقه استكباراً. ولما بلغه عليه السلام ذلك قال: مزق الله ملكه كل
ممزق.

وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن، أن ابعث من عندك برجلين جليدين إلى هذا
الرجل فليأتياي به، فبعث إليه برجلين جليدين وكتب إليه معها كتاباً، فقدموا المدينة ودفعا
كتاب باذان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال ارجعا عني يومكم هذا
حتى تأتياي الغد فأخبركما بما أريد، فجاءاه من الغد فقال لهما: أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل
ربه كسرى في هذه الليلة بسبع ساعات مضت منها.

قال ابن سعد - وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع للهجرة،
«وإن الله سبحانه وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله» فرجع إلى باذان بذلك فأسلم هو
والابناء باليمن.

كتاب المقوقس:

وجه عليه السلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر
وكان فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع
الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإنما
عليك إثم القبط^(١). قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

فأوصله له حاطب بالإسكندرية فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من
خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله. فما له
حيث أخذه قومه وأرادوا أن يقتلوه، إلا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟
قال؟ أحسنت! أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي
فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا
الكاهن الكذاب. وجدت معه آلهة النبوة. ورد المقوقس على النبي رداً حسناً فلم يؤمن به ولم
يتهجم عليه وكتب إلى رسول الله ﷺ يقول: لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط،
سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وتدعوا إليه وقد علمت أن نبياً

(١) الزيلعي، نصب الراية، المحقق محمد عوامة، مؤسسة الريان، بيروت، ط أولى ١٩٩٧م، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٢) سورة آل عمران آية: ٦٤.

قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب وأهديت لك بغلة تركبها، والسلام.
وإحدى الجاريتين مارية القبطية التي تسرى بها رسول الله وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس.

كتاب النجاشي:

وجه عليه السلام عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي جاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة الحسنة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وإن تبتغي، وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى».

ولما وصل الكتاب إلى النجاشي احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو إني أعلم والله أن عيسى بشر به ولكن أعواني بالحبشة قليل، فأنظرنني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.
وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبد الله بن جحش الذي كان قد أسلم وهاجر بها ولكن غلبت عليه الشقاوة فتنصر.

وتزوج عليه السلام أم حبيبة وهي بالحبشة والذي زوجه لها النجاشي بتوكيل منه عليه السلام وكان ذلك قبل فتح خيبر.

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضري كتاباً إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين يدعوه إلى الإسلام. فأجاب: إني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه وإن بأرضي مجوس ويهود فاحدث إلى في ذلك أمرك. فكتب إليه رسول الله

ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح لنفسه، وأنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

ووجه عليه السلام عمرو بن العاص بكتاب إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان. فلما ذكر لهما عمرو بن العاص ما يدعوا إليه رسول الله، قال عبد بن الجلندي، ما أحسن هذا الذي يدعوا إليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً. قال عمرو: إن أسلم أخوك ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم وردها إلى فقيرهم فقال عبد الجلندي إن هذا الخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال، ولما ذكر المواشي قال يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه؟ قال نعم.

فقال عبد الله: والله ما أرى قومي على بُعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا ثم إن عبداً أوصل عمرو لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكناه من الصدقات.

كتاب إلى الحارث بن شمر / أمير دمشق:

وجه عليه السلام شجاع بن وهب إلى أمير دمشق عامل هرقل وهو الحارث بن شمر، وكان يقيم بغوطتها يدعوه إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب رمى به واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين وقال لشجاع اخبر صاحبك بما ترى ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر إليه يثنيه عن ذلك فلما رأى كتاب قيصر عدل عن ذلك وصرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة.

كتاب أمير بصري:

أرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصري من قبل الروم وهي إحدى المدن التابعة لدرعا في حوران، فلما بلغ قرية مؤتة وهي إحدى القرى التابعة لمحافظة الكرك في المملكة الأردنية الهاشمية، تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له: أين تريد؟ قال: الشام.

قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم وأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسلاً غيره، وقد حزن عليه حزناً شديداً.

كما بعث رسول الله ﷺ برسلاً وكتب إلى كثير من الأمراء والزعماء العرب المتفرقين في مختلف مناطق الجزيرة العربية، فأسلم الكثير منهم وعاند بعضهم.

دروس وعبر مستفادة من رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء:

١. إن رسول الله ﷺ هو مرسل للناس كافة عربهم وعجمهم، إلى النصارى وإلهم والمجوس، وليس إلى قوم بعينهم.

٢. كان رد ملوك النصارى وهم، هرقل ملك الروم، والمقوقس ملك القبط، والنجاشي ملك الحبشة، رداً جميلاً حسناً لميلهم إلى التصديق برسالة الإسلام، لوجود الإشارة إلى ذلك في كتبهم، إلا أنهم آثروا البقاء على دينهم خوفاً من زوال سلطانهم.

٣. إن رسول الله ﷺ لم يعلن الحرب على من لم يستجب لدعوته ولم يسئ لرسله، وهذا دليل على أن الإسلام لا يحارب إلا من حاربه.

٤. تحميل الملوك والرؤساء وزر أتباعهم إن لم يسلموا.

٥. إن الزكاة التي فرضها الإسلام تؤخذ من أغنياء كل بلد وترد إلى فقرائهم، وما زاد عن حاجة البلد توزع على غيرهم من الفقراء والمسلمين.

٦. كانت الجزية تؤخذ من كل من لم يدخل الإسلام، ويعيش في رعاية الدولة الإسلامية من إلهود والنصارى والمجوس.

عمرة القضاء ٧هـ

لما حال الحول على صلح الحديبية خرج عليه السلام بمن صُدَّ معه في هذا الصلح، ليقضي عمرته، بناء على بنود الصلح، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وساق معه الهدي (٦٠ بدنة) وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد. وأحرم عليه الصلاة والسلام من باب المسجد النبوي، ولما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخليل أمامه، فقيل يا رسول الله: حملت السلاح وقد شرطوا إلاَّ تحمله؟ فقال عليه السلام: لا ندخل الحرم به، ولكن يكون قريباً منا، فإن هاجمنا هائج فزعنا له. فلما كان بمر الظهران قابله نفر من قريش، ففزعوا من هذه العدة، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم، فجاءه فتیان منهم وقالوا: والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً، وإنا لم نحدث حدثاً، فقال: إنا لا ندخل الحرم بالسلاح، ولما حان وقت دخولة مكة خرج أهلها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت.

فدخل عليه السلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء، وأمامه عبد الله بن رواحة يقول: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته، واستلم الحجر بمحجنه، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة، لأنَّ المشركين قالوا سيطوف اليوم بالكعبة قومٌ نهكتهم حمى يثرب فقال عليه السلام رحم الله امرءاً أراه من نفسه قوة، واضطبع عليه السلام بردائه، وكشف عضده اليمنى شأن الفتوة، ومشى سائرهما وفعل مثله المسلمون يهرولون، ويمشون كلما مشى وقريش تنظر من فوق جبل أبي قبيس فيأخذها بهذا المنظر البهر «العجب» من كل مكان. وكانت تحدث عن محمد وأصحابه إنهم في عسر وشدة وجهد، قد رأت ما يمحو من أفئدتها كل وهن يوهن محمداً وأصحابه.

وفي حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة حرب، فصدّه عمر وقال له الرسول مهلاً يا ابن رواحة، وقُلْ لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز

جنده وهزم الأحزاب وحده فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته ورددتها المسلمون من بعده فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادي وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسنموا الجبال حوله .
ولما أتم المسلمون الطواف بالكعبة، انتقل النبي ﷺ والمسلمون إلى الصفا والمروة، فسعى بينهما سبعة أشواط، كما كان يفعل العرب من قبل، ثم نحر الهدي عند المروة، وحلق رأسه، وأتم بذلك فرائض العمرة.

ولما كان الغد دخل النبي ﷺ إلى الكعبة، وبقي بها حتى صلاة الظهر، ولقد كانت الأصنام ما تزال تعمرها، ومع ذلك علا بلال سقفاها وأذن في الناس لصلاة الظهر، عندها صلى النبي يومئذ بألفين من المسلمين الذين كانوا معه صلاة الإسلام، عند البيت الذي كان يصد من سبع سنين عن الصلاة عنده. وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة في عهد الحديبية وقد خلت أم القرى من أهلها فجلس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذى ولا يعترضهم أحد بسوء، والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويوزرون أصحابهم من الأنصار، وكأنهم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين، وكلهم يسير سيرة الإسلام يؤدي إلى الله كل يوم صلواته، وقريش وسائر أهل مكة يطلون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذ في التاريخ، وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت، وسعيهم بين الصفا والمروة آمينين محلقين رؤوسهم ومقصرين، كما رأى عليه السلام في منامه.

وقبل خروجه عليه الصلاة والسلام من مكة تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية زوجة عمه العباس بن عبد المطلب، حيث أنها عندما رأت دخول المسلمين معتمرين بهرها منظرهم وحركتها الحمية فصاحت وهي على بعيرها: «البعير وما عليه الله ورسوله» وأفضت بذلك إلى العباس زوج أختها فكانت هبة فيها حرج لها وله وللعباس. فلم يخيب ظنها رسول الله ﷺ فقبل هديتها وتزوجها وهي يومئذ أرملة دون الثلاثين من عمرها ودفع مهرها عمه العباس أربعمائة درهم. وفي صبيحة اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمر وخطبة بن عبد العزة وطلب منه أن يخرج، فقال لهما: إني قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل ونصنع الطعام فنأكل وتاكلون معنا».

فأمروا عليه ذلك وأصروا على طلب الخروج فإذن رسول الله ﷺ بالرحيل وفاءً بما عاهدهم عليه.

وقد أراد رسول الله ﷺ بذلك أن يتلطف معهم ليستل من صدرهم الحفيظة والحقده على الإسلام والمسلمين، ويستميلهم على الوفاء والمسالمة في حين ناشدوه بالخروج وأخبرهم أنه تزوج فيهم امرأة ولم يدخل بها ولا يضر كم شيء أن يمكث بمكة ريثما يدخل بأهله، طلب منهم أن يشاركوه وأصحابه طعام وليمة زواجه فيهم ولكنهم أبوا ذلك، وقد فرح عليه الصلاة والسلام فرحاً كبيراً بما حباه الله بتحقيق رؤياه.

وقد كان زواجه بميمونه آخر نسائه زواجاً، وحتى لا يتورط رسول الله ﷺ ممن يعرضن أنفسهن عليه لينلن شرف أمومة المؤمنين بالتورط بالقبول والمجاهرة بالرفض الصريح، أنقذه الله بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾^(١). فحرم عليه بنص صريح أن يتزوج النساء من بعده أو يبدل فيهن أزواجاً أخريات وقد عاد المسلمون إلى المدينة آمينين سالمين.

زوجات الرسول:

ذكرنا أنه كان في آخر عمرة القضاء زواج النبي ﷺ بميمونه بنت الحارث رضي الله عنها وسبب زواجه منها أنها كانت آخر زوجاته.

تكلمنا سابقاً عن زواجه ﷺ بخديجة رضي الله عنها وأنه حين زواجه منها كانت تكبره بخمسة عشر عاماً، تزوجها وهو في الخامسة والعشرين وعمرها أربعون سنة وماتت رضي الله عنها وهي في الخامسة والستين، وكان عليه السلام في الخمسين من عمره ولم يتزوج عليها في حياتها.

وتزوج بعد خديجة بسودة بنت زمعة رضي الله عنها التي كانت من السابقات إلى

(١) سورة الأحزاب آية: ٥٢.

الإسلام هي وزوجها السكران بن عمر بن عبد شمس، وقد هاجرا معاً الهجرة الثانية إلى الحبشة فراراً بدينهما فلما قدما مكة مات زوجها، فتزوجها عليه الصلاة والسلام وهي عجوز لتكون مدبرة لبناته ومربية لهن، وكان معظم أهلها ما زالوا على الشرك.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها في المدينة المنورة بعد أن كان عقد عليها في مكة وبينما أن عمرها عند زواجها كان ينوف على سبعة عشر عاماً^(١).

زواجه عليه الصلاة والسلام بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: فقد كانت أم المؤمنين حفصة زوجة لخنيس بن حذامة السهمي رضي الله عنها هاجرت معه إلى المدينة، وأشترك في غزوة بدر فأصيب بجراحات مات على أثرها، وترك من بعده زوجته الشابة حفصة رضي الله عنها.

وقد كان والدها عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- رجلاً جاداً وواقعياً في حياته فلم يجد من العدل في شيء أن تظل ابنته الشابة من غير زواج يصونها ويذهب عنها لوعة الترميل وذلة، وهو يعلم أن المرأة حية لا تطلب لنفسها ولا تفضح عن دفين حالها وذلك مما دعاه ليبحث لها عن زوج يصونها، وقد جاءت قصة زواجها من رسول الله ﷺ في صحيح البخاري فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذامة السهمي قال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة - وكان عثمان قد ماتت زوجته رقية عقب بدر ويفكر في زواج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ - فقال: «سأنظر في أمري، لبث ليالي ثم لقيني» فقال: «قد يدى لي ألا أتزوج يومي هذا» فقال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فلم يرجع إلي شيئاً، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحها إياه فلقيني أبو بكر فقال: «لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً» قال عمر: نعم، قال أبو بكر رضي الله عنه: «فإني لم يمنعي

(١) أنظر موضوع زواج النبي بخديجة وسودة وعائشة، كتاب حقوق المرأة في الإسلام، تأليف د. جميلة الرفاعي ود. محمد رامز العزيمي (٣٥٧-٣٧٢).

أن أرجع إليك فيما عرضت علي، إلا أنني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي رسول الله ﷺ ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»^(١). وفاءً لمن أعز الله به الإسلام أبيها عمر بن الخطاب، ووفاءً بحقها وحق زوجها رضي الله عنهما.

زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت خزيمة أم المؤمنين رضي الله عنها.

كانت رضي الله عنها زوجة لعبيد الله بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله وقد استشهد في غزوة بدر، فتزوجها بعد ذلك عبد الله بن جحش فاستشهد في غزوة أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ حيث لم يكن لها كافل بعد استشهاد زوجها الثاني، فكان دافعه عليه الصلاة والسلام لهذا الزواج حمايتها ورعايتها، وكانت في الجاهلية تسمى أم المساكين لكثرة اطعامها اياهم ورحمتها بهم ورقتها عليهم.

وقد توفيت بعد أشهر من زواجها ودفنها رسول الله ﷺ بالبقيع رحمها الله ورضي عنها وأرضاها.

زواج النبي ﷺ بأم حبيبة رضي الله عنها.

زواج النبي ﷺ بأم حبيبة: هي أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب تزوجت قبل بعثة رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي ابن عمه رسول الله ﷺ. آمنت مع زوجها بالإسلام ولم يمنعها من ذلك أن أباه كان زعيم الشرك في مكة المحارب لرسول الله ﷺ وكل من أسلم.

هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فراراً بدينها وهي حامل ببتها رملة وولدتها في الحبشة^(٢). وقد عاشت لاجئة في بلاد غريبة بين أناس يختلفون عنها في اللغة والدين. وقد أشتد عليها الأمر بعد أن تخلى عنها زوجها، حيث ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية دين الأحباش

(١) البخاري، كتاب النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير، رقم (٥١٢٢) وأنظر باقي أطراف الحديث عند رقم (٤٠٠٥).

(٢) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ج٤ ص ٢٩٨.

وتمسكت هي بدينها ومات هنالك على النصرانية بعد أن أكب على شرب الخمر^(١).
ولم تجسر رملة رضي الله عنها على العودة إلى مكة حيث منعها كبريائها من الشهامة من أبيها وأمها وأخوالها الذين ما زالوا على الكفر، فبقيت في أرض الحبشة، وعلم رسول الله ﷺ وهو في المدينة بما آل إليه أمرها، فضرب المثل الأعلى في الشهامة والنجدة فبعث إليها يخاطبها إلى نفسه، ووكل النجاشي في تزويجها منها فخطبها نيابة عنه وزوجه إياها وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربعمئة دينار، وكان الذي أملكها وتولى أمر زواجها للنبي ﷺ خالد بن سعيد بن العاص^(٢).

ولن ينسى التاريخ لها موقفها عندما جاءها أبوها وهي في المدينة مستجيراً بها وأراد أن يجلس على فراش رسول الله بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية وأراد أن يشد عقد صلح الحديبية ويزيد مدته فدخل عليها، وذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه فقال: يا بنية! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، ولا أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك بعدي شر^(٣).

ومن العجيب أن بعض المنافقين وبعض أعداء الإسلام من بني إسرائيل وغيرهم قد وضعوا حديثاً أنطلى على الإمام مسلم ورواه في صحيحه. أن أبا سفيان بعد فتح مكة عرض على رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة، فقد جاء في باب فضائل أبي سفيان في صحيح مسلم: حدثني عباس بن عبد العظيم العنبري وأحمد بن جعفر العقري قالوا: حدثنا النضر (وهو بن محمد اليماني): حدثنا عكرمة حدثنا أبو زميل حدثنا ابن عباس قال: كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله: «ثلاث أعطينهن» قال: «نعم» قال: «عندي أحسن العرب وأجمله، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها» قال: نعم.

(١) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا ورفيقاه، المقدمة.

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨.

(٣) أنظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨.

قال: ومعاوية يجعله كاتباً بين يديك قال: نعم. قال: وتأمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين. قال: نعم قال: أبو زميل ولولا أنه طلب ذلك من النبي ﷺ ما أعطاه، وذلك لم يكن يسأل شيئاً إلا قال نعم^(١).

نقول: هذه الرواية التي أوردها الإمام مسلم في صحيحه وذكرها الحافظ المنذري^(٢). في مختصر صحيح مسلم تخالف ما سبق بيانه وهو ما أجمع عليه أهل التاريخ وأصحاب كتب السيرة.

قال بن قيم الجوزية في كتابه زاد المعاد في الفصل الخاص بأزواجه ﷺ: «ثم تزوج أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب القرشية الأموية» وقيل اسمها هند. تزوجها وهي في بلاد الحبشة مهاجرة وأصدقها عنه النجاشي أربعائة دينار. وسيقت إليه من هناك وماتت في أيام أخيها معاوية. هذا المعروف المتواتر عند أهل السير والتاريخ وهو بمنزلة نكاحه لخديجة بمكة ولحفصة بالمدينة ولصفية بعد خيبر^(٣).

زواج النبي بزینب بنت جحش:

فهي زينب بنت جحش الأسدية ابنة عمه رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب. وزوجها رسول الله ﷺ قبل زواجه منها يزيد بن حارثة . وقد كثر لغط أعداء الإسلام من المغرضين وتولى كبرها كثير من المستشرقين، وتبعهم بعض السوقة من الجهال بسيرة رسول الله ﷺ وحياته الخاصة وسيرته العطرة، لتشكيك المسلمين بصدق رسالته.

وسبب ذلك ما تسرب الى كتب الحديث والتفسير من الإسرائيليات حول قصة زواجها من رسول الله ﷺ.

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) المنذري، مختصر صحيح مسلم ج ٢ ص ٢١٧ رقم الحديث ١٧١١ تحقيق محمد ناصر الألباني طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

(٣) أنظر ما كتبه ابن القيم في بيان عدم صحة الحديث الذي رواه مسلم في كتابه زاد المعاد ج ١ ص ٢٨، ٢٩.

وما أكثر ما تسرب إلى هذه الكتب مما وضعه أعداء الإسلام الذين يكيدون له في الظاهر والباطن، كما يقول فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبدالرحمن بيبصار الأمين العام الأسبق لمجمع البحوث الإسلامية قال: «فكان من هؤلاء الأعداء من اتجه الى دس الخرافات والقصص والروايات الكاذبة وترويجهما في ما يتصل في تفسير القرآن، ودس الأحاديث الموضوعية وترويجهما فيما يروى من الأحاديث، ولم ينتبه بعض العلماء في القرون الأولى إلى خطورة الأخذ مما روجه الكائدون، ولا فطنوا إلى الزور والافتراء فيما ورد بكتب أهل الكتاب التي حرفت على مر القرون، فكانت بعض تفاسيرهم تحوي كما يقال: «الدرة والآجرة»^(١)، ونشأ من إيرادهم هذه الخرافات والروايات والقصص أن شاعت بين قرائهم من المسلمين، ومال إلى تصديقها والأخذ بها من ليس لهم دراية بالبصر والنقد في التاريخ والأديان^(٢).

ويقول فضيلة الأستاذ الذهبي بالنسبة لكتب التفسير: «بل لا أكون مبالغا ولا متجاوزا حد الصدق إن قلت إن كتب التفسير كلها قد انزلت مؤلفوها إلى ذكر بعض الإسرائيليات، وإن كان ذلك يتفاوت قلة وكثرة، وتعقبا عليها وسكوتا عنها ..^(٣)» ثم ذكر بعد ذلك بعض هذه التفاسير وبعض ما حوى بعضها من الإسرائيليات فذكر تفسير محمد بن جرير الطبري، وتفسير الحافظ ابن كثير، وتفسير مقاتل بن سليمان، وتفسير الثعلبي المسمى الكاشف عن بيان تفسير القرآن، وتفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، وغير ذلك من كتب التفسير، وخاصة الكتب التي اعتمدت التفسير بالمأثور^(٤).

بعد هذه الإشارة لما حوت كتب التفسير من الإسرائيليات أقول:

كان زيد بن حارثة يدعي زيد بن محمد حيث تبناه رسول الله ﷺ في الجاهلية بعد أن أعتقه

(١) الدرّة من الدر، والآجرة من اللبن والطوب.

(٢) محمد السيد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث: ص ٤، سلسلة البحوث الإسلامية، طبعة مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر - الكتاب السابع والثلاثون.

(٣) الذهبي: الإسرائيليات، ١٥٦.

(٤) انظر: الذهبي: الإسرائيليات: ١٦٢-٢٧٥.

وقد كانت عادة التبني شائعة في الجاهلية وصدر الإسلام، حيث يضاف اليه لقب أسرته عليه، وقد كانوا يعاملون هؤلاء الأعداء معاملة الأبناء من كل وجه من ميراث وتحريم .

فأنزل الله سبحانه وتعالى تحريم ذلك في سورة الأحزاب، حيث قال سبحانه: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسِيِّ تَطْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ فقد أبطل الله سبحانه وتعالى هذا التبني والآثار التي كانوا يرتبونها عليه في هذه الآية .

فنفي أولاً: أن يكون الأعداء بالتبني أبناء لمن ادعواهم، وبين أن هذا لا يعدو أنه كلام يصدر من أفواههم، وهو قول باطل لا حقيقة له ولا حكم يترتب عليه .

ثم أمر ثانياً بعد ذلك: بأن ينسبوا هؤلاء الأعداء إلى آبائهم، وأن ينادوهم بهذه الأسماء الصحيحة، ويعني هذا زوال تلك الصلة التي كان التبني أوجدها، وزوال الخلوة بمحارم الرجل الذي كان متبنيا لهم، ولا يحرم عليه الزواج بإحدى هؤلاء المحارم لتلك الصلة التي كانت، ولا يحق لهم ولا للمتبني له التوارث، فلا هو يرثهم ولا هم يرثونه، فألغى كل الحقوق التي كانت تثبت للمتبني من حقوق البنوة الحقيقية وواجباتها، وما يتعلق من تحريم، إذ ليس المتبني ابناً حقيقياً لمتبنيه .

وبين ثالثاً: أنه لا أثم عليهم حين نسبواهم إلى غير آبائهم خطأ، ولكن الإثم فيما تقصده قلوبهم بعد أن تبين لهم الأمر، والله يغفر لهم خطأهم ويقبل توبة من تاب منهم عن ذنبه .

وقد روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد^(١) حتى نزل القرآن: ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

(١) البخاري، الصحيح، تفسير سورة الأحزاب رقم (٤٧٨٢)، ومسلم، الصحيح، فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم (٢٤٢٥).

وقد عادت السورة نفسها إلى الموضوع الذي عاجلته في الآيات السابقة وهو موضوع بطلان التبني، تعود إليه لتبطله بطريق التشريع العملي بعد أن أبطلته في الآيات السابقة بالبرهان النظري، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴿٤٠﴾ .

فقد قال القرطبي في تفسيره بالنسبة لسبب نزول الآية الأولى: «روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش وكانت بنت عمته لمولاه زيد بن حارثة فكرهت وأبت وامتنعت، فترلت الآية فأذعن زينب حينئذ وتزوجته، وفي رواية فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأن زيدا كان بالأمس عبدا، إلى أن نزلت هذه الآية، فقال له أخوها: «مرني بما شئت، فزوجها من زيد»^(١).

والسبب في امتناعها هو أن المجتمع العربي قبل الإسلام كان يقوم على الفوارق الطبقيّة ويدين بها، فيستنكر أشد الاستنكار أن يتزوج من الشريقات والحرائر الموالى، وهم دونهم في مكانتهم ويرون الكفاءة في شرف الأصل وعلو النسب، ويرى ذلك شرطا لا بد من توافره في الزوج، إذ تقدم بالزواج من أسرة شريفة يريد مصاهرتها، فجاء الإسلام يقرر أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير، ولا لحر على عبد إلا بالتقوى.

وأراد رسول الله ﷺ أن يطبق هذا عمليا بتحقيق المساواة بين المسلمين وذلك كعادته، في

(١) القرطبي: التفسير، ١٤/١٨٦.

تطبيق ما يؤمر به على نفسه وأقرب الناس إليه، فبدأ بمولاه.

وعتيقه زيد بن حارثة، وخطب له ابنة عمته القرشية الشريفة زينب بنت جحش، ليحطم الفوارق الاجتماعية التي كان المجتمع العربي يقوم عليها، فكان أول ما يحطمها في أسرته إذ كان الموالي لمن أعتق الموالي الرقيق المحرر - طبقة أدنى من طبقة السادة في نظر العرب .

فكانت زينب بحكم نشأتها العربية تدين بما يدين به قومها في المجتمع الذي تعيش فيه، ولكن بعد زواجها من زيد كانت معاملتها له فيها شيء من الترفع والحدة، يدل على ذلك الآية التي تلت الآية السابقة، وهو قوله تعالى: ((وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)) (سورة الأحزاب: ٣٧) حيث أن زيدا اشتكى إلى رسول الله ﷺ معاملتها له، وأعلمه بأنه يريد أن يطلقها فنصحته رسول الله ﷺ بأن يمسك عليه زوجته، ويتقي الله فلا يطلقها، وذلك مما يوحي بأن معاملتها له بعد قبولها الزواج منه على أثر نزول الآية السابقة كان فيها ألوان من الترفع منه نسبياً، وهي أمور لا تطيب معها الحياة الزوجية عادة، لأنه لا يرضى بها الزوج، فلذلك أعلم زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يريد طلاقها، فنصحته ﷺ بأن يمسك عليه زوجته ويتقي الله فلا يطلقها، وقال موسى شاهين لاشين: "ما عليه الجمهور أن زينب بعد زواجها من زيد وقد رضيت زواجاً، أخذت تحفظ له حقه، لكن الطبيعة كانت تخونها دون قصد، فتفخر على زيد بشرفها، وتتعالى عليه بتصرفاتها، وقاسى زيد من صدها وإبائها ما ضاق عنه صدره، ولم يبق له بها حاجة، وصرفه الله عنها كما صرفها عنه، فجاء يستشير الرسول ﷺ في طلاقها، فقال له صلى الله عليه وسلم: «اصبر على حدثها ولا تطلقها، لكن زيدا لم يطق عشرتها ففارقها وليس في قلبه ميل إليها، ولا وحشة في فراقها»^(١).

وقد ذكر الدكتور حسين هيكل قصة زواج الرسول ﷺ لزينب ورد على المفترين وقال في ختام رده: «أن زواج الرسول من زينب لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة، وإنما أراد أن يأتمر بحكم

(١) لاشين: أزواج النبي ﷺ: ص ١١٢.

الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبني والادعاء، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس في خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة، فلم يرض به الله أن يخفي في نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه، ثم قال: فيبقى بعد ذلك أثر هذه الأقاويص التي يكررها المستشرقون والمبتورون، لكنها شهوة التبشير المكشوف تارة، والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للإسلام، تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية التي تملي على هؤلاء جميعاً ما يكتبون، وتجعلهم في أمر زواج النبي ﷺ وفي أمر زواجه من زينب بنت جحش خاصة، يتجنون على التاريخ ويلمسون أضعف الروايات فيه، مما دس عليه و نسب إليه...^(١)

و معنى هذه الآيات التي نزلت في قصة زواج زينب بن حارثة، ثم تطليقه لها ثم زواج الرسول ﷺ، والتي سبق ذكرها، هو أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أمر من الأمور - وهو زواج زيد بن زينب، أن يكون لهم خيار في الزواج - بعد أن حكم الله ورسوله فيه، و من يخالف ما حكم به الله ورسوله، فقد بعد عن طريق الصواب ظاهراً، و أذكر إذ تقول لزيد بن حارثة، الذي أنعم الله علي بهداية الإسلام، و أنعمت عليه بحسن التربية و العتق أمسك عليك زوجك - زينب بنت جحش - و اتق الله فيها - و اصبر معاشرتها غير الطيبة لك، فلا تطلقها، و تخفي في نفسك ما الله مظهره، حيث أن الله أوحى على المصطفى عليه السلام، بأن زيدا لن يصبر على معاملتها غير الطيبة له و أنه سوف يطلقها، و يجب عليك ان تزوجها لتبطل بنفسك عادة الجاهلية من تحريم زوجة المتبنى و جعله كالابن من الصلب، و تخشى الناس وهم المنافقون بأن يشنعوا عليك و يقولوا بأن محمداً تزوج امرأة متبناه، و الله هو الجدير بأن تخافه، ولو كان في ذلك مشقة عليك.

فلما قضى زيد منها حاجته، وأصبح لا يريد لها، لقسوتها في معاملته و تكبرها عليه، و تطليقها تخلصاً من ضيق الحياة معها، زوجناكها، ليكون بذلك حكماً شرعياً هو حل زوجة

(١) هيكول: حياة محمد: ٣١٥-٣٢٦.

المتبنى لمن تبناه بعد طلاقها، فلا يخرج المسلمون بعد ذلك من التزاوج بزوجات من كانوا يتبنوهم بعد طلاقهن، فتكون قدوة في إبطال هذه العادة المرذولة.

و كان أمر الله الذي يريده واقعا لا محالة، و ما كان على النبي ﷺ، من إثم في عمل أمره به، سنة الله التي سنها مع أنبيائه من قبل، و هي الا يحظر عليهم ما أباحه الله لهم ووسع عليهم، و ما كان أمر الله قضاء مقضيا و حكما مقطوعا به.

فرسل الله الذين يبلغون الى الناس رسالات الله كما أنزلها و يخافونه ولا يخافون أحدا سواه، و كفى أن يكون الله هو الرقيب المحاسب لخلقه.

و ما كان محمد أبا أحد من رجالكم حتى يحرم عليه التزوج من مطلقة أي مطلقة زيد حارثة الذي كان قد تبناه، و في ذلك تأكيد لما ورد في الآيات السابقة وهي التي تبين حرمة التبنى والذي يدعى فيه المتبنى لغير أبيه و يحرم عليه ما يحرم للابن، و لكن رسول الله ﷺ و آخروهم الذي به ختموا عليه أن يؤدي رسالته كما أمره ربه من غير خشية أحد، و كفى بأن يكون الله هو الرقيب المحاسب لا يخفى عليه خافية .

فقد قررت هذه الآيات حكمين شرعيين:

الحكم الأول: فقد قرر زواج زينب من زيد بأمر من الله حكما شرعيا، وهو أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأن الموالي كالسادة يباح لهم الزواج بالحرائر الشريفات .

الحكم الثاني: صدور أمر الله عزوجل إلى رسوله بأن يتخذ زينب زوجة له، هو بيان حل زوجة المتبنى لمن تبناه بعد طلاقها، وقد كانت العرب - كما سبق بيانه - تعتبر المتبنى ابنا، فتحرم على متبنيه أن يتزوج مطلقة .

أما الأمر الذي كان يخفيه، وأن الله أبداه هو أن الحياة الزوجية لزينب مع زيد لن تستمر - بسبب تعاليها عليه و بسبب تصرفاتها غير الملائمة للتعامل مع الأزواج - وإنه سوف يطلقها، وإن عليه أن يتزوجها بعد طلاق زيد لها، وكان رسول الله ﷺ يخفي ذلك ويقول لزيد: « امسك عليك زوجك ولا تطلقها » .

والسؤال المطروح: «لماذا حرص الرسول ﷺ على إخفاء هذا الأمر ولم يبادر إلى تنفيذه

فور تلقيه إياه ؟»

فالواقع كما يظهر لكل ذي لب - وهو خشية الناس - أي خشية أن يتهمه المنافقون بأنه تزوج من مطلقة ابنه، حيث كانوا يعتبرون المتبنى في حكم الابن الحقيقي من حيث التحريم، لكن هذه الخشية لم تطل فسرعان ما أعلن الأمر ونفذه، وأصبحت زينب إحدى أمهات المؤمنين.

إذن لم يكن ما أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه حبه لزينب كما تذكر الإسرائيليات، ولأهمية هذا الموضوع ولكثرة اللغظ فيه من قبل المستشرقين وأعداء الإسلام بعد هذا البيان:

ننقل ما ذكره رئيس قسم العلوم الإسلامية بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة الأستاذ الدكتور مصطفى زيد في تفسيره لسورة الأحزاب:

«ومن عجب أن يجوز ما تردده الإسرائيليات على مؤرخ كالطبري وصاحب السمط الثمين فينقله كل منها ويقبله !! ولكي نبين بطلان هذا الذي نقلاه وقبلاه - لا بد أن نقله بعبارة.

والطبري يرفعه بسنده إلى محمد بن يحيى بن حبان، يروي عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم افتقد زيدا فجاء منزله يطلبه فهرعت زينب تستقبله، وقد أعجلتها الלהفة عن استكمال ثيابها للقاء الرسول ﷺ فقالت: «ليس هو هنا يا رسول الله فادخل بأبي أنت وأمي».

وفي رواية أخرى للطبري أيضا عن ابن زيد وهو ضعيف جدا لا تقبل روايته: " أن رسول الله ﷺ جاء يطلب زيدا، وعلى باب زينب سترة من شعر فرفعت الريح السترة، فانكشف عنها وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب رسول الله ﷺ وتمضي الرواية تقول: "ودعته إلى الدخول فأبى، وولى عليه السلام وهو يهيمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله: " سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرف القلوب ". " وأقامت زينب في مكانها تفكر فيها سمعت من قول ابن خالها، حتى جاء زيد، فكان أول ما لقيته به أن الرسول أتى منزله ". سألتها زيد: "ألا قلت له ادخل"، فأجابت: "بلى، قد عرضت عليه ذلك فأبى"، واستطرد زيد مستفسرا: " فسمعته يقول شيئا ؟"، قالت: " سمعته يقول حين ولى: "سبحان الله

العظيم، سبحان الله مصرف القلوب "، فأطرق زيد برهة، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " يا رسول الله بلغني أنك جئت مترلي، فهلا دخلت بأبي أنت وأمي ؟ " ثم أضاف متسائلا: " فأفارقها ؟ " فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " مالك ؟ أراك منها شيء؟ "، فأجاب زيد: " لا والله يا رسول الله ما رابني منها شيء، ولا رأيت إلا خيرا، ولكنها تعظم علي لشرفها، وإن فيها كبرا تؤذيني بلسانها فقال الرسول: " امسك عليك زوجك " ومع احتياط الذين اختلقوا هذه القصة، ولفقوها، كما يبدو في حرصهم على ذكر أن الرسول قد سبح الله ولهج بذكره عندما رآها وهي حاسرة، كما يزعمون، وفي حكايتهم ما نصح به الرسول زيدا من إمساكها والإبقاء على زوجيتها نراهم وقد افتضح ما لفقوه على زعمهم، في كلمات القصة كما صوروها وفي وقائعها كما زعموا.

فهم أولا: يوردون رؤية الرسول لها كأنها حدث طارئ عليه ليس له به سابق عهد، وبعبارة أخرى: هم يدعون أن الرسول قد فاجأه جاهها، حتى لم يجد لنفسه ملاذا إلا التسبيح باسم الله، وتذكر أنه مصرف القلوب، وفي هذا تجاهل لصلة القرابة الوثيقة التي تربطه ﷺ بزینب، وهي الصلة التي سوغت له أن يحملها على قبول زيد زوجها لها بعد معارضة وامتناع. والتاريخ الصحيح يسجل أن حديثا دار بين الرسول وبينها في هذا الشأن، وغير معقول ولا مستساغ وهو منها بمنزلة الولي أن تتحدث إليه، وهي خلف ستارة تحجبها عنه حتى لا يراها .

وهم ثانيا: يدعون أن زينب قد لقيت الرسول دون أن تستكمل ثيابها، أو أن الريح قد رفعت الستارة المصنوعة من الشعر، والتي كانت على باب زينب فرآها الرسول وهي في حجرتها حاسرة . هم يدعون هذا أو ذلك - حسب اختلاف الروايات الموضوعه - وينسون أن ورع رسول الله ﷺ يمنعه من أن ينظر، وأن ما عرفت به زينب رضي الله عنها من شدة تمسكها بأوامر دينها يمنعه من أن تستقبل الرسول وهي غير مستكملة ثيابها .

ويبدو أن الذين وضعوا الرواية الثانية، كانوا أعرف بفن الوضع، فجعلوا الريح ترفع الستارة، وادعوا أن الرسول ﷺ رأى زينب وهي في حجرتها، لكن روايتهم هي أيضا ملفقة،

وستتوالى سائر ردودنا على القصة ببيان مظاهر التلفيق فيها .

وهم ثالثا: لا يلبثون ان يفتضح امرهم عندما يحكون قصة لقاء زينب لزوجها عندما عاد، فقد ذكروا ان اول ما لقيته به ان الرسول اتى منزله وهذا طبيعي نظرا لمكانة الرسول منها ومن زوجها ومن سائر المسلمين أغير انها لم تكذب تجيبه على سؤاله الخاص بدعوة الرسول الى الدخول حتى قال متسائلا: "فسمعتة يقول شيئا؟" وكان ذلك هو التمهيد الطبيعي الذي لا بد منه لما حكوه من قوله: "سبحان الله العظيم أسبحان الله مصرف القلوب".

وإننا لنحس احساسا صادقا بأن هذا السؤال مصنوع فإن الناس لم يألفوا هذا الأسلوب في سؤال أزواجهم عن أمثال هذه الزيارة وإنما يسألون عادة: ألم يترك لي خبرا؟ ألم يقل شيئا وما شاكل ذلك. أما أن يكون السؤال عن سماعها فهذا هو الغريب وبخاصة اذا ذكر معه ما أجروه على لسانها من انها سمعته حين ولى يقول "سبحان الله العظيم أسبحان الله مصرف القلوب" ألا تشم معي من هذا الأسلوب رائحة التلفيق؟

وهم رابعا: يتجلى كذبهم في اوضح صورة عندما يحكون قصة لقاء زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما دار بينهما في هذا اللقاء من حديث أفهم يدعون ان ما دار بينهما من الحديث كان هكذا.

يا رسول الله بلغني أنك جئت مترلي أفهلا دخلت بأبي أنت أُمي .

ثم أضاف متسائلا: "فأفارقها؟" أو هنا نحب ان نقف قليلا لتساءل عن سر هذا الانتقال المفاجيء من الحديث عن ذهاب الرسول إليهم في منزله الى عرض استعداده ان يفارق زوجته أمكنينا عنها بضميرها؟ اكل من زار انسانا في منزله فلم يجده يذهب إليه ذلك الإنسان ليعرض عليه استعداده لفراق زوجته؟ ومن أجل ماذا؟

لنقرأ باقي الحديث كما تذكره الرواية :

سأله الرسول: أراك منها شيء؟ فأجاب: " لا والله يا رسول الله ما رايتي منها شيء، ولا رأيت إلا خيرا، ولكنها تتعاطم علي فقال له رسول الله ﷺ: " أمسك عليك زوجك"، وصدق المثل يكاد المريب يقول: خذوني، بل هو هنا قد قالها فعلا، فقد حكوا من رجاء زيد

أن يكون الرسول قد دخل بيته عندما زاره فلم يجده، وأنه انتقل - دون رابط - إلى عرض فراق زينب على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما سأله الرسول عما إذا كان يشك في شيء من تصرفاتها بادر بنفي كل شك، وأكد أنه لم ير منها إلا خيراً، ثم شكاً تعاضمها عليه وأجاب رسول الله ﷺ على عرضه في حسم " إمسك عليك زوجك " تعبيراً عن عدم اقتناعه بوجهة ما ذكر من أسباب لفراقه إياها .

فلا مناسبة إذن لعرض استعداده لفراقها عقب حديثه عن ذهاب الرسول ﷺ إليه في منزله ما دامت أسباب الفراق لا صلة لها بتلك الزيارة، وقول الرسول ﷺ عند منصرفه عنها «سبحان الله مصرف القلوب» كما زعموا.

و أمر الرسول في نهاية الرواية لزيد، إمساك زوجته عليه يؤكد ان نفسه لم تطلع إليها، و لم ترغب فيها، فإن الرسول عليه السلام لم يعرف من خلقه النفاق.

أما كون الآية قد صرحت أنه أخفى في نفسه شيئاً فقد حددت هذا الشيء حين قالت: " ما الله مبديه " ولم يبد الله أن محمداً قد أحب زينب - كما

يزعمون - لكنه ابدى امراً آخر كان محمد يخشى الناس فيه، وهو الزواج من زينب مطلقة متبناه زيد بعد امره الله به

ولا يقال ان هذا الزواج انما صدر الامر الالهي به بسبب هذا الحب لأن الله عز وجل حدد الغاية من هذا الزواج حين قال: ﴿ لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ **الأحزاب: ٣٧**.

وهكذا يتضح ان هذه القصة من الاسرائيليات وان الذين لفقوها ارادوا بها النيل من محمد ﷺ.

ويقول فضيلة الاستاذ محمد السيد حسين الذهبي في كتابه الاسرائيليات في التفسير والحديث ما نصه: "ومن الاباطيل التي يرويها ابن جرير في تفسيره بقوله تعالى في الآية سبع وثلاثين (٣٧) من سورة الاحزاب: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا

وَطَرًا زَوْجِنَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ حيث يقول ما نصه: يقول الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ عتابا من الله له واذكر يا محمد اذ تقول للذي انعم الله عليه بالهدايه وانعمت عليه بالعتق - زيد بن حارثة - مولى رسول الله ﷺ امسك عليك زوجك . واتق الله وذلك ان زينب بنت جحش فيما ذكر رآها رسول الله ﷺ فاعجبته وهي في حبال مولاه فالقى الله في نفس زيد كراحتها لما علم الله مما وقع في نفس نبيه ما وقع فأراد فراقها . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ زيد . فقال له رسول الله ﷺ: (امسك عليك زوجك) وهو ﷺ يجب ان تكون قد بانت منه لينكحها "واتق الله" وخف الله في الواجب عليك في زوجته (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) ويقول: وتخفي في نفسك محبة فراقه إياه لتزوجها ان هو فارقتها والله مبد ما تخفي في نفسك من ذلك . (وتخشى الناس والله احق ان تخشاه) ويقول تعالى ذكره وتخاف أن يقول الناس أمر رجلا بطلاق امرأته ونكحها حين طلقها أو الله احق ان تخشاه من الناس "

وهكذا يروي ابن جرير هذه القصة الذي عزاها لغير معين حيث يقول "فيها ذكر" ويبدو انه ارتضاها تفسير للايه حيث لم يعقب عليها حيث يقول بعد فراغه منها: وبنحو الذي قلنا في ذلك قال اهل التأويل أثم ساق روايات منها هذه الرواية :

حدثنا بسر قال :حدثنا يزيد قال :حدثنا سعيد عن قتادة : "واذ تقول للذي انعم الله عليه - وهو زيد انعم الله بالاسلام - وانعمت عليه " اعتقه رسول الله ﷺ: "امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه" قال " وكان يخفي في نفسه ود ان طلقها " .

ثم قال: " ومن الناس إذا رأى ابن جرير _ على مبلغ علمه _ وجلاله وقدره يروي في تفسيره مثل هذا، أخذه على أنه حق وصدق واستباح لنفسه أن يفعل مثل ما نسب إلى محمد وداود عليهما السلام مع زوجة أوريا .

وقد رأينا من يفعل الخطيء، فإذا ما ليم على خطيئته قال _ في رضا واطمئنان _ إن الأنبياء يخطئون ويذنبون، فقد كان من أمر محمد ﷺ مع زينب كذا وكذا فلم تلوموني على

خطيبي وليست نبياً؟! (١).

مما سبق يظهر لنا حكمة تعدد زوجات الرسول ﷺ والرد على الشبهات التي أثيرت حول زواجه والتي يثيرها المستشرقون والمبشرون والمنافقون من أعداء الإسلام .

مما سبق ظهر لنا أن رسول الله ﷺ قد تزوج بتسع زوجات أولهن خديجة رضي الله عنها وكان سنها عند زواجه بها نحو أر بعين سنة وكان عمره عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة، وقد بقيت معه حتى بلغت خمس وستين سنة حيث توفاه الله تعالى، وكان عمره خمسين سنة تقريباً.

ثم تزوج بعد ذلك باقي زوجاته أمهات المؤمنين لظروف وأسباب سبق بيانها، فلم يكن زواجه عليه الصلاة والسلام من أجل التمتع، فما كان عليه الصلاة والسلام يميل إلى التمتع بالنساء وهو شاب فكيف يغرق به وهو شيخ كبير (٢).

كما أن جمهوراً كبيراً من النبيين تزوجوا بأكثر من واحدة، فيعقوب عليه السلام تزوج بأربع، وداود تزوج بما ينوف عن ست زوجات إداهن تزوجها وهي صغيرة وهو شيخ طاعن بالسن.

وورد في العهد القديم أن سليمان كانت له سبعائة من النساء، وثلاثماية من السراري (٣).

إباحة تعدد الزوجات في الإسلام.

من مزايا التشريع الإسلامي صلاحيته لكل زمان ومكان فهو تشريع عام لجميع البشر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم وبيئاتهم وظروفهم، فلذلك أباح الإسلام تعدد الزوجات

(١) الذهبي: محمد السيد الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث: ص ١٧٥، طبعة مجمع البحوث الإسلامية الأزهر.

(٢) ومن أراد المزيد والتوضيح في معرفة حكمة زواجه عليه الصلاة والسلام من هذه الزوجات فليرجع إلى كتاب حقوق المرأة في الإسلام تأليف الدكتورة جميلة الرفاعي والدكتور محمد رمزي العزيمي صفحة ٣٤٨ - ٤٠٤.

(٣) سفر الملوك الأول، الإصحاح (١١)، الفقرات (١-٣).

بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ ﴿١﴾ . فقد حدد الإسلام في هذه الآية عدد الزوجات بأربع لا يجوز تجاوزهن، وقد قدر الإباحة في هذا التعدد بإشتراط العدل في النفقه والمساواة بينهما في واجبات الزوجية بقوله تعالى في نفس الآية السابقة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴿٢﴾ .

حكمة مشروعية إباحة تعدد الزوجات.

- ١- كثيراً ما يزيد عدد النساء على الرجال لأسباب مختلفة، كالحروب التي تفتك بالرجال دون النساء كما هو حاصل في هذه الأيام بالعراق وسوريا، فإذا كان التعدد محظوراً أدى إلى إنتشار الفاحشة وكذلك السفاح، ونفسي الأمراض السارية، بينما معالجتها بإباحة التعدد أمر ضروري.
- ٢- قد تكون الزوجة عقيباً لا تلد، والرغبة في إنجاب الأولاد تدفع الرجل الزواج بأخرى، فلو منع التعدد لأدى إلى تشرذم الزوجة الأولى أو رجوعها إلى بيت أبيها، وفقدانها بيت الزوجية، وخير لها أن تظل في كنف الزوج يقوم برعايتها بجانب زوجة أخرى محققاً للعدل المشترط في تعدد الزوجات.
- ٣- قد تمرض الزوجة مرضاً مزمناً أو معدياً يمنع من المعاشرة الزوجية، فأباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأخرى مع الإبقاء على الأولى منعاً لها من التشرذم، وخير لها أن تبقى في كنف رجل يعالجها وينفق عليها ويرعاها دون أن يضيق بها ذرعاً لأنها لا تقوم بواجب الزوجية نظراً لوجود زوجة أخرى.
- ٤- هنالك بين الرجال من لا يصبر عن النساء بحكم تكوينه الجنسي، والمرأة تعثرها بحكم تكوينها الجسدي ما يمنع من المعاشرة الزوجية، كالحيض والنفاس، فخير للرجل في مثل هذه الحالة أن يتزوج ولا يقع في الزنا ويمنع المجتمع من الفساد.

(١) سورة النساء آية رقم ٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٣ .

- ٥- كثيراً ما يتطرق الهرم إلى المرأة قبل الرجل وفي هذه الحالة يحق للرجل أن يتزوج امرأة فتية تقوم بشؤونه، وتحقيق سعادته، مع الإبقاء على الزوجة الأولى حفاظاً لها.
- ٦- قد يقع بين رجل متزوج وفتاة غير متزوجة حب لا يستطيعان دفعه إلا أن يكون بينهما علاقة شرعية أو آثمة فيكون من المصلحة الاجتماعية أن تكون شرعية، وخير للمرأة أن تكون تزوجة من أن تكون خليلية، فيكون إباحة التعدد في هذه الحالة أفضل من عدمه.
- ٧- في تعدد الزوجات إكثار للنسل، وفي كثرة النسل تعدد للقوة العاملة المجاهدة مصداقاً لقوله ﷺ: «تناحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»

غزوة مؤتة (٨) هجري:

في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (٦٢٩م)، جهز عليه السلام جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي، رسوله إلى أمير بصرى، وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، وإن أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة، وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف، فساروا وشيعهم عليه السلام وطلب من زيد أن يأتي مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعينوا بالله وقتلوهم، ومما وصاهم به ﷺ اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء^(١)، وكان عدد الروم ما بين مائة ألف ومائتين، ممن جمعهم هرقل وعامله على اللقاء شرحبيل، الذي جمع القبائل من حوله، وبلغ الأمر إلى جيش المسلمين وهم في مدينة معان، فأقاموا ليلتين يفكرون بماذا يصنعون، أمام هذا العدد الذي لا قبل لهم به، وتشاوروا فيما بينهم، فقال قائل منهم نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره.

فتقدم عبد الله بن رواحة فشجعهم بقوله: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم لقد خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنها هي إحدى الحسينين، إما ظهور أو شهادة.

وامتدت عدوى نخوة هذا البطل الشجاع إلى الجيش كله، فقال الناس صدق والله ابن رواحة ومضوا حتى كانوا في الطريق لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب في قرية مشارف فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى مؤتة تحصنوا بها، وبدأت معركة حامية الوطيس، فتقدم زيد بن حارثة وهو حامل راية النبي ﷺ، واندفع بها في صدر العدو، وهو موقن أن ليس من موته

(١) ابن الملقن، البدر المنير في، تخريج الأحاديث، تحقيق مصطفى العيط، دار الهجرة، ٢٠٠٤م، ج ٩، ص ٨٧ وقال عنه البيهقي، في اسناده إرسال ضعيف.

مفر، لكن الموت في هذا المقام هو الاستشهاد في سبيل الله.

وحارب زيد حرب المستميت، حتى اخترقته رماح العدو، فتناول الراية من يده جعفر

بن أبي طالب، وهو يومئذ في الثلاثة والثلاثين من عمره، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إذا لاقيتها ضرابها

وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه، اقتحم عنها فعقرها واندفع بنفسه

وسط القوم منطلقاً انطلاق السهم، يهوي سيفه برؤوسهم حيثما وقع، وكان اللواء بيمين

جعفر فقطعت فأخذه بشاله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل. ويقال إن رجلاً من الروم

ضربه ضربة قطعتة نصفين.

فلما قتل جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم تقدم بها وهو على فرسه وجعل يستنزل

نفسه ويتردد بعض التردد، وقد شاهد زميليه الذين استشهدوا قبله ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلن طائعة أو لتكرهن
أن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة

ثم اقتحم بفرسه المعمعة، ولم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى استشهد، فهم بعض المسلمين

بالرجوع إلى الوراء، فقال لهم عقبة بن عامر، يقتل الإنسان مقبلاً خيراً من أن يقتل مدبراً.

فترجعوا واستبسوا في القتال، وقد ضرب هؤلاء القادة المثل الأعلى في البطولة والتقدم أمام

الجيش لقتال الأعداء، لقد استشهد عبد الله بن رواحة ثالث ثلاثة حملوا الراية، وقادوا

الجيش، واخترقوا صفوف العدو حتى استشهدوا فأخذ الراية ثابت بن أرقم أحد بني عجلان

فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا أنت تولى القيادة، فقال ما أنا

بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ الراية مع ما رأى من تضعف قوة

المسلمين واستشهاد ثلاثة تولوا قيادة الجيش، وكان خالد قائداً ماهراً ومخططاً للحرب قل نظيره، إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بهائة وخمسين ألفاً، فأخذ الراية وقاتل يومه قتالاً شديداً، وفي غد خالف ترتيب الجيش، فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا، ثم وزع عدداً غير قليل من رجاله خلف الجيش، أحدثوا ضجة وجلبة، ثم أمر خالد الجيش بالتراجع إلى الوراء، حتى انحاز إلى مؤتة، ثم أخذ يناوش الأعداء سبعة أيام، ولم يتقدم جيش العدو إلى الأمام، لأنهم ظنوا أن الإمداد يتوالى للمسلمين، وخافوا أن يجرحهم إلى وسط الصحراء حيث لا يمكنهم التخلص منه، وقد قاتلهم في اليوم الأول. ووجدوا منهم قتالاً واستبسالاً لم يروا مثله، فقتلوا منهم عدداً كبيراً، ولم يقتل من المسلمين سوى عددٍ قليل، وبذلك انقطع القتال وتقاعس الروم في مهاجمة خالد، وسروا بعدم مهاجمتهم إياهم، وانسحب المسلمون راجعين إلى المدينة، وقد نعى النبي ﷺ زيدا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل أن يأتيه خبرهم فقال أخذ الراية زيد فأصيب فأخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عينا رسول الله ﷺ تذر فان، ثم قال حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم^(١). وما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقاهم النبي والمسلمون معه، وأما باقي الناس فجعلوا يحثون التراب في وجوههم ويقولون يا فرار... فررتم من القتال في سبيل الله، فقال عليه السلام ليسوا بالفرار ولكنهم الكرّار إن شاء الله، وقد ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكاييد الحرب، وأثنى على خالد في خطته ومهارته.

ومع هذا التأييد من النبي ﷺ للجيش العائد من مؤتة فقد ظل المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودتهم حتى كان مسلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية من أن يسمع من كل من رآه بالفرار من القتال في سبيل الله.

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٧، رقم الحديث (٣٧٥٧)، طبعة دار طوق النجاة، تحقيق محمد زهير، ١٤٢٢هـ.

وقد ذهب رسول الله ﷺ إلى زوجة جعفر أسماء بنت عميس في بيتها فقال لأهله لا تغفلوا عن آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم.

بعض الدروس والعبر المستفادة من غزوة مؤتة:

١. قوة عقيدة أصحاب رسول الله ﷺ وذلك لثباتهم أمام عدوهم الذي كان ينوف على خمسين ضعفاً.

٢. على القائد أن يكون قدوة لجنوده في التقدم والاستبسال في قتال العدو كما شاهدنا في استبسال قادة مؤتة.

٣. وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب كل حسب اختصاصه. فقد تولى خالد رضي الله عنه القيادة لمهارته في إدارة المعارك مع وجود من هو أفقه وأحفظ منه بكتاب الله وأسبق في الإسلام.

٤. أن يقتل المسلم وهو مقبل على القتال في سبيل الله خير له من أن يقتل مدبراً، وذلك كما حصل من الجيوش العربية سنة (١٩٦٧م)، حيث ولى معظمهم الإدبار عندما سمعت بتدمير العدو الصهيوني لسلاح الجو المصري وهو رابض في مطاراته، فقتل من الجيش المصري وحده ما يزيد على سبعين ألف جندي وهم يولون الإدبار بناء على أوامر صدرت لهم. وسقطت صحراء سيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان، خلال ستة أيام بل خلال ستة ساعات.

فتح مكة ٨هـ

لقد كانت هذه الغزوة على غير أوضاع الغزوات التي سبقتها في القوة المادية والتأهب، بعناصرها وأسبابها من الرجال والسلاح. والبدء بالهجوم وغزو الأعداء في عقر دارهم. وقد كان الجيش الذي زحف به رسول الله ﷺ لتأديب قريش على ما أقدموا عليه واقتروا إثمهم من فجور الغدر ونقض العهد والعبث بالمواثيق، وهم في ديارهم غافلون، وذلك لمساعدة حلفائهم البكرين على حلفاء النبي ﷺ الخزاعيين، ولم يعرف أنه اجتمع للمسلمين مثله عدداً وعدة قبل هذه الغزوة المباركة، وقد قدرت الروايات عدد هذا الجيش الزاحف بقيادة رسول الله ﷺ على مكة بعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ومن انضم إليهم من القبائل التي كانت حول المدينة المنورة، فقد علمت أن كان من بنود الصلح أنه من أراد أن يدخل في حلف رسول الله ﷺ فله ذلك ومن أراد أن يدخل في الحلف مع قريش فله ذلك، فدخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ﷺ وقبيلة بكر في عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية، كمنت نارها بظهور الإسلام. فلما حصلت الهدنة وقف رجلٌ من بكر يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ على مسمع من رجل خزاعي فقام هذا وضربه وحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثأرهم، فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بحلفائهم من قريش، فأعانوهم سراً بالعدة والرجال. ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون، وقتلوا منهم ما يربوا على العشرين، ولما رأى ذلك حلفاء رسول الله ﷺ (خزاعة) أرسلوا منهم وفداً برئاسة عمرو بن سالم الخزاعي، ليخبروا رسول الله ﷺ بما فعل فيهم بنو بكر وقريش، فلما حلوا بين يديه واخبروه الخبر، قال والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه.

أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم، ندموا على ما فعلوا، وأرادوا مداواة هذا الجرح، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة، فركب راحلته وهو يظن ان لم يسبقه أحد، حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال: يا بنية

أرغبت به عني أم رغبتني بي عنه؟ فقالت ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فقال: لقد أصابك بعض شر، ثم خرج من عندها وأتى النبي في المسجد، وعرض عليه ما جاء له. فقال له عليه الصلاة والسلام: هل كان من حدث، قال: لا، فقال عليه السلام: فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك^(١).

فقام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش، عليهم يساعده على مقصده. فلم يجد منهم معيناً، وكلهم قالوا جوارنا من جوار رسول الله. فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً، فاتهموه بأنه خانهم واتبع الإسلام. فتنسك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة.

أما رسول الله ﷺ فتجهز للسفر، وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة فقال له: يا رسول الله أوليس بينك وبين قريش عهد؟ قال نعم، ولكنهم غدروا ونقضوا، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين حول المدينة وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كي لا يشيع الأمر، فتعلم قريش وتستعد للحرب. والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حرباً في مكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرماتها. فدعا مولاه جل ذكره وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى أن نبغتها في بلادها. فقام حاطب بن بلتعة أحد الذين شهدوا بدرًا، وكتب كتاباً لقريش يخبرهم بأمر رسول الله ﷺ، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على عجل. فأعلم الله رسوله ذلك. فأرسل في إثرها علياً والزبير والمقداد، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ضعينة معها كتابٌ، فخذوه منها، فانطلقوا حتى أتوا الروضة، ووجدوا بها المرأة فقالوا لها: أخرجي الكتاب قالت: ما معي كتاب، قالوا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاسها^(٢)، وأتوا به رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني

(١) الخصري، نور اليقين، ج ١، ص ١٩٥.

(٢) عقاسها: وهو خيط تشد به أطراف الذواب.

كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا إرضاء بالكفر بعد الإسلام. فقال عليه السلام: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال له: قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم لقد غفر لكم. وفي ذلك أنزل الله في سورة الممتحنة.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾.

ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان، بعد أن ولي على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه، وهما ابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، شقيق زوجته أم سلمة، وكانا يريدان الإسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح، وقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

ولما وصل عليه السلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين، فأمرهم بالفطر، وأفطر هو أيضاً، وقد قابل عليه السلام في الطريق أيضاً عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله فأمره أن يعدو معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة.

ولما وصل عليه السلام مر الظهران، أمر بإيقاد عشرة آلاف نار، وكانت قريش قد بلغها أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يلتمسون الخبر عن رسول الله.

(١) سورة الممتحنة، الآية رقم (١).

فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة. فقال أبو سفيان: ما هذه لكأنها نيران عرفة!.

وقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك. مرآهم ناس من حرس رسول الله، فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله، فأسلم أبو سفيان. ولما سار قال لعباس: احبس أبا سفيان عند حطم الجبل، حتى ينظر إلى المسلمين. فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان وهو يسأل عنها ويقول: مالي ولها، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عباد، فقال سعد: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان يا عباس، حبذا يوم الذمار. ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه، وحامل الراية الزبير بن عوام، فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد، فقال عليه السلام كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون^(١).

وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة، من كدي^(٢). مسفلة مكة، على طريق اليمن. ودخل هو من أعلاها من كداء^(٣). ونادى مناديه: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهذه أعظم منة له. واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى، فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة.

ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي أسلم وكتب لرسول الله ﷺ الوحي، ثم ارتد وافتري الكذب على رسول الله ﷺ، فكان يقول: إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليكم حكيم فأكتب غفور رحيم، فيقول كل جيد!.

(١) جبل بأعلى مكة.

(٢) كدي: جبل مسفلة مكة.

(٣) كداء: جبل بأعلى مكة.

ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وهبار بن الأسود، والحارث بن هشام،
وزهير بن أبي أمية، وكعب بن زهير، ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان.
ونهى عن قتل واحد سوى هؤلاء إلا من قاتل.
وأما جيش خالد بن الوليد فقابلته الذعر من قريش يريدون صده، فقاتلهم وقتل منهم
أربعة وعشرين. وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة.
وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يصادف قتالاً، وهو عليه السلام راكب راحلته منحني على
الراحلة تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة، حتى تكاد جبهته تمس الرحل. وأسامة بن زيد
رديفه.

وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة، لعشرين خلت من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة،
حتى وصل إلى الحجون موضع رايته، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة،
فاستراح قليلاً، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ الفتح، حتى بلغ البيت الحرام،
وطاف بالبيت سبعمائة مرة على راحلته، واستلم الحجر الأسود بمحجنه، وكان حول الكعبة إذ ذاك
ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل عليه السلام يطعنهما بمحجنه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل،
إن الباطل كان زهوقاً.

ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت، وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم وفي أيديهما الأزام،
فقال عليه السلام: قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بهما قط!^(١)
وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة، وبطهارة الكعبة المقدسة
عند جميع العرب، باديها وحاضرها من هذه الأنداس، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد
العرب إلا قليلاً.

(١) الباجوري، محمد بن عفيف الباجوري، (١٣٤٥هـ)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار فيحاء،
دمشق، ج ١، ط ٢، ص ١٩٩.

حكم رسول الله ﷺ بالأسرى بأهل مكة وعفوه عن بعض من أهدر دمهم:
ثم أن النبي ﷺ دخل الكعبة، وخرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه، ثم شرب من زمزم،
وجلس في المسجد والناس حوله، والعيون شاخصة إليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي
قريش، الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقتلوه.

وهنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، وهو أن يكون رضاه وغضبه
لله، لا لهوى النفس، فقال عليه السلام: يا معشر قريش ما تظنون أي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً
أخ كريم وابن أخ كريم. فقال عليه السلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١). فهذا منتهى العفو عند
المقدرة.

ثم خطب عليه السلام خطبة، أبان فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية، منها: أن لا يقتل
مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، والبينة
على من ادعى واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا
صلاة بعد الصبح والعصر، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر. ثم قال: يا معشر قريش، إن
الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، والناس من آدم وآدم من تراب^(٢)، ثم
تلى هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، ومن أسلم في هذا اليوم معاوية ابن
أبي سفيان، وأبو قحافة والد أبي بكر وقد فرح الرسول كثيراً بإسلامه.
وجاء رجل يرتعد خوفاً، فقال له عليه السلام: هون عليك فإني لست بملك وإنما أنا ابن

(١) الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي، ج١٦، ص٩٨٤٠، كتاب مواقف
المطبوع.

(٢) عزت دروزه محمد عزت، تفسير الحديث، ط١٣٨٣هـ، ج٩، ص٣٠٧.

(٣) سورة الحجرات الآية (١٣).

امرأة من قريش كانت تأكل القديد^(١). (اللحم المجفف).

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فعبد الله بن سعد بن أبي السرح لجأ إلى أخيه من الرضاة عثمان بن عفان، وطلب منه أن يستأمن له رسول الله فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم أتى به النبي، وقال: يا رسول الله قد أمتته من دمه فعرض عليه الإسلام عنه مراراً، ثم بايعه. فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه السلام أعرضت عنه ليقدم إليه أحدكم فيضرب عنقه، فقالوا هلا أشرت إلينا؟ فقال: لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين.

وأما عكرمة بن أبي جهل فهرب. وخرج وراءه زوجته و بنت عمه أم الحكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت قبل الفتح، وقد أخذت له أماناً من رسول الله، فلحقته، وقد أراد أن يركب البحر، فقالت جئت من عند أبر الناس وخيرهم، لا تهمك نفسك، وإني قد استأمنتك لك فرجع.

فلما رآه رسول الله ﷺ وثب قائماً فرحاً به، وقال مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً، ثم أسلم رضي الله عنه، وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها، فاستغفر له. وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام.

أما هبار بن الأسود فهرب واختفى، ثم جاء رسول الله ﷺ وهو بالجرعانة^(٢). وأعلن إسلامه، وأما الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية المخزومي، فأجارتها أم هانئ بنت أبي طالب، فأجاز عليه السلام جوارها. ولما قابل الحارث رسول الله مسلماً قال: الحمد لله الذي هدأك، ما كان مثلك يجهل الإسلام، وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

(١) الباجوري، محمد بن عفيف الباجوري، (١٣٤٥هـ)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار الفيحاء، دمشق، ج ١، ط ٢، ص ٢٠٠.

(٢) الجرعانة: موضع بين مكة والطائف.

وأما صفوان بن أمية فاختمني، وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي وقال: يا نبي الله إن صفوان سيد قومه، وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه، فإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فقال عليه السلام أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: أعطني علامة. فأعطاه عمامته فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان قال له: فذاك أبي وأمي جئتكم من عند أبر الناس وأحلم الناس، وخير الناس، وهو ابن عمك وعزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: أني أخافه على نفسي قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامة الأمان. فرجع إلى رسول الله وقال له: إن هذا يزعم أنك أمتتي؟ قال: صدق، قال أمهلني بالخيار شهرين، قال: أربعة أشهر، ثم أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه.

وأما هند بنت عتبة فاختمت ثم أسلمت، وجاءت إلى رسول الله فرحب بها، وقالت له والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إليّ من أن يعزوا من أهل خبائك^(١).

وفود كعب بن زهير:

وأما كعب بن زهير، فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيراً، جاء المدينة بعد أن قدمها رسول الله من مكة، فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته	يوماً على آله حذباء محمول
أنبت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة	القرآن فيها مواعظ وتفصيل

وقال فيها مادحاً:

إن الرسول لسيف يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

ولما قال هذا البيت خلع عليه رسول الله بردته، فسميت قصيدته بالبردة.

(١) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي، (٧٤٨هـ)، المتتقى من منهاج الاعتدال في نقص كلام أهل الرفض والاعتزال، ج ١، ط ١، ص ٢٦٩.

وأما وحشي قاتل حمزة فكذلك أسلم وحسن إسلامه، وقبلة عليه الصلاة والسلام.
وقد جاء ابن أبي لهب عتبة وأخوه معتب فأسلما وفرح بهما عليه السلام.
وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو، فاستأذن له ابنه عبد الله فأمنه عليه السلام،
وقال: إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً
قال: كان والله براً صغيراً براً كبيراً. ثم أسلم بعد ذلك.

بيعة النساء:

هذا ولما تمت بيعة الرجال لرسول الله بايعته النساء وكن يبايعن على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن. ولا يأتين بهتان يأتينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين رسول الله ﷺ في معروف. ثم أمر عليه السلام بلالاً بأن يؤذن على ظهر الكعبة.

ولا عجب أن يتخذ المسلمون هذا اليوم وهو فتح مكة عيداً يحمدون فيه الله حق حمده، على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

وأقام عليه السلام في مكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً. يقصر فيها الصلاة، وولى عليها عتاب بن أسيد وجعل رزقه كل يوم درهماً.

فكان عتاب رضي الله عنه يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم.

هدم باقي الأصنام:

أرسل رسول الله ﷺ أثناء إقامته بمكة، خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى وهو أكبر صنم لقريش، وكان هيكلها بطن نخلة، فتوجه إليها خالد وهدمها، كما أرسل عمرو بن العاص لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

وبعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة، وهي صنم لكلب وخزاعة، وهيكلها بالمشلل، وهو جبل على ساحل البحر الأحمر ويهبط منها إلى قديد فتوجهوا إليه وهدموه.

غزوة حنين

بعد أن تم فتح مكة، وسقوط دولة الأوثان، دانت للإسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجاً. أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركتها حمية الجاهلية، واجتمع الأشراف منها للشورى وقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم على ذلك، وولوا رئاستهم مالك بن عوف النضري، فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة، فيهم بنو سعد بن بكر الذي كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم، وكان في القوم دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي، وشدة البأس في الحرب، ولتقدم سنه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي.

ثم إن مالك بن عوف، أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذرايرهم وأموالهم، فلما علم بذلك دريد سأل مالكا عن السبب فقال: سقت مع الناس أموالهم وذرايرهم ونساءهم، لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه. فقال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لن ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ووراءهم الإبل، ثم البقر، ثم الغنم، كي لا يفر أحد من المقاتلين. أما رسول الله ﷺ فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه، أجمع رأيه على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غازٍ، منهم ألفان من أهل مكة والباقيون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة، حتى النساء يمشين من غير ضعف، يرجون الغنائم. وخرج في الجيش ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو. ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه الصلاة والسلام الجيش، وعقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الخزرج للحباب بن منذر، ولواء الأوس لأسيد ابن حضير. وكذلك أعطى ألوية القبائل العرب الأخرى. وبلغ عدد جيش المسلمين في هذه الغزوة ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك، حتى قال قائل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، وأعجبتهم كثرة الناس. واستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً وهو مشرك، ثم ركب رسول

الله ﷺ بغلته ولبس درعين والبيضة والمخفر.

هذا وقد أعجب المسلمون بكثرتهم، فلم تغن عنهم شيئاً، فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستتراً في شعاب الوادي ومضايقه، وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فولوا عنه خيلهم متقهقرين. ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة.

أما رسول الله ﷺ فثبت على بغلته في ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل ومعتب بن أبي لهب. وكان عليه السلام ينادي إلي أيها الناس، ولا يلوي عليه أحد، وضافت بالمنهزمين الأرض بما رحبت. أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام، والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك، فمنهم من فرح، ومنهم من ساءهم هذا الإدبار.

وقال أبو سفيان ابن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر^(١).

وقال أخ لصفوان بن أمية: الآن بطل السحر فقال له صفوان وهو على شركه: اسكت فض الله فك، والله لأن يرثني رجل من قريش خير من أن يرثني رجل من هوازن. ومر عليه رجل من قريش وهو يقول ابشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبداً. فغضب صفوان وقال: ويلك أتبشرني بظهور الأعراب وقال عكرمة بن أبي جهل لذلك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً.

فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث فقال له: يا أبا يزيد، إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع^(٢).

وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة كل هذا ورسول الله ﷺ واقف مكانه يقول:

(١) هيكل، محمد حسين هيكل (١٣٧٦هـ)، حياة محمد ﷺ ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) نور اليقين للخضري ص: ٢١٣.

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١).

ثم قال للعباس وكان جهوري الصوت: نادِ بالأنصار يا عباس، فنادى: يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان فأسمع من في الوادي، وصار الأنصار يقولون لبيك لبيك، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، وينزل عن بعيره، ويخلي سبيله، ويؤم الصوت حتى اجتمع حول رسول الله ﷺ جمع عظيم منهم^(٢). وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم يروها، فكر المسلمون على عدوهم يداً واحدة، فانتكس قتل المشركين وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء، من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيراً من المحاربين، وهرب من هرب.

وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوا من عناية الله بالمسلمين، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الغزوة، وما حصل فيها بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾^(٣).

وبدأت الطمأنينة تعاود الرسول ﷺ حين رآهم يعودون، فقد انحدرت هوازن من مكانها، وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي، واجتمع حول رسول الله ﷺ جمع

(١) العسقلاني، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العسقلاني، (٣٧٧هـ) التنبيه والرد على أهل الأهواء المحقق

محمد زاهد الكوثري، ج ١، ص ١٥٢، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.

(٢) الباجوري، محمد بن عفيف الباجوري، (١٣٤٥هـ)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار الفيحاء،

دمشق، ج ١، ط ٢، ص ٢٠٦.

(٣) سورة التوبة الآيات (٢٥ - ٢٦).

عظيم من المسلمين استقبلوا القبائل وصبروا لهم، وتابع المسلمون مطاردتهم للعدو وزادهم إغراء بهذه المطاردة، أن أعلن الرسول بمن قتل مشركاً فله سلبه.

وأدرك ابن الدغنة جملاً عليه هودج صغير ظن به امرأة طمع في سلبها، فأناخ الجمل فإذا شيخ كبير لا يعرفه وهو دريد بن الصمة، وسأل دريد ربيعة بما يريد به قال: اقتلك وأهوى عليه بسيفه، فلم يغن شيئاً، فقال دريد بنس ما سلحتك أمك خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب به الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد ابن الصمة فرب والله يوم قد منعت فيه نساءك، ولما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره. قالت له: حرق الله يدك، إنما قال ذلك ليدكرنا نعمته عليك، فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات في غداة، أنا، وأمي، وأم أبيك.

وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاس، وهناك أوقعوا بهم، وهزموهم شر هزيمة، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال، وعادوا بهم إلى النبي ﷺ.

أما مالك بن عوف النضري فقد ثبت هنيهة ثم فر وقومه مع هوازن، حتى افترق عنهم عند نخلة. ثم ولى وجهه نحو الطائف، وكذلك كان نصر المسلمين مؤزراً وكانت هزيمة المشركين تامة.

غزوة الطائف

وسار عليه السلام ومن معه إلى الطائف يجهز على بقية حياة ثقيف، ومن تجمع معهم من هوازن. وجعل على مقدمته خالد بن الوليد. ومر عليه السلام بحصن لمالك النضري فأمر بهدمه، ومر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه فأرسل إليه أن اخرج وإلا حرقنا عليك بستانك، فامتنع الرجل فأمر عليه السلام بحرقه.

ولما وصل المسلمون إلى الطائف، وجد الأعداء قد تحصنوا به، وأدخلوا معهم قوت سنتهم. فعسكر المسلمون قريب الحصن، فرماهم المشركون بالنبل رمية شديدة حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات، منهم عبد الله بن أبي بكر، وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة

أبيه. ومنهم أبو سفيان بن حرب فقأت عينه، وقد مات بالجراحات اثنا عشر من المسلمين. ولما رأى رسول الله ﷺ أن العدو متمكن من رميهم، ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن، واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً، كان فيها ينادي خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد، وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف: لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم في حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفيننا سنين، فإن أقيمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً، حتى نموت عن آخرنا.

فأمر عليه السلام، بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين^(١). لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، حتى أرجعوههم. فأمر عليه السلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم، فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً. فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم.

فقال: أدعها لله وللرحم، ثم أمر من ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً من أهلها عُرِفَ منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفي أمداً طويلاً. هناك رأى أن الحصار سيطول أمده، وأن جيوشه تريد الرجوع لاقتسام الغنائم التي كسبوها وأنه إن أصر على البقاء فقد ينفذ صبرهم.

هذا وكانت الأشهر الحرم قد أذنت، ولا يجوز فيها القتال. لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه، وكان ذو القعدة قد هل، فرجع بجيشه معتمراً وذكر أنه متجهز للطائف إذا انتهت الأشهر الحرم.

وانصرف الرسول ﷺ والمسلمون عن الطائف قافلين إلى مكة، حتى نزلوا الجعرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم، وهنالك نزلوا يقتسمون، وفصل الرسول الخمس لنفسه ودفع ما بقي على أصحابه.

(١) الدبابة: آلة تتخذ للحرب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها.

وإنهم بالجعرانة إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا، وهم يرتجون أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم وبنائهم بعد أن طال عنهم غيابهم، وبعد أن ذاقوا مرارة ما حل بهم ولقي النبي ﷺ الوفد، وخاطبه أحدهم قائلاً: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللواتي كن يكفلنك.

ولم يخطئ هؤلاء في تذكير محمد بصلته بهم وقرابته فيهم، فقد كانت بين السبايا امرأة تخطت الكهولة، عنف عليها الجند المسلمون، فقالت لهم فاعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها. وجاءوا بها محمداً، فعرفها. فإذا هي الشيباء بنت الحارث بن عبد العزى وأدناها محمد ﷺ منه، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها إن أحببت أبقاها، وإن أحببت مكنها ورجعها إلى قومها. فاختارت الرجوع إلى قومها.

فلما سمع رسول الله مقالة الوفد سأهم ابناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله قد خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد علينا نساءنا وبنائنا فهم أحب إلينا.

فقال عليه السلام: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس، فقوموا وقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في ابنائنا ونسائنا، فأعطيكم عقد ذلك وأسأل لكم.

ونفذت هوازن قول النبي فأجابهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وكذلك قال الأنصار.

أما الأعراب فالأقرع بن حابس وعيينه بن حصن عن تميم فرفضوا، ورفض العباس بن مرداس عن بن سليم. لكن بني سليم لم يقرؤوا العباس على رفضه، ومن أمتنع عن الرد أخذه رسول الله ﷺ قرصاً^(١).

(١) نور اليقين للخضري: ص ٢٣٨-٢٣٩.

وكذلك رُدَّت نساء هوازن وابتاؤها بعد أن أعلنت أسلامها.
وسأل النبي ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف النضري، فلما علم أنه ما زال بالطائف مع ثقيف طلب منهم أن يبلغوه أنه أتاهاهم مسلماً، رد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الأبل.
ولم يبطئ مالك حين علم بوعد الرسول أن سَرَّج فرسه في سر من ثقيف وسار بها حتى لحق بالرسول ﷺ فأعلن أسلامه فأخذ أهله وماله ومائة من الإبل.

تقسيم الغنائم:

ثم رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف إلى الجعرانة حيث أحصى السبي وخمسه^(١)، وأعطى من السبي شيئاً كثيراً لأناس ضعف إسلامهم يتألف قلوبهم بذلك، وأعطى أناساً لم يسلموا ليحبب إليهم الإسلام.
ومن الصنف الأول أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب، ومائة من الإبل، وكذلك ابناه معاوية ويزيد فقال أبو سفيان بأبي أنت وأمي لأنت كريم في السلم والحرب.
ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه ثم استزاده فأعطاه مثلها وقال: يا حكم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذ بإسراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ^(٢) أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه. وأعطى عليه السلام عينه بن حصن مائة من الإبل، وكذلك الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس.

ومن الصنف الثاني صفوان بن أمية أعطاه شعباً مملوءاً أنعاماً، كان رأه يرمقه فقال له هل يعجبك هذا؟ قال نعم، فقال: هو لك. فقال صفوان ما طابت بمثل هذا نفس أحد، وكان

(١) أخذ خمسه.

(٢) اطلب رزقاً من أحد.

ذلك سبب إسلامه. وكان عليه الصلاة والسلام يقصد في هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم وهذا ضرب من السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسماً للمؤلفة قلوبهم. ثم أمر عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم فقسمه على المحاربين. وتجمع عليه الأعراب يطالبون المزيدي فقال: أيها الناس والله مالي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة^(١) إلا الخمس، والخمس مردود عليكم^(٢).

على أن هذا الذي تألف به النبي قلوب من كانوا إلى الأمس أعداءه قد جعل الأنصار يتحدث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول، حتى قالوا إن هذا لهو العجب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! ودار بينهم حوار، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ فقال الأنصار: بلى الله ورسوله أمنُّ وأفضل. فقال رسول الله ﷺ: أما والله لو شئتم لقاتم ولصدقتم ولصدقتكم... أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك وعائلاً فأسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة^(٣) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحابكم!.

فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار... اللهم ارحم الأنصار وابتناء الأنصار وابتناء ابناء الأنصار^(١).

(١) صوفة كان أخذها النبي (صلى الله عليه وسلم) من سنام بعره.

(٢) الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، الناشر المكتب الإسلامي، ج ٢، ص ١٣٠٤، رقم الحديث ٧٨٨١.

(٣) لعاعة: الشيء اليسير.

قال النبي هذه العبارات وكله تأثر وفيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه، حتى بلغ من تأثرهم أن بكى الأنصار وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

نقول لقد كان رسول الله ﷺ يقصد في هذه العطايا لأناس ضعف أسلامهم وأناس لم يسلموا تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام ضرب من السياسة الدينية والتي أهملها المسلمون في هذه الأيام.

وتقوم الإرساليات التبشيرية النصرانية في العالم العربي والإسلامي، وفي أفريقيا ومعظم دول العالم بإقامة المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية لنشر الديانة النصرانية، كما يتشر كثير من المبشرين في المدن والقرى النائية باستغلال جهل البعض وفقرهم لنشر الديانة النصرانية، توزيع المساعدات المالية وغيرها.

ثم أن رسول الله ﷺ اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر وسعى بين الصفا والمروة، ثم أمر عليه السلام بالرحيل فصار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة بثلاث بقين من ذي القعدة.

واستحلف عتاب بن أسيد على مكة وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن.

وإثناء سيره عليه الصلاة والسلام وأصحابه وهم راجعون إلى المدينة لحقهم في الطريق عروة بن مسعود الثقفي، أحد سادات ثقيف فأسلم وبايع رسول الله ﷺ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بإسلامه ليدعوهم إلى الإسلام، فأشفق عليه رسول الله ﷺ من عناد قومه وكفرهم وإقناعهم عن مفارقه شركهم ووثنيتهم، فقال عروه: لأننا أحب إليهم من أبكارهم. وكذلك كان فيهم عروة محبباً مطاعاً. فخرج عائداً إلى بلده وقومه، وأنبأهم بإسلامه ودعاهم إلى

(١) أحمد، المسند، ج ١٨، ص ٢٥٥، رقم الحديث (١١٧٣٠)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، طبعة أولى ٢٠٠١م.

الإسلام ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف عروه على عليّة له وأظهر لهم اسلامه ودعاهم إلى الإسلام، ركبوا صهوات حماقاتهم وأستنزلهم الشيطان بكفرهم وعتو كفرهم ورموه بالنبل وقتلوه. فقام قوم عروة له وقالوا له: ما ترى في دمك؟ يريدون للثأر له، فقال لهم ليصرفهم عن مقصدهم: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم، فادفوني معهم.

وقد قال فيه رسول الله ﷺ لما بلغه أستشهاده «إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه».

وفود القبائل العربية بعد غزوة الطائف:

وبعد رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة بدأت القبائل تقبل على النبي ﷺ تقدم الطاعة بين يديه. فقدم وفد من طي وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل، فأحسن استقبالهم وتحدث إليه زيد فقال النبي له: ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه، ودعاه زيد الخير بدلاً من زيد الخيل، وأسلمت طي وزيد على رأسها.

وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً ومن أشد العرب كراهية لمحمد. فلما رأى أمره وأمر المسلمين في شبه الجزيرة، تحمل في إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصراري بالشام، وإنما فر عدي حين أوفد النبي علي بن أبي طالب ليهدم صنم طي. وهدم علي الصنم واحتمل الغنائم الأسرى ومن بينهم (سفانه) ابنه حاتم أخت عدي، ومر بها النبي فقامت إليه وقالت: يا رسول الله: هلك الوالد وغاب الرافد فامنن علي من الله عليك. فأجابها لأنه كان من سنته أن يكرم الكرام فدعت له.

وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي. وكان من حديث مجيئه، أن أخته سفانة توجهت إليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت أنت. قال: والله هذا هو الرأي، فخرج حتى جاء المدينة ولقي

رسول الله ﷺ فقال عليه السلام من الرجل؟ قال عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته وبيننا هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال عدي: والله ما هو بملك. ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته، فتناول وسادة من جلد محشوة ليفاً، فقدمها إلى عدي وقال: اجلس على هذه، فقال، بل أنت تجلس عليها فامتنع عليه السلام وأعطاهما له وجلس هو على الأرض، ثم قال: يا عدي... أسلم تسلم قالها ثلاثاً، فقال عدي إني على دين... وكان نصرانياً... فقال له عليه السلام أنا أعلم بدينك منك فقال عدي: أنت أعلم بديني مني، قال: نعم، ثم عدّ له أشياء كان يفعلها أتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء، كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم.

ثم قال: يا عدي: إنها يمنعك في الدخول في الدين ما ترى. تقول إنها اتبعه ضعفة الناس ومن لا قدرة لهم. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة؟ قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: فوالله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. فأسلم عدي رضي الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك.

جمع الزكاة من القبائل:

كان رسول الله ﷺ يبعث من يجمع الزكاة من القبائل العربية التي أعلنت إسلامها ومن بعثه الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي بعثه لجمع صدقات بني المصطلق فلما علموا بقدمه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدمه ومعهم إبل الصدقة فلما نظرهم ظن أنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية. فرجع مسرعاً إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر فسار إليهم في عسكره خفية حتى إذا كان بناديبهم سمع مؤذنين للصبح.

فأتاهم خالد ولم ير منهم إلا طاعة. فرجع وأخبر الرسول ﷺ بذلك فأرسل عليه السلام لهم من يجمع الصدقات منهم.

وفي الوليد بن عقبة نزل قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) (١).

غزوة تبوك (سنة ٩ هـ)

في السنة التاسعة من الهجرة، بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك زمن عسرة الناس وجذب البلاد وشدة الحر، حين نضجت الثمار والناس يجبون المقام في ثمارهم وظلالهم. فأمر عليه السلام بالتجهز للحرب، وكان قلما يخرج في غزوة إلا ورى غيرها ليعمي الأخبار على العدو إلا في هذه الغزوة، فإنه، أخبر بمقصده لبعث الشقة (المسافة) ولكثرة العدو. ليأخذ الناس عدتهم لذلك.

وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم بذلك، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين، فانفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً، فقال ﷺ: اللهم أرض عن عثمان فيني راض عنه (٢) وجاد أبو بكر بكل ما له وهو أربعة آلاف درهم فقال ﷺ: هل أبقيت لأهلك شيئاً! فقال أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية.

وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن، وجاءه ﷺ سبعة أنفس من فقراء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون (٣).

(١) سورة الحجرات آية ٦.

(٢) السقاف، تخريج أحاديث وأثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله، دار الهجرة، ١٩٩٥م، ج ١، ص ٢٧٤، رقم الحديث (٥٣٤).

(٣) الحاكم، المستدرک، ج ١، ص ٨٧٦، رقم الحديث ٣٣٢، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٠م.

وتم تجهيزهم من بعض الصحابة.

ولما اجتمع الجيش، خرج بهم رسول الله ﷺ وهم ثلاثون ألفاً. وولى على المدينة محمد بن مسلمة، وعلى أهله علي بن أبي طالب، وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أبي وقيل: يغزو محمد بن الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد!! أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال. فاجتمع جماعة منهم فقالوا في حق رسول الله وأصحابه، ما يريدون من الأرجاف، وجعلوا يتهامون فيما بينهم ويهزأون بدعوة النبي إياهم لهذه الغزوة وفيهم نزلت سورة التوبة التي جاء فيها: ﴿ وَقَالُوا لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ (١).

وقال النبي ﷺ للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد... هل لك الآن في قتال بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى أن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، وبنو الأصفر (٢) هم الروم، فاعرض عنه رسول الله ﷺ وفيه نزلت الآية ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ (٣).

وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم، وقد عتب الله عليه بهذا الأذن بقوله في سورة براءة قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ (٤). ثم قال في حقهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) سورة التوبة: آية ٨١، ٨٢.

(٢) الهبثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٧، ص ٣٠، رقم الحديث (١١٠٣٤) وقال عنه رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه يحيى الجهماني وهو ضعيف، المحقق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٩٤ م.

(٣) سورة التوبة: آية ٤٩.

(٤) سورة التوبة: آية ٤٣.

الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ (١).

ثم كذبهم الله في عذرهم فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ
أَنْعَانَهُمْ فَتَبَطَّوهُمْ وَقِيلَ أَعْدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ (٢).

ثم لكي لا يأس المسلمون على فعود المنافقين عنهم قال جل ذكره: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا
زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ (٣).

ولقد كان لهذه الشدة التي كان فيها المسلمون في هذه الغزوة أثر في إظهار حقيقة المسلمين
الصادقين وبيان حقيقة المنافقين.

وتخلفت جماعة من المسلمين لا يتهمون في إسلامهم وإيمانهم منهم كعب بن مالك
وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة.

ولما خلف رسول الله ﷺ علياً قال المنافقون: قد استثقله فتركه، فأسرع إلى رسول الله ﷺ
وشكاه له ما سمع، فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟» (٤).

ثم سار ﷺ بالجيش وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق، وفي إعطاء اللواء لأبي بكر في آخر
غزوة لرسول الله وتخليف علي على أهل البيت حكمة لطيفة بالغة يفهمها المسلمون. بأنه أحق الناس
بالخلافة. وفرق عليه السلام الرايات، فأعطى راية المهاجرين للزبير بن العوام، وراية الأوس لأسيد
بن حضير، وراية الخزرج للحباب بن المنذر.

ولما مر الجيش بالحجر (مدائن صالح)، وهي ديار ثمود قال ﷺ: «لا تدخلوا ديار الذين
ظلموا إلا وأنتم باكون» (٥) ليشعر قلوبهم رهبة الله وكان مستعملاً على حرس الجيش عباد بن

(١) سورة التوبة: آية ٤٥.

(٢) سورة التوبة: آية ٤٦.

(٣) سورة التوبة: آية ٤٧.

(٤) صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٩، ٣٧٠٦، دار طوق النجاة ١٤٢٢ هـ، تحقيق محمد زهير.

(٥) الحلبي، السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٨٩، دار الكتب العلمية بيروت طبعة ثانية ١٤٢٧ هـ.

بشر. وكان أبو بكر يصلي بالجيش. ولما وصلوا إلى تبوك وكانت أرضاً لا عمار فيها فقال الرسول لمعاذ بن جبل «يوشك إن طالت بك الحياة أن ترى ما هنا مليء بالبساتين، وقد كان. ولما استراح الجيش لحقه أبو خيشمة، وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قد رشت كل منهما عريشتها ومررت فيها ماء وهيات طعاماً وكان يوماً شديداً الحر، فلما نظر ذلك قال: يكون رسول الله في الحر وأبو خيشمة في ظل بارد وماء مهياً وامرأة حسناء!! ما هذا بالنصف ثم قال: والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله. فهيتا لي زاداً ففعلتا ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه وخرج يريد رسول الله، فصادفه حين نزل بتبوك.

ولما انطلق الجيش قاصداً تبوك وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته فأثرت الانسحاب بجيشها الذي كانت وجهته إلى حدودها ليحتمي داخل بلاد الشام في حصونها. فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف الرسول أمر انسحاب الروم ونمى إليه ما أصابهم من خوف، لم ير مجالاً لتتبعهم داخل بلادهم، وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد.

وقد سمع بمقام رسول الله ﷺ يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة أي العقبة، أحد الأمراء المقيمين على الحدود، وقد وجه إليه النبي رسالة بأن يدعن أو يغزوه، فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا والطاعة وصالح محمداً وأعطاه الجزية. كما صالحه أهل الجرباء وأذرح وأعطوه الجزية. وكتب رسول الله ﷺ كتاباً، أمّنهم فيها على أرواحهم وأموالهم. وهذا نص كتاب رسول الله ﷺ إلى يوحنا:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة: سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يجوز ماله دون نفسه وإنه لطيبة لمن

أخذه من الناس، وأنه لا يجلب أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر»^(١).
وإيداناً بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل
صنوف الرعاية بعد أن اتفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار كل عام.
كما كتب كتاباً لأهل أذرح والجرباء صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح والجرباء أنهم آمنون بأمان
الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل بالنصح والإحسان
للمسلمين»^(٢).

ثم إن الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام فقال
له عمر: إن كنت أمرت بالسير فسر، وقال عليه السلام: لو كنت أمرت بالسير لم أستشر.
فقال عمر يا رسول الله إن للروم جمعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا
وأفرعهم دنوك فلو رجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً^(٣).
. فتبع عليه السلام مشورته وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة.

وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه، بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في خمسمائة
فارس وأسرع خالد بالانقضاض على دومة^(٤). في غفلة من مليكها الذي خرج في ليلة مقمرة
ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش، ولم يلق خالد مقاومة تذكر فقتل حسان
وأخذ أكيدر أسيراً وهدده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها، وفتحت المدينة الأبواب فداء
لأميرها وساق خالد منها ألفي بغير وثمانمائة شاه وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع وذهب

(١) العسقلاني، فتح الباري، ج ٣، ص ٣٦٤، باب قوله باب خرص التمر دار المعرفة بيروت ١٣٧٩ هـ،
رقمه محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب الدينية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، طبعة أولى ١٩٩٦ م،
ج ٥، ص ٥٤.

(٣) الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ج ١، ص ٢٢١، طبعة دار الفيحاء دمشق ١٤٢٥ هـ.

(٤) هي المعروفة بدومة الجندل على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة.

بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي في عاصمته وعرض محمد ﷺ الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً.

مسجد الضرار:

ولما كان رسول الله ﷺ على مقربة من المدينة بلغه خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين.

وجاء جماعة منهم إلى الرسول ﷺ طالبين منه أن يصلي لهم فيه، فسألهم عن سبب بناءه فحلفوا بالله أن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون، فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه لينطلقوا إليه ويهدموه ففعلوا. وقد نزلت في هذا الأمر الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلْإِسْلَامِ أَسْوَاقًا يُبَيِّنُونَ لِلنَّاسِ مَوَازِيئَ اللَّهِ وَلِيُذَكِّرُوا الَّذِينَ نَسُوا وَأَلْفَاظًا مَوَازِيئًا ﴿١٧٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨٠﴾﴾ (١).

ولما استقر عليه السلام بالمدينة جاءه جماعة من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً، فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكّل ضمائرهم إلى الله واستغفر لهم.

عقاب الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

وجاء كعب بن مالك الخزرجي، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الأوسيان مقرين بذنوبهم. ولما دخل عليه كعب تبسم تبسم الغضب وقال: ما خلفك؟ فقال: يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أوتيت جدلاً ولكنني والله قد

(١) سورة التوبة من ١٠٧ - ١١٠.

علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط علي فيه ولئن حدثتك حديث صدق تغضب علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر فقال عليه السلام أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك وقال صاحبه مثل قوله، فقال لها ﷺ كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨).^(١)

ما يستفاد من غزوة تبوك:

- ١- إن الروم بسبب ما وصلهم من انتصارات المسلمين في الجزيرة العربية جمعوا جمعهم ومعهم نصارى العرب بين بلاد الشام والحجاز لقتال المسلمين.
- ٢- عندما سمع رسول الله ﷺ بجموعهم قام بجمع المسلمين لقتالهم ليغزوهم في عقر دارهم قبل أن يغزوهم.
- ٣- عندما سمع الروم بخروج المسلمين لقتالهم وكثرة عددهم انسحبوا ولم يجابهوا المسلمين.
- ٤- إن شدة الحر في الوقت الذي خرج به رسول الله ﷺ وبعد المسافة بينه وبين حدود بلاد الشام لم يمنعه من الخروج للقتال في سبيل الله.
- ٥- من علامات المنافقين الحرص على المكاسب الدنيوية دون مشقة كبعد المسافة وشدة الحر وعدم التضحية والقتال في سبيل الله.
- ٦- إن من سلاح المنافقين للتغطية على نفاقهم وكفرهم الحلف بالله كذباً لمحاولة خداع

(١) سورة التوبة: آية ١١٨ .

المؤمنين ومراوغتهم.

٧- إن المؤمن الصادق في إيمانه لا يتخلف عن الجهاد في سبيل الله ولا يشغله عن ذلك ماله وعياله.

٨- على كل مسلم يستطيع أن يجاهد في سبيل الله أن يعد العدة المستطاعة في ذلك.

٩- إن من طبيعة المنافقين تهيئ عزائم المسلمين الذين يريدون القتال في سبيل الله.

١٠- إن التخلف عن الجهاد في سبيل الله مع القدرة عليه من صفات المنافقين.

١١- إن الصدق في القول والإعتراف بالذنب والتوبة عنه من مدعاة العفو والمغفرة من الله سبحانه.

١٢- إن من يعد العدة لقتال المسلمين من أهل الكتاب على المسلمين، على المسلمين مقاتلته أو دفع الجزية وهو صاغر.

١٣- كان من نتيجة غزوة تبوك كشف حقيقة المنافقين في سورة التوبة ولذلك سميت بالسورة الفاضحة.

١٤- إن من أعمال المنافقين بناء المساجد والتظاهر بالقيام بالأعمال الصالحة لستر نفاقهم كبنائهم مسجد الضرار.

حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الناس:

بعد غزوة تبوك أخذت الوفود من الجزيرة العربية تقبل تترى إلى المدينة يعلنون إسلامهم، ولم يكن النبي ﷺ قد أدى فريضة الحج بعد أن فرض الله الحج على المسلمين بعد فتح مكة. وكان العرب يحجون إلى بيت الله الحرام منذ زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وبعضهم كان يحج وهم عراة، فكره رسول الله ﷺ رؤية الوثنيين يطوفون عراة بالبيت الحرام وهو يؤدي فريضة الحج، فأرسل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق في أخريات ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة ليحج بالناس وخرج معه ثلاثمئة رجل من المدينة ومعه الهدي عشرون بدنه أهداها رسول الله ﷺ وساق أبو بكر عن نفسه خمس بدنات، ولما سافر أنزل الله قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْخَرُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
 اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ
 يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ
 الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُورًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ
 لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿٧﴾ فَمَا
 اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا
 يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ﴿٨﴾ اسْتَرَوْا
 بِعَايَتِ اللَّهِ ثُمَّ نَمَنَّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
 وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ
 فِي الدِّينِ وَنُقِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي
 دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا نُفَلِّتُلُوكُمْ قَوْمًا
 نَكَاثًا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْتَشُونَ ﴿١٣﴾
 فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴿٢﴾

فقد أعلن الله في هذه الآيات براءة الله ورسوله من المشركين وأمرهم أن يتنقلوا في الأرض

(١) عاهدتم عند المسجد الحرام: المراد بنو كنانة وبنو صخره الذين كانوا يسكنون حول مكة متضامنين مع قريش قبل الهجرة في المسجد كل تدايرها ومكائدا للنبي ﷺ وصحبه، وما كان ينسب لقريش قبل إسلامها فهو ينسب لهم.

(٢) سورة التوبة: الآيات ١-١٣.

كيف شاءوا مدة أربعة أشهر. تبدأ من يوم عشرة ذي الحجة ويوم عرفة سنة ٩ هـ. يوم أبلغهم بهذا البلاغ فقد أمرهم أن ينتقلوا في الأرض كيف شاءوا وأن لا يتعرض لهم أحد. وأعلمهم بأنهم لا يعجزون الله بالهرب إذا أراد عقابهم. وكان بين رسول الله ﷺ وبعض القبائل العربية المشركة عهود إلى آجال مسماها، ولم ينقضوا عهودهم عندما نقضت قريش وبنو بكر عهدهما، فقد أمر الله بأن يتم الوفاء بهذه العهود إلى أن تنتهي مدتها، وبعد نزول هذه الآيات بعد سفر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أرسل رسول الله ﷺ علياً نائباً عنه ليقوم بهذا الإعلان والتبليغ في يوم عيد الأضحى، فتوجه علي لاحقاً بأمير الحج أبو بكر فلقية في الطريق فقال له الصديق: أميرٌ أم مأمور؟ قال: بل مأمور ولكن بعثني رسول الله ﷺ أقرأ أو أتلو ما نزل عليه من سورة براءة.

فلما أجمع الناس بمنى يوم النحر وهو يوم عيد الأضحى، قرأ عليهم علي ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة والتي تتضمن ما يلي:

- ١- نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم.
- ٢- أمهالهم أربعة أشهر ينتقلون في الأرض كيف شاءوا لا يتعرض لهم أحد.
- ٣- أتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم.
- ٤- من أراد أن يأتي إلى المدينة ويستمتع إلى ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن، وإلى معرفة حقيقة ما يدعو إليه فليأت، وإن لم يستجب وأراد أن يعودو إلى مكان يأمن فيه على نفسه، فعلى المسلمين أن يؤمنوه. ثم نادى علي رضي الله عنه، لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما.

بعث النبي ﷺ العمال لتعليم الناس الإسلام:-

كان النبي يبعث عماله إلى القبائل ليعلم الناس أمور دينهم، ومن بعثه عليه السلام، معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري إلى اليمن ووصاهما بقوله: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا» وقال لمعاذ: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم

فترد إلى فقرائهم، فإن أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، وأتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينهما وبين الله حجاب.

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله، أما أبو موسى فقدم على رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

حجة الوداع: وفي السنة العاشرة من الهجرة حج ﷺ بالناس حجة الوداع. ودع فيها المسلمين ولم يحج غيرها بعد ان فرض الحج، وخرج لها يوم السبت لخمس بقيت من ذي القعدة وولى على المدينة أبا دجانة الأنصاري وكان مع رسول الله ﷺ جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً وأحرم للحج حيث أنبعثت به راحلته من المدينة، ثم لبي فقال: - لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ولم يزل ﷺ سائراً حتى دخل مكة ضحى من الثنية العليا وهي ثنية كداء. ولما رأى البيت قال: اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً. ثم طاف بالبيت سبعا وأستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا ركباً على راحلته. وكان اذا صعد الصفا يقول: «لا اله إلا الله الله أكبر، لا اله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها وفي التاسع منها توجه إلى عرفه وهناك خطب خطبته الشريفه التي بين فيها أساس الدين وبعض فروعه.

فقد حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، أسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها.

وإن كُلاً رباً موضوع (مهدر)، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دماءكم أضع دم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

أما بعد، أيها الناس فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً. ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فأحذروه على دينكم!!.

أيها الناس، أنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطأوا عدة ما حرم الله. فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب المفرد الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً فإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن وإن الله قد أذن لكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أنتهين فلهن كسوتهن ورزقهن بالمعروف.

وأستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان (أسرى). لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله وأستحللتم فروجهن بكتاب الله.

فأعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً، كتاب الله وسنة رسوله.

أيها الناس، أسمعوا قولي وأعقلوه، تعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوه فلا يحل لأمرئ من أخيه إلا من أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟! اللهم أشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، وكلكم لأدم وأدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، الا قد بلغت؟ اللهم أشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من أدعى إلى غير أبيه، أو ولى غير موالية فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل، قال ابن إسحق: كان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ربيعة بن أمية بن خلف. وقد قال رسول الله في آخر الخطبة: اللهم هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم فقال: اللهم أشهد وأقام حتى صلى الظهر والعصر جمع تقديم.

وفي هذا اليوم أمتن الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١). وقد أتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً، يظهر فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى.

ثم إنه عليه السلام أدى الحج من المبيت بالمزدلفة ثم الذهاب إلى منى لرمي الحجار والنحر والحلق والطواف بالبيت العتيق ثم بالرجوع للمبيت بمنى وأتم حجه بعد أن طاف بالبيت طواف الوداع. وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام وقفل إلى المدينة راجعاً هو ومن كان معه.

تجهيز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما:

في السنة الحادية عشرة من الهجرة لأربع بقين من صفر، جهز رسول الله ﷺ جيشاً إلى المكان الذي أستشهد فيه زيد بن حارثة ورفيقه في غزوة مؤتة، وأمر عليه بنة أسامه وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك وأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل ابنا (قرية قريبة من مؤتة) وحرّق عليهم وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم، وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك»^(٢).

ثم عقد عليه الصلاة والسلام اللواء له وقال: «أغر باسم الله في سبيل الله».

ولما كان أسامة شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر من عمره فإن البعض ساءهم هذه الإماره، وهو أن

يقود الكبار شاب حديث السن.

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) نور اليقين، ص ٢٧١.

ولكن النبي ﷺ لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة والكفاءة، فمن إستحق منصباً قدمه له غير مكترث بحدائثه سنه.

ولذلك قال رسول الله ﷺ رداً على اعتراض الناقدين «لئن طعتم في تأمير أسامه فقد طعتم في تأمير أبيه من قبل، ولأيم الله إنه لكان خليفاً بالإمارة وإن كان لأحب الناس إلي»^(١).
واقترب الناس يلتفون حول أسامة وينضمون في جيشه، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث حتى يعرفوا ما يقضي به الله.

ومن الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ لإعداد هذا الجيش لقتال الروم سوى ما حصل في غزوة مؤتة هو أن الروم كانوا يقتلون كل من يعلمون بإسلامه، فقد كان فروة بن عمر الجذامي والياً من قبل الروم على مدينة معان وما حولها من أراضي الشام فأعتنق الإسلام وبعث إلى النبي ﷺ يخبره بذلك. وغضب الروم فجردوا (فأرسلوا) على فروة حملة جاءت به فألقي في السجن حتى صدر الحكم بقتله فضرب على ماء يقال له عفراء في الأردن (قرب مدينة الطفيله) وترك مصلوباً ليرهب غيره أن يسلك مسلكه! وقيل بأنه لما قدم للقتل قال:

سراة بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ودمائي

فغضب رسول الله ﷺ لذلك وخاف أن يهرب هذا من يريد أن يعتنق الإسلام من ولاية الروم ممن عقد معهم حلفاً على حدود بلاده في غزوة تبوك أو خوفاً من أن ينقضوا عهدهم معه.
فللثأر لجيش مؤتة، ولإرهاب الروم وإعادة الثقة إلى العرب الضارين على الحدود الذين وقّع معهم المعاهدات وحتى لا يحسبن أحد منهم أن تُصيّق الكنيسة المتمثلة بإمبراطورية الروم بمنعهم من الدخول في الإسلام، أمر رسول الله ﷺ بتجهيز جيش أسامة.

مرض رسول الله:

ولما بلغ رسول الله ﷺ ذروة الكمال ونزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ

(١) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر.

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿١﴾.

وبلَّغ رسول الله ﷺ الرسالة من ربه وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده وربى أمة تقلدت مهام النبوة ومسئوليتها، وكُلِّفَت النهوض بالدعوة إلى الله وصيانة الدين من التحريف والتي قال الله فيها: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢). وضمن الله لهذه الأمة كتابها الذي أنزل على رسولها الذي هو أساس دينها حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣). وتحقيقاً لوعده الله لرسوله بدخول الناس في هذا الدين أفواجاً. بدت طلائع أنتشاره في العالم وظهوره على الأديان كلها وذلك بقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾ (٥). أذن الله لنبيه باللقاء الذي لم يكن أحد أشد شوقاً له منه، وقد أحب الله لقاءه كما أحب رسول الله لقاء ربه. فقد جلس رسول الله ﷺ يوماً على المنبر مرة وكان فيما قال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتية زهرة الدنيا وبين ما عنده، فأختار ما عنده، فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا فقال عليه السلام: إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله، أبو بكر. فلو كنت متخذاً خليلاً. لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة (٦) الإسلام وقال لا يبق في المسجد خوذة إلا سدت إلا خوذة أبي بكر «وهي إلى اليوم باقية وتعرف بباب أبي بكر الصديق».

وقد بدأ مرضه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت زوجته ميمونة

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١١.

(٣) سورة الحجر آية ٩.

(٤) سورة النصر ١-٣.

(٥) سورة الصف آية ٩.

(٦) وفي رواية البخاري: ((ولكن صحبه وآخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده)).

واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً، كان خلالها يتنقل إلى بيوت أزواجه، ولما أشد عليه المرض جمعهن وأستأذن منهن أن يُمرّض في بيت عائشة فأذن له.

ولما دخل بيتها واشتد وجعه قال: أريقوا علي من سبع قرب، ولم تحل أو كيتهن لعلي أعهد إلى الناس، فأجلس في مخضب (وعاء) وصب عليه الماء حتى أشار بيده إن قد حصل ما يريده. وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه.

وروي أن رسول الله ﷺ لما أحس بدنو أجله خطب بالناس فقال: «أني أحمد الله الذي لا إله إلا هو... فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني ألا أن أحبكم إلي من أخذ مني حقه، إن كان له أو أحلني منه فلقيت الله وأنا طيب النفس ثم نزل فصلى الظهر وعاد إلى بيته».

صلاة أبو بكر بالناس:

ولما تعذر عليه الصلاة والسلام الخروج إلى الصلاة قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، وصلى أبو بكر في الناس سبع عشرة مرة.

ولما رأت الأنصار اشتداد وجع الرسول طافوا بالمسجد، فدخل العباس وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج رسول الله ﷺ متوكئاً على علي والفضل، وتقدم العباس أمامهم والني معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر. فثار الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم وهل خلد نبي قبلي فيمن بعثه الله، فأخلد فيكم؟ ألا أي لاحق بربي وإنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرَ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾^(١). وأن الأمور تجري بإذن الله ولا يحملنكم إستبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يُعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله

(١) سورة العصر ١-٣.

غلبه ومن خادع الله خدعه في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ قَوَّلْتُمْ أَنْ تُلْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١). وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة؟. ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم.

ألا ولا تستأثروا عليهم. ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يردّ علي غداً فليكيف يده ولسانه إلا فيما ينبغي.

وقد شعر العباس بأن النبي ﷺ في مرض الموت فطلب من علي أن يسأل لمن تكون سيادة الناس بعد وفاة رسول الله، ولمن يكون الأمر من بعده.

بيد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك وأثر ترك الأمر لجمهور المسلمين.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما، لما أشتد برسول الله المرض قال لرجال كانوا في البيت: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجد وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثروا اللغو والأختلاف. قال رسول الله ﷺ (٢).

وفاة رسول الله ﷺ:

وبينا المسلمون في صلاة الفجر من يوم الإثنين ثالث عشر من ربيع الأول وأبو بكر يصلي بهم إذا برسول الله ﷺ قد كشف غطاء حجرة عائشة فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبيه ليصل الصف وظن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجر وأرخى الستر.

(١) سورة محمد آية ٢٢.

(٢) رواه البخاري في باب مرض النبي ووفاته ج ٥ ص ١٣٨.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة. ثم رجع وانصرف الناس وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجعه وأطمأن أبو بكر لهذا الظن فرجع إلى أهله بالسنع (منطقة في ضواحي المدينة). ولم تأت صحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق مولاه وكان ذلك في يوم الإثنين ثلاثة عشر ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٨ يونيو سنة ٦٢٣ م.

فيكون عمره عليه السلام ثلاث وستون سنة قمرية (٦٣) كاملة وثلاثة أيام، وأحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوماً.

وتسرب نبأ وفاته للناس، فسل عمر سيفه وتوعد من يقول أن محمداً قد مات وقال إنها أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فغاب عن قومه أربعين ليلة. قال والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات!.

فأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة وهو مسجى في ناحية البيت وعليه بردة، فأقبل حتى كشف عن وجهه فجثا يقبله ويبكي ويقول: توفي والذي نفسي بيده صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين^(١). ثم خرج وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٢). قال عمر: فكأنني لم أقرأ هذه الآية قط. فعقرت^(١). حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

(١) البخاري، الصحيح، باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤.

فقام علي ويساعده العباس وابناؤه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشعران مولى رسول الله لتغسيله وتكفينه، وقد كفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره في بيته، ودخل الناس عليه أرسالاً متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ثم حفر له لحد في حجرة عائشة حيث توفي^(٢).

وقد بين أبو بكر للناس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض» ورفع قبره عن الأرض مقدار شبر.

وباع المسلمون أبا بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، ويفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة، وعليهم أمير يتولى أمورهم.

إنفاذ جيش أسامة:

ولم تكد أن تتم البيعة العامة لأبي بكر الصديق حتى أمر بإنفاذ جيش لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به.

وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبي عليه الصلاة والسلام وانضم عمر بن الخطاب إلى المعترضين. ورأى ألا يشتم المسلمون، وأن يحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر يدعو إليهم.

ولكن أبا بكر لم يتردد لحظة في تنفيذ أمر الرسول ﷺ ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسن من أسامة وأكثر من في الحرب دربة وخرج الجيش وأسامة على رأسه وخرج أبو بكر يودعه.

هنالك طلب إلى أسامة أن يعفي ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة مستشاراً له. ولم تمضِ عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على مؤته وأنتمم أسامة

(١) فعقرت: تحيرت ودهشت.

(٢) نور اليقين، ص ٢٧٥.

للمسلمين ولأبيه الذي قتل في معركة مؤتة. وعاد الجيش بسلام وحقق ما كان يصبو إليه رسول الله ﷺ من الأهداف التي سبق ذكرها.

ولما قبض النبي عليه الصلاة والسلام طلبت فاطمة ابنته إلى أبي بكر أن يرد عليها ما ترك من أرضٍ بفدك وخيبر لكن أبا بكر أجابها بقول أبيها عليه الصلاة والسلام: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة». ثم قال لها فأما إن كان أبوك قد وهب لك هذا المال فإني أقبل كلمتك في ذلك وأنفذ ما أمر به، فأجابت فاطمة بأن أباهما لم يفض إليها بشيء من ذلك، وأنها أخبرتها أم أيمن بأن ذلك كان قصده.

عند ذلك أصر أبو بكر على استبقاء فدك وأرض خيبر وردهما إلى بيت مال المسلمين. وكذلك خرج رسول الله ﷺ من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئاً من عرضها الزائل لأحد بعده، خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيم ومهد فيها لهذه الحضارة الإسلامية الكبرى التي تفتياً العالم ظلالها من قبل، وسيتفياً ظلالها من بعد، وأقر فيها عقيدة التوحيد لله سبحانه وتعالى، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وقضى على الوثنية وعلى كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وترك من بعده كتاب الله هدىً للناس ورحمة للعالمين، وكان فيها المثل الأسمى والأسوة الحسنة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

١٧-٩-٢٠١٤